أحمد أوميت

AHMET ÜMIT

الليل والضباب

SIS ve GECE

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الليل والضباب

SIS ve GECE

الليل والضباب

SIS VE GECE

أحمد أوميت

Ahmet Ümit

ترجمة: مهتاب محمد

مراجعة وتحرير مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل التركي
SIS VE GECE
تأليف AHMET ÜMİT
Copyright © 2002, Ahmet Ümit
Copyright © 2010, Everest Publishing.
No part of this book may be reporduced, in any form
without written permission from the publisher.
Published by arrangement with Kalem Agency
نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع
Translation is sponsored by TEDA
T.C. Kultur ve Turizm Bakanligi
Kutuphaneler ve Yayimlar Genel Mudurlugu
Fevzi Paşa Mahallesi Cumhuriyet Bulvarı No:4 (Eski Sayıştay Binası)
Ulus/ANKARA/TURKEY 06030
e-mail: teda@kulturturizm.gov.tr Web: www.tedaproject.com
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من
Kalem Agency, Eusiz Sokak No. 2-3 Beyoglu Tunel Istanbul, Turkey
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل.
Arabic Copyright © 2015 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: 2016 م – 1437 هـ

ردمك 978-614-02-2827-6

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

الإهداء

إلى ذكرى أنور كورت

الفصل الأول

لا أعلم كيف أو متى وصلت إلى هنا، فقد وجدت نفسي أهيم على وجهي أمام هذا القصر المهجور الذي تغطي طبقة من الغبار السميك نوافذه التي تقشر الطلاء عن حوافها، وبدت مظلمة كظلمة «الداخل». ينتصب القصر كمارد جدرانه الخضر القاتمة تسلقتها عرائش وحشائش متشابكة، فيما يبدو بابه الحديدي مغلقاً إلى الأبد، ما الذي أفعله أمام هذا البناء المسكين، الذي أفل مجده، بحديقته الواسعة التي تبدو كمقبرة مهملة؟ رغم محاولاتي إلا أنني لا أجد باباً يفضي بي إلى الماضي، تتحرك بعض الأشباح في مخيلتي، دون أن تتخذ أشكالاً واضحة، وكأن الزمن أذاب كل ما عشته ومزجه في إناء واحد، لأقف عاجزاً أمام طلاسم هذه الأحجية التي تمتصني كمستنقع، دون أن أرى سبيلاً للخروج، تماماً كعجزي عن معرفة حكاية هذا القصر المحزون الذي تُرك في هذا القفر تحت رحمة الشمس والأمطار.

بالرغم من أنني لا أفقه في فن العمارة شيئاً، لكنني أستطيع الجزم أن هذه الأبراج الطويلة، والجدران المصمّتة، والنوافذ الضيقة، لا تشبه الطراز المألوف لقصورنا على الإطلاق، بل تذكرني بالقصور التي شاهدتها من قبل في ألمانيا. لو كانت مينة هنا الآن لعلّقت بالقول: «هذه الأبراج نموذج للطراز القروسطي، أما النوافذ فتحمل طابع فن النهضة الألماني».

مينة! أجل أنا أبحث عن مينة. فقد مضى على اختفائها خمسة أيام، فحين ذهبت إلى بيتها، لم أجد أحداً قابلها أو سمع عنها شيئاً منذ ذلك التاريخ. ولكن أليس في الأمر خطب ما؟ إن كانت هي المختفية فما شأني أمام هذا القصر الشبحي في هذا الجرد القاحل؟

تعود نظراتي إلى القصر الذي قد يوقظ منظره الخوف في نفوس الآخرين، ولكنه لا يحرك فيّ سوى مشاعر الحزن. فبالرغم من أنني، وبحسب ما أذكر، لم أرَ هذا المكان من قبل، ولكنني أشعر بذلك الرابط الخفي والغامض في آن؛ الذي يجمعنا. اتجه نحو الباب وأنا أمشي فوق طبقة من الأوراق اليابسة التي تغطي الحديقة. فتلفت انتباهي المنحوتة على اللوح المرمري فوق الباب الحديدي، والتي تبدو لي على شكل نجمة، أما الشكل الذي تحتها فيبدو على شكل ماسورة أغلب الظن أنها تعود لمجسم مسدس، وهناك هلال معلّق على ماسورته. نجمة تحتها مسدس وهلال معلق بماسورته، لقد رأيت هذا الشعار من قبل، ولكن أين؟

أقتربُ من الباب أكثر، وأحاول فك القفل الصدئ الذي يتدلى من سلسلة حديدية، ولكنه يبدو قوياً بما لا يناسب شكله البالي. أترك القفل، وأبدأ في دفع الباب، حيث تثور غيمة من الغبار المترسب عليه وكأنّ ما من يدٍ قاربته منذ سنين طويلة، إلا أنه لا يتحرك من مكانه. تترسب على يدي ذرات صفراء، ولكنني لا أيأس، بل أطرق الباب بكلتا يدي، فلا يصلني من الداخل بصيص صوت أو حركة. أواصل الطرق بكفيّ الاثنتين بقوة أكبر، والغريب أنني لا أشعر بالألم، ولكن العرق ينضح من جسدي؛ وفقط من الجزء الأيمن منه. ما زلت أطرق بكل قوة دون أن يأتيني صوت من المنزل، ولكن العرق يواصل النضوح بغزارة. أكاد أشعر بالحرارة التي تبثها بشرتي، ولكن لماذا يتعرق الطرف الأيمن من جسدي؟ لا أفهم. يبدأ الخوف بالتسلل إليّ، أخاف ماضيي، عقلي وجسدي، وهذا القصر القديم أيضاً.

أحاول تنحية الخوف جانباً، بمواساة نفسي أنّ زملائي في الاستخبارات لن يتركوني بمفردي، ولا بدّ أن يأتي أحد ويجدني. حتى لو نسيني الجميع، فلن ينساني يلْدرم.. يلدرم! ألم يمت يلدرم؟

أتعرق بغزارة وأشعر بحبات العرق الدافئة وهي تنزّ من مسام كتفي وبطني. يلتصق قميصي المبلل بجسدي، وأحس ببنطالي يغرق في بلل دافئ، ويبدو العرق

وكأنه يتخثر مع مرور الوقت.

يرن صوت جرس ما في أذنيّ، أظنه بداية صوت الرياح وهي تجول بين الأغصان المتيبسة، ولكنه حين يرنّ في المرة الثانية أدرك أنه صوت جرس هاتف ما. ألتفت مجدداً نحو القصر القديم، ولكن بابه يبقى مغلقاً كصندوق الأسرار دون أن يعطيني توضيحاً ما، ليعود صوت الجرس ثالثةً، ولكن بإصرار أكبر هذه المرة. أركض باتجاه الباب قلقاً، أنا واثق أنه يلدرم من يتصل بي. أخيراً تمكن من العثور على أثر لي، أدفع الباب بكل قوة، بكتفي وكل جسدي، ولكنه لشدة إحكامه، لا يتزحزح قيد أنملة، ويعود صوت الجرس، فأصغي بانتباه أكثر. يبدو لي وكأنه قادم من خلف القصر، فأسرع في ذلك الاتجاه، وما أن أنعطف نحو الزاوية، حتى أرى أمامي علبة هاتف عمومية كالتي توضع على أرصفة الطرقات. عليّ الردّ قبل أن يسكت الهاتف. أسرع نحو الداخل وأرفع السماعة في منتصف الرنة.

– ألو..

ولكن ما من صوت يرد.

– ألو..

أحس بنيران تلهب جسدي والعرق يتفصد بغزارة.

– ألو..

يبدأ صوت بارد بالتحدث:

– لقد أطلقوا النار على الضابط يلدرم بالقرب من منزله.

أحاول أن أسأله عن أمر ما، ولكن الجفاف يكتسح فمي، وأشعر بالجلد الرقيق الذي يغطي شفتيّ يتشقق، وينحسر عن اللحم العاري فيحاول لساني ترطيب

شفتي، ولكنه يتلوى كأفعى على وشك الموت في فمي من دون أن ينصاع لرغبتي. أغلق المتصل السماعة من دون أن يمهلني فرصة السؤال. فيما أقف مشدوهاً في مكاني والسماعة في يدي. ينزّ من السماعة سائل كثيف بلون الطين القاني ويسير ببطء على السلك. أمعن النظر لأرى أنه ليس سوى عرقي. وأدرك أنني لو بقيت أكثر في الداخل، فسأغرق بعرقي لا محالة.

ما إن أخرج من العلبة، حتى أصادف حشداً قريباً. إنها جنازة أحدهم والكل يرتدي الأسود، أظنه تأبيناً رسمياً. يقتربون بخطى وقورة، تثقلها الأجواء الجنائزية المحيطة بهم. الحشد مؤلف بمجمله من الرجال، سوى امرأة واحدة تسير أمام التابوت، وهي تحتضن لوحة زيتية مؤطرة – لا بدّ أنها صورة للميت – وقد أخفت شعرها تحت الغطاء الأسود الذي تضعه على رأسها. وحين يقتربون أكثر، أتمكن من التعرف إليها: إنها غول سيران؛ زوجة يلدرم. أشعر بخجل لا أعرف سببه، وأنسحق تحت وطأته كطفل. تقترب غول سيران حتى تقف أمامي، فأطأطئ رأسي.

– ألم تخبرني بأنكم لن تتركوه بمفرده؟ لقد كان يثق بكم.

لم يكن هناك أثر للغضب أو الحزن، بل كانت تتكلم بنبرة آلية باردة.

لم أعرف ما يجب عليّ قوله، فاكتفيت بالتراجع خطوتين، وتقدمت هي خطوتين، واستمررت بالتراجع كلما تقدمت مني. ومقابل كل خطوة أتراجعها، تقترب مني خطوة بدورها. وهذا ما يثير قلقي، ما الذي تحاول فعله هذه المرأة؟ أرفع رأسي، وأنا أتوقع نظراتها اللائمة المعاتبة التي تتهمني بالخوف والتخاذل، ولكنها تواصل الحفاظ على قسمات وجهها الخالية من أي تعبير، تبدو وكأنها لا تراني، بل تخترق نظراتها الجامدة جسدي، وهي تحدق إلى اللاشيء. إنها لا تشبه نظرات شخص طبيعي، تتجه نظراتي نحو الحشد أملاً في المساعدة، ولكنّ نظراتهم لا تختلف عن نظراتها في شيء، ينتابني خوف ورغبة في الابتعاد أسرع ما يكون عن هذا

الحشد الغريب. أستدير لأبدأ بالهرب، لكنني أتعثر وأسقط على وجهي، أعود للالتفات نحو الحشد بسرعة، حيث غول سيران والجميع يقتربون مني. لا وقت لديّ للنهوض والهرب، عليّ التصرف بأسرع ما يمكن. أبحث عن مسدس، وحين أبدأ بالتحرك، يسرّع الحشد في الاقتراب مني. أدخل يدي في القراب فأكتشف أنه فارغ. يقتربون أكثر، ولا يفصلني عن غول سيران واللوحة التي تحتضنها سوى أقل من متر واحد.

لوهلة يبدو لي أنني أعرف صاحب الصورة، ولكن مع اقترابها أكثر، تختلط الألوان بعضها ببعض، وتختفي ملامحه تحت لطخات مشوِشة، حتى تطير كل الملامح والألوان. أعتقد أنني جننت، فأرفع رأسي وأنظر إلى غول سيران فنظرة أم أخيرة، ولكنها تواصل النظر إلى اللامكان، دون أن يطرأ أدنى تغير على ملامحها، بينما يقترب الحشد أكثر فأكثر. أحاول أن أصرخ بهم «قفوا»، وأن أوضح لهم أنهم يرتكبون خطأً، ولكنني لا أتمكن من فتح فمي. أستغرب أنّ فكي ولساني وشفتي لا تطيع أوامري، فرغم جميع محاولاتي، لا تخرج مني حتى آهة مقتضبة. يزداد خوفي، ومع ازدياده يتفصد عرق أكثر غزارة من جسدي. كتفي وبطني يزخّان عرقاً متواصلاً. تقترب الصورة مني أكثر، حتى أنها تكاد تلاصق وجهي، أدفن وجهي في التراب منتظراً أن يقوم الحشد بسحقي تحت أقدامه أو إعدامي هنا بالذات. يواصل قلبي التخبط بقوة كساعة فقدت انضباطها وسط فوضى الخوف. وأسمع قطرات العرق المنهمرة وهي تلامس التراب فيطغى صوت ملامستها الأرض على دقات قلبي، وأعتقد أنني حين أنهض سأخلف بقعة طينية في المكان، ولكن الوقت يمضي، ولا أحد يقوم بسحقي حتى أنني لا أتعرض لركلة واحدة، فيما أواصل الانتظار بصمت وسط قلقي ومخاوفي. ما من شيء يتغير، وأعتقد أنّ الحشد مرعب النظرات ما زال يقف فوقي، وقد أحاط بهم صمت الموت. أملّ الانتظار، فأرفع رأسي هلِعاً، ولكنني – ويا للمفاجأة – لا أجد أحداً، أتلفت في الأرجاء عبثاً، فما من أحد في الجوار. لقد ذهبوا، أتمتم بفرح «أجل لقد ذهبوا بالفعل». ولكن كيف لكل هؤلاء

الأشخاص أن يختفوا فجأة؟ أنهض مستنداً على يدي وركبتي، فأرى اللوحة التي كانت تحملها غول سيران، تقف قبالتي تماماً، تحت شجرة صفصاف عجوز تكاد تسقط في أي لحظة، ولكنها مثبتة على حاملة خشبية جديدة. إذاً فقد تركوها هنا. قد تكون إشارة لإيصال رسالة ما! أدقق النظر فيها، فيبدو لي الرسم أقرب إلى رجل مستلقٍ على الأرض، ولكنني لا أميزه من بعيد. أقترب أكثر فلا تطير الألوان هذه المرة. أستطيع أن أرى الرجل بوضوح، يداه اللتان تمسكان ببطنه، ويبدو وكأنه يعارك آلامه هناك. يسيل خيط أحمر ينبع من بين يديه، وهناك بقعة قاتمة تغطي كتفه وذراعه الأيمنين. لا بد أنه مصاب. وجهه متغضّن فيما قطرات العرق تلتمع على جبينه. يبدو كل شيء واضحاً حتى كأنه واقع وليس لوحة. يقطع ذلك الخيط الأحمر المنساب من بين أصابعه، اللوحة من طرف إلى الطرف الآخر. يبدو لي الرجل مألوفاً، بل أجزم أنني رأيته في مكان ما، ولكن أين؟

الفصل الثاني

رائحة المغنوليا تعبق، نسمة دافئة تتسلل بهدوء من الشرفة المشمسة، لتترجّح الستائر برفق. تتراءى لي الخضرة القاتمة لشجرة الكستناء في الحديقة. هل أنا في قصر جدي؟ غريب! ألم نبعه منذ فترة طويلة؟ بعضهم يتحدث إلى جواري، لكنها أصوات جعجعة. وحين أحاول فهمها، تبتعد رائحة المغنوليا، وتضيع مني أشجار الكستناء، وتتوقف النسائم فجأة.

– انظر بدأ بالتحرك، إنه يستيقظ.

الصوت آتٍ من عمق بعيد، بالكاد أستطيع سماعه.. وكأن أعباء ثقيلة ترقد على جفني اللذين أفتحهما بجهد بالغ. لكن سطوع الضوء يعشى بصري، وألمح ظلين فوق رأسي. لوهلة لا أدرك أين أنا تماماً، فالضوء يحرق عينيّ. لا أريد أي أضواء، أو أصوات، ولا التفكير في «أين أنا»؟ فحديقة القصر الظليلة ما زالت تناديني.

أمي وزوجة عمي نريمان جالستان تحت العريشة، تتحدثان عن الموضة والأزياء المصورة في مجلة الأزياء التي معهما. أما أبي وعمي عصمت، فهما في مكانهما المعتاد على الطاولة التي تحت ظلال شجرة الكستناء، يحتسيان الشراب، أذهب إلى طاولة الرجال، وآكل بعضاً من البسطرما التي في صحن عمي. طعمها شهي جداً. يلتفت عمي نحو المرأتين غامزاً، ويمد لي كأسه وهو يقول: «تذوق هذا الشراب». لم أكن أعرف طعم الشراب قبلاً، ولكنني لا أسمح لظلال الخوف بمس شجاعتي، وأتجرع رشفة من الكأس. فيبدأ خيط نار بالهبوط من حلقي نحو جوفي. لا أستطيع رؤية ما آلت إليه ملامحي، ولكن من المفترض أنها مضحكة، حتى يغرق

عمي في قهقهة صاخبة، فيما والدي يحدجنا قاطباً، وهو يهز رأسه مستنكراً.

– إنه يسترد الوعي، أبلغوا طبيبه.

يختفي طعم الشراب اللاذع من فمي، لكنني أشعر بالغثيان.

– انظروا إنه يستفيق، أيتها الممرضة أبلغي الطبيب.. الطبيب.. أين الطبيب؟

أصبح بمقدوري سماع الصوت بوضوح، فهو يرن في أذني بنبرة ملؤها قلقٌ ممزوج بالفرح.

أفتح عيني، فيتضح الظلان اللذان فوق رأسي على الفور، في البداية أميز وجه زوجتي مليكة، ومن ثم عمي عصمت. تميل مليكة فوقي، وقد قلصت عينيها اللتين ترمقانني في حنان، وتغطيهما الدموع.

– كيف تشعر يا عزيزي؟ ستشفى، ستشفى لا بأس عليك.

تحاول أن تمنحني الأمل، وهي أحوج ما يكون لمن يخفف من روعها. أما عمي عصمت فهو محافظ على هدوئه، وحين يراني أنظر إليه يبادرني بابتسامة، لكن ظلال قلق لم يزل بعد، تتراقص في عينيه. يقترب مني وهو يقول:

– تبدو بخير.

أيشوب صوته نبرة استياء؟ ولكنني لا أهتم، كل ما أود معرفته إن كانت مينة بخير.

– هل وجدتموها؟

– لكن صوتي الضعيف يخرج راعشاً، حتى أن عمي يمعن النظر فيّ بشدة، وكأنه يحاول تخمين ما أريد، ويوضّح لي ما جرى:

– لقد اختار الاشتباك، ولم نستطع القبض عليه حياً، أما الآخر فقد أرديته بنفسك.

من الذي أرديته؟ فخري، لا بد أنه يتحدث عنه. أجل لقد أطلقت عليه النار، ورأيته يتهاوى أرضاً. وأغلب الظن أنه أطلق عليّ الرصاص قبل أن يسقط تماماً. ولكن لا، فخري لم يطلق النار، كان الآخر هو من أصابني. ذلك الذي تنكّر في هيئة بائع متجول. هل قتلوه هو أيضاً؟ هل مات يا ترى؟

يواصل عمي حديثه، وكأنه يقرأ أفكاري، أو يريد معرفة الأثر الذي ستتركه الكلمات عليّ:

– كان على وشك الهرب، لكننا حاصرنا منزل التنظيم، فحصل اشتباك. ليتنا استطعنا القبض عليه حياً.

كانت مليكة تسمع بانتباه.

– وجدنا معه مسدساً أوتوماتيكياً بولندي الصنع. ولكنه ليس السلاح الذي أُطلق منه النار عليك.

لم يعثروا على السلاح، ولكنني لا أبالي، كل ما يهمني الآن هي مينة. ما الذي حدث لها؟ إن كان فخري مات، كما قتلوا رفيقه الآخر، فكيف لي الآن أن أعثر عليها؟ لو سألت عمي الآن، أعلم أنه أمر لن يروق له، كما أنّ مليكة لا تفارقني ولو لبرهة. عليّ حثّ عمي على الاقتراب أكثر، أحاول النهوض قليلاً، فأفشل. يدي اليمنى معلقة إلى كتفي برباط مثبت، وهناك أنبوب رفيع مغروز في وريدي. أرفع رأسي قليلاً، متابعاً اتجاه الأنبوب، لأجده موصولاً في طرفه الآخر بكيس معلق مليء بالدماء. لا بد أنّ هذا السائل القاتم يصب في وريدي ببطء، نقطة فنقطة.. ولكن السائل القاني يبدو كأنه راكد في الكيس لا ينقص منه شيء. فجأة يبدأ طنين في أذنيّ. هل هو بسبب منظر الدماء؟ لا أعتقد. فأنا معتاد على

رؤيتها. إذاً لِمَ هذا الدوار؟ يتكدر وجه عمي.

– الطبيب.. فليحضر أحدهم طبيباً.

– يبتعد صوت زوجتي المتوسل، وأغمض عيني. فأجد يلدرم آبي[1] قبالتي، يمدّ إليّ سيجارة، وابتسامته ظاهرة تحت شاربه.

– من الذي تنتظره؟

أسأله وأنا أتناول منه السيجارة.

– ومن سأنتظر هنا؟

يجيب على السؤال بسؤال ساخر، وهو يجول بنظراته في المكان.

أجاريه في النظر، فأجدنا نقف أمام باب البناء الذي أقطن.

– هنا منزلي.

أقولها مستغرباً.

– وقد كنت بانتظار مجيئك.

– حسناً، ولكن ألم تمت؟

أقترب منه أكثر، فيبدأ الحديث هامساً، وكأنه يبوح لي بسرّ ما.

– لقد أتيت في مهمة.

– مهمة؟ – تروقني الفكرة – هل جئت من أجل البحث عن القتلة؟

يقطع حديثي موضحاً:

– إيجاد قَتَلتي هي مهمتكم أنتم، أما أنا فقد أتيت من أجلك.

– من أجلي؟

– أجل، عليك اجتياز اختبار ما، وقد عُيّنت مراقباً لهذا الاختبار.

لا أفقه شيئاً، وأكرر السؤال في غباء:

– يلدرم آبي ألم تمت؟

– صحيح، لقد متّ – وترتسم على شفتيه ابتسامة مريرة – ولكن إن كنت تظنّ الموت سيثنيني عن إتمام وظيفتي، فأنت مخطئ.

أواصل النظر إليه لبرهة، رغبة في فهم ما يجري.

– حسناً، وأي نوع من الاختبارات هذا؟

– لا أستطيع إخبارك عن ماهية الاختبار، ولكنني أقول لك: إن أحسنت استعمال ما تعلمته، لن يكون هناك من سبب للفشل. لقد مررت باختبار مماثل في بنما منذ سنين طويلة، وأنا واثق من نجاحك.

يبتسم فأبادله الابتسامة في سعادة، فشكله لا يوحي بأنه شخص ميت.

– سننطلق سوياً في رحلة، وطوال الرحلة عليك عدم ارتكاب أي خطأ.

كما في الأيام الخوالي، أستغرق في المهمة بكليتي على الفور. وكأنّ يلدرم آبي لم يمت، وكأننا نخطط لواحدة من عملياتنا الكبرى، وبالثقة التي منحتني إياها السنون أجيبه:

– حسناً، أنا جاهز.

– إذاً فلنبدأ – ويشير برأسه نحو سيارتي التي تقف على بعد أمتار قليلة –

فلنتجه إلى السيارة.

نقترب من السيارة، فأخرج المفاتيح من جيبي، وأفتح الباب، وحين أجلس على المقعد الأمامي، أجد يلدرم آبي جالساً إلى المقعد المجاور، فلا أتمكن من إخفاء دهشتي.

– كف عن الذهول – ويتابع مبتسماً – هيا شغّل السيارة.

أدير المفتاح في مكانه، ومن دون إبطاء أسمع صوت المحرك وهو يبدأ العمل.

أنظر إليه من دون أن أسأله شيئاً، عليّ الاعتياد على الوضع الجديد. أرفع قدمي عن دواسة المكابح، وأبدأ بالضغط على دواسة البنزين، لتبدأ السيارة بالتحرك خارجة من حديقة البناء. وفيما ذهني منشغل بالبحث عن توضيح لهذا الوضع الملغز الذي وجدت نفسي فيه، يبادرني يلدرم آبي بالسؤال:

– هل وجدت الفتاة؟

ألتفت نحوه، فتلتقي أعيننا لوهلة، من الصعب عليّ التكهن إن كان يلومني، أم أنه يتفهمني. ثمّ أعود لمتابعة الطريق الممتد أمامي.

– أبدأت هذه العلاقة بعد موتي؟ – يعود للسؤال. ولكن من دون لوم أو تحقير. فقط هناك رغبة صديق يحاول تجاذب أطراف الحديث معي. وبالرغم من ذلك عليّ توخّي الحذر، فيلدرم آبي لا يولي الزواج والأولاد والحب أهمية تُذكر. على العكس تماماً، كان يخشى أن تؤثر العلاقات العاطفية على علاقاتنا العملية، التي يعتبرها الأهم. لذا كان من مناصري العلاقات الخاطفة والعابرة مع النساء، بدل الارتباط والتعلق طويل الأمد.

– من أين علمت؟ – أسأله.

– أنسيت؟ نحن نعرف كل شيء علينا معرفته، ومن ثم يكون الحل أكثر سهولة – يتكلم بأسلوب أستاذ يلقي معلومة، ولكن بنبرة تشوبها السخرية.

يؤسفني الأمر، ولكن عليّ أن أسيطر على نفسي. فأحاول تلطيف الأجواء، ومجاراته في المزاح:

– إذاً فالموضوع متعلق بالتجسس والتجسس المضاد؟ – وأردف في نبرة أكثر جدية – بحق الله، من أين سمعت عني وعن مينة؟

– لم أسمع من أحد، لقد بحثت في الأمر بنفسي.

– حسناً، حسناً.. لن أعود لسؤالك مرة أخرى «ألم تمت؟» ولكن أخبرني على الأقل، لِمَ بحثت في الأمر؟

– حين توقفت عن البحث عمن قتلني، فكّرت أن هناك سبباً قوياً دفعك لذلك.

كان عليّ التكهن بأنّ الحديث سيوصلنا إلى هذه النقطة. أبقى صامتاً لبرهة، فيما يواصل حديثه.

– لا تظنني ألومك. فلست مجبراً على البحث عن قتلتي وإيجادهم. وحده الفضول ما دفعني للبحث عن السبب.

أحاول لململة نفسي.

– ألا تعلم أننا تمكنا من الكشف عن القتلة؟ ذلك الإرهابي.

– بالله عليك يا سِدات! لا تقم بذلك معي. ألم تسألني منذ قليل «هل جئت من أجل البحث عن القتلة؟» بنفسك؟

– لم أكن أعني ما قلت.

– معيب ما تفعله حقاً. فأنت بذلك تقلل من شأن ذكائنا، وتهينه.

ألاحظ ازدياد هفواتي مع مواصلتي الحديث. أبدل السرعة لأزيد من سرعة السيارة، ويحافظ بدوره على صمته. يقابلنا على جانب الطريق إعلان أزرق كبير ضخم لإحدى علامات «الجينز». امرأة صهباء جذابة، بجسد عارٍ من الأعلى، ترتدي بنطال جينز يبرز كل مفاتنها، وهي تبتسم لنا بإغواء. وحين نجتاز الإعلان يسألني يلدرم آبي:

– لقد أراحتك الفتاة، أليس كذلك؟

أعترض على الفور:

– لا، الأمر ليس كما تعتقد. لقد أحببتها.

– وهذا ما أتحدث عنه. لقد قطعت تواصلك مع هذا العالم، وأخذتك معها إلى عالم كنت قد نسيته منذ دهر.

كنت أتوقعه أن يكمل «في الوقت الذي قُتلتُ فيه».. ولكنه لم يفعل. فسألته لأتخلص قليلاً من وطأة كلماته الثقيلة:

– أيكون الاختبار متعلقاً بهذا الأمر؟

– ربما. لا أستطيع أن أجزم..

– في الحقيقة كنت أنوي إخبار عمي بكل شيء – أبدو وكأنني بهذه الكلمات أقبل بخطأي.

– لا أوصيك بذلك، فهم لن يتفهموك. فمنذ مسألة البيان، وأنت لم تعد شخصاً موثوقاً بالنسبة إليهم.

لم أتوقع منه كلاماً مماثلاً. ما الذي يحاول هذا الرجل القيام به بحق

مكتبة

الجحيم؟

– وما هو رأيك؟ أتعتقد أنها كانت علاقة خاطئة؟

– لو علمت أنها خطأ، هل كنت ستتوقف عن ارتكابها؟

– ربما.

– أعتقد أنك كنت ستواصل. فالحب في عمرك، أمر في غاية الصعوبة.

– وما علاقة هذا الأمر بالعمر؟

– له علاقة قوية، ولكنه ليس الوقت الأنسب للتحدث في هذا الأمر.

– ما بالك تتحدث بغموض واقتضاب. كُنْ واضحاً، وحاول مساعدتي.

– لا تثق بي، فأنت وحيد الآن، وكل ما ستفعله، ستفعله لوحدك.

يدير رأسه ويبدأ في مراقبة الطريق مظهراً عدم رغبته في مواصلة الحديث. ولكنه يعود إليّ بعد لحظات.

– كل ما أستطيع منحك إياه، هو أن أوصيك بالحذر: كُنْ حذراً.

«كُنْ حذراً» ترن الكلمتان في أذني. فيلدرم لن يقدم على تحذيري إلا لأمر جلل. كان يقولها حين نكون في خضم عملية ما، وعلى وشك الاشتباك. هل يعطيني إشارة ما؟ ربما أنا مخطئ، وربما قالها دون هدف محدد. ولكنني أحبذ أخطائي في الاختبار على فشلي.

«كُنْ حذراً» كلما رنت الكلمة في ذاكرتي من جديد، تتجه يدي نحو سلاحي تلقائياً. هذه المرة لا أكرر الحركة، بل أكتفي بمراقبة المكان من حولي. ما من شيء يثير الشكوك. الطريق الفرعي الذي نسير فيه سيلتحم بالطريق الرئيسي ما

إن نجتاز وصلة العقد المتعرجة والمتشابكة التي ترفد الأصل بالفروع. الطريق ساكن، وبالقرب من العقدة التي نكاد نصلها، يقف رجل ما على الرصيف. لا أتمكن من تمييز وجهه، وأغلب الظن أنّ عربة ما تقف أمامه. نقترب منه أكثر، فأكتشف أنه بائع سيميت2. أحقاً هو مجرد بائع؟ ولكن لا يوجد كثير من المشاة ممن يعبرون هذا الطريق. أيبيعها لراكبي السيارات؟ أراقبه بتمعّن. لم أشاهده من قبل في هذه المنطقة. يشبه الباعة المتجولين حديثي الوصول من قراهم. ولكن عليّ التأكد. ألتفت نحو يلدرم، فأراه وهو يراقبني. أليس هو مراقب الاختبار، لذا لن يفوّت أياً من حركاتي، ابتداء بتنفسي، وحتى رفة العين. وبالمقابل يواجه نظراتي الراجية بهزة شديدة من رأسه تفهمني ألا «تسألني شيئاً». هل يريد أن يقول لي: «لا تضيع وقتك هباء في طلب المساعدة مني؟».

أخفف من السرعة قليلاً. لا أجد صعوبة في إخراج سلاحي من جعبته. أملأ المخزن بالرصاص بيدي اليمنى، وأضعه في حضني. بينما تتقلص المسافة بيننا وبين البائع. ألحظه وهو ينظر إلينا. يبدو متوتراً نوعا ما! يشيح بوجهه إلى جانب الطريق وكأنه أيضاً ينتظر إشارة ما. ألتفت إلى الجهة التي ينظر إليها، فتلتقي نظراتي مع نظرات فخري، يبدو وجهه منقبضاً، أرى مقبض المسدس حين يخرج يده اليمنى من جيبه. أفكّر في زيادة السرعة إلى أقصى حدّ والهرب، ولكن الوقت متأخر، لأنني سأصبح هدفاً سهلاً من الجانب والخلف. أضغط على المكابح بهدوء، بينما يحاول فخري التصويب نحوي. عليّ التصرف قبله. أوجه السلاح نحوه، وقبل أن أضغط على الزناد، أسمع صوت إطلاق النار. ومن ثم يطلق سلاحي النار أيضاً. فأرى فخري يتهاوى قبل أن يطلق النار. وفي الوقت ذاته أشعر بدفء عميق في بطني. ألتفت نحو البائع الجوال بسرعة، فيما أسمع صوت الطلقة وهي تخرج من نافذة السيارة اليمنى. أراه يقف أمامي على بعد أمتار، وهو يحمل المسدس بكلتا يديه، ويطلق النار نحوي. ألحظ الرعشة في يديه. أحمد الله أنه ليس متمرساً، وإلا كان قد أرسلني إلى العالم الآخر على الفور.

أحاول الاختباء تحت مقود السيارة، وكأنه كاف لحمايتي، وأبدأ في الرد عليه بنيراني. ولكنني ألحظ أنني لا أستطيع التحكّم في يدي المرتعشة. ينتفض ذراعي الأيمن في تقلص مؤلم. يبدو أنني تسرعت في الحكم على خبرة الرجل، فإن لم أتمكن من إطلاق النار، فأنا هالك لا محالة.. أنقل المسدس إلى يدي اليسرى، وأبدأ في إطلاق النار بشكل عشوائي، ولكن يبدو أن محاولتي تنجح، فغريمي يحاول الهرب لعدم قدرته على مواصلة الاشتباك. وأثناء ذلك يصطدم بالعربة، فأرى قطع السميت وهي تتطاير.. يترنح قليلاً ولكنه لا يسقط، بل يتمالك نفسه.. أوجه المسدس وأحاول التصويب، ولكنه يزداد طولاً بشكل مفاجئ.. وخلال ثوانٍ أجده يتضخم بحيث يصبح قادراً على قطع أمتار عدة في خطوة واحدة.. تلحق به إحدى قطع السميت التي تناثرت، وكلما اقتربت منه تزداد حجماً هي الأخرى، وحين تدانيه، يقفز عليها الرجل، ويقودها كما تُقاد دراجة بعجلة واحدة، ويبتعد مسرعاً.

– هل استغربت؟ – يسألني يلدرم الذي نسيت وجوده تماماً.

– رأيت ما رأيتُه أليس كذلك؟ – أسأله.

– لا يجدر بك أن تفقد الوعي. – يقول.

– أين كنت؟

– أنا هنا، بجانبك.

– لم تصب بأذى، أليس كذلك؟

– لا تكن مضحكاً، الأشباح لا تُصاب..

– معك حق.

أقولها مبتسماً، ولكن حتى الابتسام يسبب لي الألم، أظن أنّ حالتي بالغة

السوء.

– عليك أن تجد من ينقلك إلى المستشفى – يقول لي.

– أنت لا تستطيع مساعدتي، أليس كذلك؟

– لقد أخبرتك قبلاً، هذا اختبار لك أنت.

– هل اجتزتُه بنجاح؟

– لم ينتهِ بعد.

– لم ينتهِ؟

– لقد بدأ للتو – يقولها وهو يهز رأسه.

غموضه يثير حيرتي، فأفكاري تتجول قطعاً على غير هدى، وكأن كل قطعة قد اكتسبت بعداً آخر، فيما أفتقر القوة الكافية لتجميعها معاً. لا أفهم شيئاً، ولست في وضع يسمح لي بالفهم.. أحاول الخروج من هذه السيارة، والتوجه نحو مستشفى، ولكنني أعجز عن الحركة، فتخطر لي شتائم تطال كل شيء والجميع، يقترب المقود من بطني، فأحاول التراجع خلفاً حتى يلتصق ظهري بظهر المقعد، الذي أشعر به شديد القسوة، أحاول التنحي جانباً ولكنني أفشل، فيما يواصل المقود اقترابه مني. أعلق بين المقود والمقعد اللذين يبدوان وكأنهما متفقان على عصري وسحق جسدي حتى آخر قطرة دم في عروقي، أجد صعوبة في التنفس، أفتح فمي حتى النهاية، كسمكة رُميت على اليابسة، وأحاول أخذ نفس واحد، ولكن عبثاً. أشعر بالدوار، وبالطنين في أذني، وبالبرد. أبرد حتى أنّ أسناني تبدأ بالاصطكاك بعضها ببعض. أرغب في التقوقع على نفسي، وما إن أتحرك حتى تلدغني سياط الألم في كتفي وبطني.. يصلني صوت يلدرم الآمر.

– هدئ من روعك، هدئ من روعك، لقد مرّ الأمر.

أفتح عيني، فلا أجد يلدرم، بل أجد رجلاً عابساً، في مريول أبيض يقيس نبضي، وهو ينظر إلى ساعته ويحصي، ومن ثم يضع يده على جبيني ويسألني بودّ:

– أتشعر بالألم؟

– بالبرد.

– أمر طبيعي، لأنك فقدت كثيراً من الدماء.

يراقبنا عمي ومليكة في جزع، فيما يستقيم الطبيب.

– لا داعي للخوف، وضعه في تحسن.

– إنه يرتجف – تقولها مليكة وكأنّ الرعشة تنتابها..

يلتفت الطبيب نحو الممرضة القصيرة إلى جانبه:

– دثّري المريض ببطانية.

تتجه الممرضة نحو الخزانة المسندة إلى الحائط، وتخرج بطانية. فتأخذها مليكة منها، لتغطيني بحرص بالغ، وكأنها تخشى أن تجرحني، ولكن البرد لا يزول، ولا أستطيع الإحساس بالدفء.

الفصل الثالث

أشعر بالبرد.. ظلي المنعكس على بلاط المشرحة اللامع، يشي بالحزن. كتفاي متهدّلتان كمتسوّل أحنت السنون ظهره حتى احدودب.

– هل أنت بخير سيدي؟ – يسألني مصطفى باحترام بالغ.

– هناك بعض الكسور، ولكنني أحاول تدبر أمري. – أجيب.

غادرت المستشفى منذ يومين، ورغم أنني لم أتماثل للشفاء بالقدر الذي يسمح لي بالخروج إلى الشارع، لكن الوقت بالغ الأهمية وعليّ التحقق من شخصية من أطلق النار عليّ.

نتجه نحو القسم الذي تقع فيه الجثث، فتنتابني رعشة.. يحدجني الموظف بنظرة ساخرة، لا بدّ أنه يظنني أخاف الأموات. فهو يعتقد أنني أحد الشهود، بسبب ثيابي المدنية. لا أبالي به، ولا أستطيع لومه في الوقت ذاته، ولكن يبدو أنّ الأمر لا يروق لمصطفى.

– لِمَ تضحك؟ – يوبخه.

– لا لشيء. – يلملم الرجل نفسه، ويتجه نحو الدرج الثاني من صف الأدراج العرضية العشرية، المغطاة بغطاء معدني صقيل. يرفع الغطاء، وتدخل نسمة هواء باردة، فأشعر بالبرد. يسحب الدرج نحو الخارج، حيث الرجل الراقد في صمت أبدي مغطّىً بملاءة بيضاء. ينساب الدرج بيني أنا ومصطفى، ويتجه الموظف نحو البطاقة المعلقة بقدم الجثة.

– أوزِر يلكى، هذا هو الجسد الذي أتيت من أجله أليس كذلك؟

– هو بذاته – يقولها مصطفى ناظراً إليّ. ومن ثم يرفع الملاءة بهدوء. فيطالعني شعر الجثة بسواده الفاحم. شيء لا يصدق، وكأنه حيّ، فشعره شديد اللمعان. ثمّ أرى وجهه. شاب في الثلاثين من عمره، ضيق الجبين، حاجبان رفيعان فوق عينيه، وفوق عظمة الوجنة ثقب أسود. إنه أثر رصاصة عيار تسعة ملم. لكنني لا أعرف هذا الرجل. ليس ذاك البائع الجوّال الذي أطلق عليّ النار. أرمقه بانتباه، لا. أنا واثق أنه شخص آخر. لقد كان ذاك البائع أصهب، بشعر خفيف، أقرب إلى الصلع. لوهلة خطر لي أن يكون شعر الجثة مجرد باروكة.

– هل يمكنك تفحص شعره؟ – أطلب منه.

لا يفهم مصطفى ما أرمي إليه وهو يحدق إلى وجهي.

– شعر الرجل، هلاّ تأكدت إن كان مستعاراً أم حقيقياً.

يبادر الموظف إلى التصرف، خاصة أنه لمح النبرة الآمرة في صوتي، لذا يحاول تلافي الوقاحة التي بدرت منه منذ قليل، وربما يحاول إغاظة مصطفى أيضاً. يشدّ شعره بفظاظة.

– لا، إنه شعر الرجل.

أدقق النظر في وجهه المائل لبياض شاحب. لا، إنه ليس الرجل الذي أطلق النار عليّ. قطعاً ليس هو.. «إذاً فهو حيّ» أرددها بيني وبين نفسي فرحاً.

– ليس هو؟

حين أرفع رأسي، تقابلني نظرات مصطفى الفضولية. لست أعرف أهمية التحقق من شخصية الرجل بالنسبة إليه..

– هل كنت منضماً للعملية أيضاً؟

مكتبة

– أجل سيدي – يقولها وتومض عيناه.

لا أسأله إن كان هو من أطلق النار عليه، فالأمر شديد الوضوح.

– ليس هو من أطلق النار عليّ – فلا أحرمه بذلك من شرف قتل رجل إرهابي فقط، بل أيضاً من شرف قتل الشخص الذي ظنه من أطلق النار على رئيسه في العمل. إننا نعمل سوية منذ عامين، وقد حاولت عقد علاقة بيننا كتلك التي كانت تجمعني بيلدرم، ولكنني لم أنجح. في البداية ألقيت اللوم عليه، بسبب ضعف مواهبه، وفيما بعد أدركت أنني أيضاً لا أماثل يلدرم في شيء. أما الآن فتربطنا علاقة مودة موسومة ببعض البرود بين رئيس ومرؤوسه. لا أظنه يحمل عني انطباعاً سلبياً، ولكنه بالطبع لا يقابلني بالإعجاب ذاته الذي كنت أكنّه يوماً ليلدرم، كما أنني لا أستحق شعوراً من هذا القبيل.

– هل ستذهب إلى البيت سيدي؟ – يسألني حين بتنا خارج المشرحة، ونحن نستقل السيارة.

– أدر مكيف الهواء الساخن أولاً، لقد تجمدت أوصالي. – أجيبه.

– آسف سيدي – يلتفت نحوي بنظرات ملؤها الذنب – المكيف معطّل.

يدير مفتاح السيارة، فيما أنا ألتفع معطفي جيداً. أفضل ما عليّ فعله الآن هو التوجه إلى المنزل، وشرب شيء ساخن، والخلود للراحة. ولكن عليّ إيجاد مينة، فكل لحظة تمرّ، تبعدها عني أكثر فأكثر. وهذا ما أنا متأكد منه منذ لحظة اختفائها، كحدس غريب مشؤوم. لقد مضى على الأمر عشرون يوماً، أيعقل أنها على قيد الحياة حتى الآن؟ هناك أمل طالما لم يتم العثور على جثتها بعد. البائع الذي أطلق النار عليّ، يجب عليّ أن أجده بسرعة، فحل العقدة يكمن عنده، ولكن من هو؟ ومن سيكون سوى أحد رفاق فخري من التنظيم، رغم أنّ التقرير الذي قُدم عن فخري، يوضح أنه قد انفصل عنهم. يبدو أنه تمكن من خداعنا،

فطالما أنه تجرأ على محاولة قتلي، فهو ليس بالشخص الذي يُستهان به على الإطلاق. ولم تُعجب مينة به من فراغ. تعجب به؟ لِمَ لا تقول إنها أحبته؟

– سنتجه إلى المنزل أليس كذلك؟

أبتعد عن أفكاري مع سؤال مصطفى.

– لا، إلى كورتولوش.

– إلى منزل الفتاة المفقودة؟

استأت أن يسمي مينة بالفتاة المفقودة، ولكن ليس في وسعي لومه، فهي ليست سوى شخص من بين مئات المفقودين الذين نحتفظ بملفاتهم.

– أجل، أجل إلى منزل الفتاة المفقودة. – أجيب مصطفى.

– ولكن يا سيدي – يحاول مساعدي الاعتراض – لقد طُلب مني إيصالك إلى المنزل.

إنه يعني رئيسنا نحن الاثنين في العمل؛ عمي عصمت.

– لا تلقِ بالاً لما طُلب منك، وخذني إلى كورتولوش، وعدْ أنت إلى المحقق ناجي، وخذ منه ملفات رفاق فخري ممن ألقي القبض عليهم بالتهمة نفسها واذهب بها إلى منزلي.

– إنهم يثيرون المشاكل ما لم يكن لدينا طلب رسمي بالأمر.

ما قصة هذا الفتى اليوم؟ أقام أحدهم بتهديده؟

– أخبرهم أنني من أرسلتك، فناجي يعرف أننا نعمل سوية. وإن حاول التململ والتنصّل، أخبره أنّ الطلب الرسمي سيصله فيما بعد.

طلباتي هذه تسبب الضيق لمصطفى، لا بدّ أنه يخشى أن يُضاف إلى سجله نقطة سوداء. ما الذي عليه فعله الآن، هل سيذهب ويخبر عمي بكل ما يجري؟ لا أعتقد ذلك. فهو لا يملك الجرأة الكافية ليشتكي على رئيسه في العمل، كما أنه يعلم أنّ عصمت عمي. أراقبه وألحظ تفكيراً عميقاً في عينيه، فيما يواصل قيادة السيارة. ربما أكون مخطئاً في حقه، ويكون شخصاً جيداً بالفعل. ولكن سواء أكان جيداً أم سيئاً فالنتيجة لن تتغير. فكيف لرجل استخبارات غارق حتى أذنيه في القوانين والقرارات، أن يعرف الغثّ من السمين في ما يقوم به من عمل؟ وبينما تقف السيارة تحت أضواء الإشارة في منطقة آكسراي أسأله:

– كانت لمينة صديقة في روما، اسمها سيلين على ما أظن، هل عادت؟

لا بدّ أنّ ذهنه كان في مكان آخر تماماً، فهو يكابد من أجل التركيز وفهم ما قلته، ومن حسن حظه أنّ الأضواء الخضر قد شعّت للتو، ليعود للقيادة مجدداً، ويستجمع أفكاره قبل أن يجيبني:

– سيلين أورهون، لم تعد حتى الآن. فكما تعلم، والدها يشغل منصباً رفيعاً في سفارتنا في إيطاليا. لقد هاتفناها مرات عدة، وتحدثنا. ولكن الفتاة لم تدرك بعد مدى جدية المسألة.

– ما الذي قالته؟

– أخبرتنا أنها التقت صديقتها قبل أن تسافر إلى إيطاليا، و«أنّها لا بدّ قد ذهبت في رحلة ما، وستظهر عما قريب». وعندما أطلعناها على احتمال أن تكون قد خُطفت، ردت قائلة «مستحيل، لماذا سيقدم أحدهم على خطف مينة؟». من الواضح أنها لا تعلم شيئاً.

– هل سألتموها عن فخري؟

– أجل، وقد أخبرتنا أنه «فتى جيد» وأنه لن يقدم على إيذاء مينة. فهي لا تعلم بموته حتى الآن، ونحن لم نخبرها بالأمر.

– ومتى ستعود إلى تركيا؟

– لقد اقترب موعد قدومها، فعطلة نصف السنة الدراسية على وشك الانتهاء.

– علينا أنّ نقابلها بكل تأكيد – أعلّق قائلاً.

– ما إن تعود، سنتواصل معها سيدي.

يصمت لبرهة ثم يلتفت نحوي سائلاً:

– هل كانت الفتاة المفقودة أحد مخبريك سيدي؟ – لا بدّ أنّ هذا السؤال يشغل ذهنه منذ مدة طويلة. ربما يتعين عليّ الغضب من سؤاله، ولكن جرأته تثير إعجابي.

– هذا ما اعتقدوه.

– ألم تكن كذلك؟

– كنا نسكن الحي ذاته، وكانت والدتها صديقة زوجتي. وذات يوم حدثت أعمال شغب وتظاهرات في الجامعة، وقد طلبت والدتها مساعدتي، فأتيت لإخراجها من مركز الشرطة.

– أتعني أنّ الفتاة لم تكن على علاقة بما حدث؟

– بل لها علاقة، فقد كانت متعاطفة مع اليساريين. لقد كانت طيبة النوايا حقيقة، وقد أظهرت رد فعلها اتجاه المظالم والإساءات التي تُرتكب من حولها. وكما تعلم فالشباب في هذا العمر، يشكّلون أدوات طيعة في يد المنظمات

الإرهابية. وحين أخبرتها الحقائق أصبحنا صديقين. وفي هذه الأثناء كنا نتحدث بالطبع عما يحصل في الجامعة.

– لذا فقد ظنّ فخري أنها تعمل مخبراً لديك.

– إذاً فأنت تعتقد أنهم من قاموا بخطف الفتاة؟

– ومن يكون سواهم؟

أجل، من سيكون سواهم؟

– ومن الواضح أنهم أرادوا معاقبتك – أردف مصطفى – ولكن لماذا قاموا بإطلاق سراح فخري، بعد إلقاء القبض عليه؟

– لم يكن بوسعنا القيام بشيء، وقد حضرت التحقيق بنفسي، ذلك أنه سافر إلى أنطاليا قبل اختفاء مينة بثلاثة أيام، وأمضى الأسبوع بأكمله مع عائلته. ولديه شهود. كما أن والده كان عقيداً، وقد توفي العام المنصرم.

– وما شأننا به إن كان عقيداً أم لا سيدي. كان عليه أن يعرف كيف يربي ابنه قبل كل شيء. فالمسدس الذي أطلق منه هذا الوغد النار عليك، كان عائداً للجيش.

– هل أنت جاد؟ – التفت نحوه متسائلاً.

– أجل – يؤكد لي مصطفى ويواصل – كان المسدس لوالده من طراز (الكرك كالة).

تلبّد الحيرة ذهني، فلماذا يقدم التنظيم في أحد اعتداءاته على استخدام مسدس عقيد متقاعد، بدل أسلحته؟ غريب!

– وماذا عن السلاح الذي مع الآخر؟

– لم نعثر بعد على السلاح الذي أطلق منه النار عليك. ولكن بعد فحص الرصاصة في المختبر، أظهرت النتائج أنه يعود لمسدس كولت من النوعية التي يستخدمها الجنود.

يعود وجه البائع إلى مخيلتي، يمسك بيديه الاثنتين مسدسا ثقيلاً، ربما يكون الكولت، وهو يصوبه نحوي. يباعد ساقيه قليلاً ليحافظ على توازنه كي لا يخلّ دفع السلاح المعاكس بثباته، ويطلق النار عليّ.

– أتعني أنه هو الآخر أحد أسلحة العقيد؟ – أسأله.

– هذا وارد، فالسيد عصمت ما زال يبحث في الأمر.

إذاً فالسيد عصمت يبحث! يبدو أنّ عمي قد تكهّن بعلاقتي مع مينة، لذا فقد قام باستلام القضية. وربما تمكن من استمالة هذا الفتى أيضاً إلى صفه. لا أظن ذلك، فهو يعمل بمفرده، كما أننا من عائلة واحدة، وحتى إن مال فرع، فهو يبقى من الشجرة ذاتها.

– ولكن لماذا لم يطلعك السيد عصمت على هذه المستجدات؟ – لقد بدأت الشكوك تنتابه، أيكون هذا الفتى أذكى مما يبدو عليه؟

– إنه ينتظر تماثلي للشفاء.

وفيما يسمعني، يواصل مراقبتي بطرف عينه.

– أنحن من سيواصل العمل في هذه القضية سيدي؟

– أوصل إلى مسامعك شيء ما؟ – لا أتحدث بنبرة آمرة، إنما قوية بما يكفي.

– لا أعلم على وجه التحديد، ولكن وصلتني شائعات عن اهتمام الشرطة

السياسية بالموضوع.

ألا يتوجب عليّ التحدث إلى عمي قبل أن يتشعب الموضوع ويتخذ أبعاداً؟ أظنّ أن التريث حتى معرفة ما يجري على وجه التحديد هو الأنسب.

– إنه النفوذ مرة أخرى – ابتسم، فيخفف هدوئي من شكوك مصطفى، ولكن القلق لا يختفي تماماً من وجهه. وما إن نتجه من بانغالتي[3] إلى كورتولوش، حتى يفصح السبب عن نفسه.

– سيدي – يقولها بصوت أقرب إلى التوسل – على الأقل حين تعود، أرجو أن تخبرهم أنني قمت بإيصالك إلى المنزل.

– حسناً، لا تقلق.

نعلق وسط زحام كورتولوش المعتاد لبعض الوقت، ومن ثم ننعطف نحو الشارع المتجه يميناً، تنزل بنا السيارة مسافة كافية، حتى نصل المقبرة التي في فيري كوي. وحين نصل الزقاق المنعزل، والموازي للمقبرة أقول له:

– سأنزل هنا، فالمنزل بات قريباً.

– إن شئت، أستطيع انتظار عودتك – وأردف في أمل أخير – الطقس سيئ جداً، ومن الصعب العثور على سيارة أجرة تقلك.

أحتاج البقاء وحدي، ولن أستطيع التفكير بصفاء إن كان أحد ما برفقتي.

– شكراً مصطفى، سأتدبر أمري.

ازداد قلقه.

– متى ستعود؟

– سأكون في المنزل بعد ساعات، لا تنسى ملفات فخري وبقية رفاقه في التنظيم. وإن حدث عائق ما اتصل بي على الفور – أقولها وأنا أترجل من السيارة.

– حسناً، سأفعل. أرجوك أن تنتبه لنفسك – يقولها برجاء صادق، فأي مكروه سيصيبني، سيكون وباله وخيماً عليه هو الآخر.

لا تقلق يا مصطفى، من له عمر لا تؤذيه شدة، إلى اللقاء.

– إلى اللقاء سيدي – يقول فيما أغلق الباب.

الفصل الرابع

تحاول الرياح العاصفة التي ترافق ندف الثلج أن تقتلعني وترمي بي بعيداً، فيما آثار قدميّ تنطبع على الأرض التي غطتها طبقة رقيقة من الثلج هنا وهناك.

يبدو هذا الزقاق المعزول تحت الثلج، أكثر وحشة مما هو عليه حقيقةً.. تنتابني رعشة تدفعني لدفن جسدي ما أمكن تحت المعطف. أظنني أصاب بالدوار، أرغب في الاستناد على عمود الكهرباء والتقاط أنفاسي، أزداد برداً ولكنني لا أستسلم، فبعد أمتار قليلة سأصل رأس الزقاق المسدود الذي يقع فيه منزل مينة. أترك نفسي للريح مجدداً.

حين أصل مدخل الزقاق أصادف ذلك المنظر الذي ينسيني البرد والدوار. فتاة تقف أمام البناء الذي تقطنه مينة، وقد أدارت لي ظهرها، وهي تنتظر أن يُفتح الباب. حتى إنها ترتدي معطف مينة الأزرق، لقد كان مصطفى محقاً، ما كان عليّ القدوم إلى هنا، فقد بدأت أحلم وتتراءى لي الأشباح في وضح النهار. ولكن الأكثر غرابة أنّ شبحها لا يختفي. أقترب أكثر فألاحظ القبعة السوداء التي تعتمرها، ولكنني لا أذكر أنّ مينة كان لديها قبعة من هذا النوع، لن أقف عند تفصيل كهذا، وسط الجنون الذي بدأت بالغوص فيه، قد تكون خدعة من عقلي، حيث أنني كنت على الدوام أخبرها «إن الأسود يليق بك».

لا تفصلنا سوى بضعة أمتار، وأنا أقترب منها بهدوء وحذر، حرصاً على عدم إجفال شبح الفتاة الذي صادفته في هذا الزقاق المنعزل، بعد أن كابدت أياماً من الشوق والخوف على مصيرها.. تغوص بعنقها في المعطف وهي تحرك قدميها منتظرة، لا بدّ أنها تشعر بالبرد. لقد كانت تبرد بسرعة، وفي الليالي التي كنت

مكتبة

أقضيها في منزلها، كانت تنحشر في حضني كقطة مدللة. ألحظ الكيس الأسود بيدها وكأنها عادت من التسوّق. يدها التي تحمل الكيس دون كفوف، أصبحت قرمزية من البرد. يا إلهي كم تبدو حقيقية، لو لمست كتفها، هل ستلتفت وتبادلني بالابتسامة الرقيقة ذاتها كما في كل مرة؟ هل يستطيع أحد تخيل مشهد ما بكل هذه التفاصيل؟ ولكن لِمَ لا؟ فحين ذهبا إلى بريطانيا لتلقي دورات تدريبية في السانتو ((4cento، حدثتنا إحدى البروفسورات المختصات بعلم النفس الاجتماعي، عن القوى الخفية للدماغ البشري. أظنها كانت تعني ما يحصل لي الآن، ولكنه وهم جميل من دماغي.

حين لا يتبقى سوى أمتار قليلة جداً بيني وبين شبحي المحبوب، أسمع صوت طقطقة معدنية، إنه صوت القفل الآلي الذي كنت أنتظره بصبر نافد لمرات لا حصر لها، وأنا أقف أمام هذا الباب من قبل. دفعت الشابة الباب بيدها، واختفت في الداخل. عليّ أن أدخل قبل أن يغلق الباب. أستعجل فتتعثر قدماي وبالكاد أنجو من السقوط أرضاً، الباب على وشك الإغلاق، وفي اللحظة الأخيرة أتمكن من الإمساك بالباب الحديدي، رغم الدوار الذي أشعر به، لكن يجب أن لا أترك شبحي يضيع. تضيء الفتاة مفاتيح النور الأوتوماتيكية قبل أن تصعد الدرج، ولكن غريب. هل الأشباح بحاجة إلى الضوء؟ أيعقل أن تكون حقاً مينة؟ أردد هذه العبارة كتعويذة يمكن أن تكسب الحياة بتكرارها. ربما تكون إحدى خدعها، حيث اختفت عند أحد الأصدقاء الذين لا يعلم أحد عنه شيئاً، أيعقل أن ترتكب حماقة كهذه؟ رجوت من كل قلبي أن تكون قد فعلت أمراً مماثلاً وأنا أصعد الدرج. لو أسرعت قليلاً، سأتمكن من اللحاق بها، ولكن هلعاً لا أدري سببه يسيطر عليّ، ومع ذلك فالمسافة بيننا تتقلص.

تقف الفتاة في الطابق الثالث أمام شقة المدام صاحبة المنزل، وتدق الباب. لماذا لم تصعد إلى الطابق الأعلى حيث شقتها؟ ربما ستعطيها الإيجار الذي تأخرت في دفعه، أو أنها وكعادتها أحضرت لهم بعض الأشياء بينما كانت تتسوّق. لم أتمكن

حتى الآن من رؤية وجه مينة، وهي أيضاً لم تلتفت نحوي لتنظر إليّ، رغم أنه من غير المعقول ألا تكون قد سمعت وقع خطواتي. أقترب أكثر ولكن الغريب أن انفعالي يبدأ يخف. ويرتفع صوت ما داخلي، ليخبرني بأنها ليست مينة. أقف خلفها تماماً، وألامس كتفها برفق وأنا أقول:

– مينة.

تلتفت فيتراءى لي وجه مينة للحظات، ولكن نظرات ماريا – ابنة مالكة المنزل، والتي تعاني من تخلف عقلي – السابحة في فراغها الدائم هي من تقابلني.

– إذاً فقد كنتِ أنتِ من ظننتها مينة؟ – أقول.

تنظر الفتاة إليّ بجدية بالغة، وهي تضع سبابتها على فمها لتقول:

– هششش إنها نائمة.

– من الذي ينام؟ – أسأل.

تشير بسبابتها التي كانت قد وضعتها على شفتيها، إلى الأسفل. تتجه نظراتي إلى الوجهة التي تشير إليها ولكنني لا أجد شيئاً. فتفتح الكيس الذي معها، وتخرج منها دمية قماشية وهي تقول:

– انظر إلى فلوريس – وتمدها نحوي. لا أدري ما عليّ فعله، وعندها ينفتح الباب، فيظهر وجه السيدة إيلين المتكدر وهي على كرسيها المدولب. تشعر بالراحة حين تراني.

– آه سيد سِدات أهذا أنت؟ كنت أتساءل من الذي يتحدث إلى ماريا.

شعرها الأشيب معقوص خلف رأسها كما في كل مرة، ووجها الذي غطته التجاعيد، دون أن تخفي قوة شخصيتها الواضحة، فيما تظهر ومضات من

الشك في عينيها بين الفينة والأخرى. ربما تكون الأحداث الأخيرة قد بلبلت أفكارها أكثر.

– مرحباً مدام، كيف الحال؟

– شكراً لك، لم نرك منذ مدة طويلة.

يبدو أنّ اختفائي كل هذا الوقت، قد لفت انتباهها. ولكنها لا تعلم حقيقة ما جرى، بسبب منع تداول اسمي في الصحف حين نشر أخبار الاعتداء الذي حصل، ومن الجيد أنها لا تعلم شيئاً.

– لقد كان لديّ بعض العمل، واضطررت إلى مغادرة إسطنبول لاستكمال تحقيق ما.

– بخصوص مينة؟

– شيء من هذا القبيل.

يبدو أنّها تزداد فضولاً.

– ألا تتفضّل بالدخول؟ – تشير نحو الباب وهي تقول ذلك.

بعد قليل من الإلحاح، أقبل الدعوة، علّني أعرف منها أمراً جديداً. فيما تظلّ ماريا واقفة أمام الباب. أعيد لها الدمية التي في يدي، فتأخذها صامتة.

– تعالي يا غاليتي – تخاطب ابنتها بصوت ملؤه الحنان.

تدخل ماريا بينما تقترب والدتها وتقول لي شبه هامسة:

– فليعني الله، إنّ ذاكرتها بين غياب وعودة.

أنظر إلى ماريا، فأرى عينيها السوداوين تومضان تحت حاجبيها الكثين،

من دون أي تعبير. حين أدقق النظر أكثر، أدرك أنها أكثر طولاً وامتلاءً من مينة. لِمَ ظننتها مينة في البداية؟ ربما غيّب عني الإعياء الفروقات بينهما، ولكن أليس المعطف الذي ترتديه هو معطف مينة؟ أوضح وأنا أدخل الممر الضيق:

– لقد ظننت ابنتك مينة، حين رأيتها من الخلف، فالمعطف...

تبتسم بحرقة وهي تقول:

– حصل ذلك منذ شهرين، حيث أصرّت ماريا على شراء معطف كمعطف مينة. ولكنني نجحت في إقناعها بأنّ مينة فتاة شابة، وليس من المناسب أن نشتري معطفاً كمعطفها. ولكن حصل ما أخشاه في أحد الأيام حين قالت لها ماريا «أريد معطفاً كمعطفك». فابتسمت مينة وهي تقول: «إذاً فلنذهبْ ولنشترِه». فكما تعلم كانت مفعمة بالحيوية والنشاط، وقد ذهبتا لشرائه على الفور. لقد كانت فتاة رائعة، رائعة بالفعل.

فيما أسمع المدام، أرى غرفة مفتوحة على اليسار، فيظهر سرير عريض على الحائط المقابل لي يزين الدانتيل الأبيض حوافه، تلفت نظري أيقونة على أرضية سوداء، وقد زينتها أقمشة خضر وحمر. وحين نقترب من مدخل الصالون يتسع الممر، حيث مدفأة حطب متقدة تستعر فيها النيران، بينما تعبق رائحة الزيزفون المغلي في الإبريق الموضوع فوقها، في كل أرجاء المنزل.

– الشتاء هذا العام قاس جداً. – تقول المدام.

– أجل، فهي تثلج من جديد.

– فليكن الرب في عون الفقراء والمعوزين، فالحطب مكلف جداً.

كلما دخلت هذا الصالون، يراودني الإحساس بدخول متحف ما، وكأن الزمن توقف في هذا المنزل العتيق، وكأنهم ما زالوا يعيشون سنوات مضت، أهي آلية

دفاعية خاصة بالأقليات؟ لا أظنّ ذلك، فالأمر ليس خاصية تقتصر على الأقليات وحدها. ذلك أنّ المتقدمين في السن يميلون للتصرف على هذا النحو عامة، فكل هذه الأشياء لها ذكرى ما، تردعهم عن رميها. تتجول نظراتي على الصور التي حال لونها واصفرّ، بأطرها الخشبية الرثة وهي معلقة على الجدران، تلفت انتباهي صورة مؤطرة بإطار معدني تزينه النجوم، لرجل كث الشارب برفقة المدام في شبابها، إنه مسيو كوجو؛ زوجها الذي توفي منذ عامين. متوسط القامة، بادي الوسامة. وقبالة النافذة تنتصب خزانة من خشب الجوز، راجت في بدايات القرن المنصرم، وقد صفّت فيها كاسات الكريستال التي تشي بولائم الماضي الحافلة، والتي ما تزال تحتفظ ببريقها في تحدٍّ واضح للزمن، وعلى الحائط المجاور للخزانة عُلقت مرآة ضخمة فضية الإطار، وكأنها تنتظر بمظهرها السحري ضيوفاً تنعكس صورهم على صفحتها.

الشيء العصري الوحيد في الصالون، هو التلفاز الموضوع في الزاوية اليسرى. وقد علّق على الحائط خلفه قريباً من السقف، رأس ظبي، وهو إثبات على «براعة المرحوم كوجو في الصيد» حيث وصفته المدام بهذه الكلمات، حين سردت علينا قصة الرأس المعلق، فقد كان لديه حانة في منطقة كوم كابي، ولكن المسيو كان شغوفاً بالصيد أيضاً. وقد قام باصطياد مئات الحيوانات من حجلان وأرانب وسواها، لكن مفخرته الأهم، هو هذا الظبي الذي ذهب حتى جبال طوروس من أجل الحصول عليه.

– تفضّل بالجلوس – تشير المدام نحو الأريكة قبالة التلفاز.

أجلس وأراقب ماريا، وقد وضعت الكيس من يدها، وانزوت مع دميتها في ركن معزول. تحدث لعبتها حول أمر ما، فتصلنا همساتها.

– تلعب على هذا النحو وحدها حتى المساء، وإن شئت الحقيقة، فأنا أخشى إرسالها إلى الشارع. كما أنّ المرأة التي تساعدني ليست هنا، فقد ذهبت إلى

القرية بعد أن أنجبت ابنتها. ورغم أننا ملأنا الثلاجة الكبيرة في الأسفل بمؤنة تكفي لشهرين، ولكننا نحتاج بعض الأغراض بين الفينة والأخرى، فأضطر لإرسالها إلى السوبر ماركت.

كان العجز واضحاً في نظراتها وهي تشرح لي.

– أتخشين ألا تتمكن من العثور على المنزل؟

– صدقني لا أعلم، فهي تعاني من النسيان، وإن لم أدوّن لها ما يجب أن تحضره معها، فهي تذهب إلى المتجر وتقف هناك مسمرة ومن ثم تعود. كما أنها تنسى أين تضع حاجياتها.

– أكانت تنسى هكذا على الدوام؟

– عادة هي كذلك. ولكنها في بعض الأحيان تتذكر كل شيء، وتعثر على ما خبأته وتحضره بنفسها.

– وما الذي يقوله الأطباء؟

– وما الذي سيقال عن مشيئة الرب؟ فهي قد وُلِدت على هذا الحال.

نتبادل الصمت، وقد بدا عليها الشرود، ربما تفكر في الكيفية التي ستواصل بها ابنتها الحياة بمفردها، بعد موتها. من المرجح أن يقوم أخوها بالاهتمام بها، فقد انتقل منذ سنين طويلة للعيش في سالونيك. وبعد وفاة الأب، ألحّ كثيراً على والدته لتنتقل للعيش والسكن معه، ولكنها ظلت ترفض هذه الدعوات قائلة: «إن قبر كوجو هنا، لا أستطيع الذهاب وتركه بمفرده». لو لم أكن أعلم حقيقة الأمر، لظننتها قصة حب عميقة بين زوجين. لكن مسيو كوجو وحين كان في الخمسين من العمر، أحبّ فتاة رومية5 الأصل، حيث خصص لها منزلاً، وأغدق في الصرف عليها. وقد استمرت علاقتهما بضعة أعوام، ولكنها تركته في النهاية لتهرب

مع شاب رومي. وقد ساء حال كوجو المسكين، حتى أنه باع الحانة، وقام بنقل كل الأشياء إلى الشقة الأرضية. ولم يعد إلى تحضير مقبلاته الشهية سوى في الأعياد المقدسة، عندما يحتفل مع الأقرباء والجيران. وكان السؤال الذي يشغل بالي؛ إن كانت المدام على علم بما جرى أم لا؟ وإن كانت تعلم، فكيف استطاعت التحمل؟ أظنها تحملت كما تتحمل مليكة الآن. لا يا رجل، مليكة شيء مختلف؟ وما وجه الاختلاف؟ ألم يقم زوجها أيضاً بخيانتها مع امرأة أخرى؟ ألم تقم بتجاوز الموضوع رغم كل شكوكها؟ ولكن لماذا؟! «لأنها لا تملك خياراً آخر في الحياة، فما من مهنة أو مردود يعتمدن عليه، لذا ما الذي سيفعلنه إن تركهن؟» هذا ما كان سيقوله يلدرم.

في الحقيقة لن أنكر أنّ هذا الخاطر قد مرّ ببالي أنا أيضاً، فلو أنّ مليكة من عائلة غنية، أكانت ستتقبل هذا الوضع؟ فمن هي تلك المرأة التي تقبل أن تشاركها أخرى في زوجها؟ ولكن أليس من الذل القبول بواقع مماثل في سبيل مواصلة حياتها؟ يا إلهي ما هذا الذي أفكر فيه؟ لا لا، لا أظنها تقبلت الأمر لهذا السبب، فهي تحبني، وتحب أولادها، ولا تريد أن تنهار عائلتها. وهي تعتبر المسألة عارضاً ألمّ بي، وتنتظر بصبر اليوم الذي سأشفى منه.

تعود نظراتي مجدداً إلى المدام، فأراها غارقة في التفكير، وهي تحدق إلى النقوش على البطانية التي تغطي ساقيها، متنهدة بين الحين والآخر، وكأنها نسيت وجودي. لبرهة أظنها تفكر في زوجها والشابة اليونانية التي أحبّ، ولكن الصمت يزداد كثافة، ويضغط عليّ لدرجة لا أقوى على تحمله أكثر.

– كأن الجو بات أكثر برودة؟ – أسألها.

– هل تشعر بالبرد؟ – تسألني وكأنها أفاقت للتو من نوم عميق.

– شكراً، المكان هنا دافئ.

وحين تطمئن إلى أنني لا أشعر بالبرد، تعود لتسألني:

– لا أخبار جديدة عن مينة أليس كذلك؟

– للأسف لا أخبار.

– كانت فتاة طيبة جداً. – تقولها مجدداً.

ألحظ عينيها المخضلّتين وصوتها الذي بدأ يختلج.

– نحن نشتاق إليها كثيراً، فقد كانت بمنزلة ابنة ثانية لي.

ينتقل إليّ التأثر، لا بد أن طول الفترة التي قضيتها في المستشفى واهناً، قد أثرّ في أعصابي. فقد عادت إليّ ذكرى اليوم الأول الذي قدمنا فيه من أجل استئجار هذا المنزل. كانت جالسة على الأريكة التي أجلس عليها الآن، أما أنا فقد جلست إلى الأريكة المجاورة. فيما كانت المدام ترقبنا باهتمام واضح.

سألتها مينة:

– الطابق العلوي معروض للإيجار أليس كذلك؟

وقد اكتفت المدام حينها بالرد:

– أجل – ومن ثم التفت نحوي – ما صلتك بالآنسة؟

ولأنني كنت مستعداً لسؤال من هذا النوع، فقد أجبتها بنبرة ثقة حاسمة:

– أنا صديق للعائلة.

ورغم أنّ الجواب لم يرح المدام حينها، لكنها حافظت على لباقتها وهي تسأل مينة:

– هل أنت طالبة؟

– أجل، طالبة في كلية الفنون الجميلة، قسم الرسم.

– وأين عائلتك؟

كانت أسئلتها قد بدأت بإزعاجي، ولكن مينة واصلت الرد عليها بذلك الصبر اللامحدود الذي تتحلى به:

– أبي وأمي منفصلان، أبي يعمل في ألمانيا، أما أمي فقد تزوجت من جديد، وتعيش في إسطنبول، ولا أريد البقاء معها أكثر.

– هل لي بالسؤال عن السبب؟

– لديّ أخوان صغيران، والبيت ليس واسعاً كفاية. وأنا بحاجة إلى مكان يخصني من أجل الرسم..

– حسناً – قالتها وسكتت لبرهة قبل أن تردف – كما فهمت، فليس لديك مردود ما، فمن أين ستدفعين الإيجار؟

– أبي سيرسل لي النقود من ألمانيا.

رغم حصولها على أجوبة عن كل أسئلتها، لكنها لم تبدُ مقتنعة. وكان ذلك أنسب وقت للتحدث عن آري؛ وقد كان هذا مخبراً، يمدنا بالمعلومات بين الحين والآخر عن التجمعات الرومية في إسطنبول. ولا يوجد أحد منهم لا يعرفه. ذلك أنه كان يهبّ لمساعدة الجميع. وفي الحقيقة فإن المعلومات التي يعطينا إياها تمكنه من مراقبة جماعته في الوقت ذاته. وحين سمعت باسم آري، أضاء وجهها وهي تسألني:

– هل تعرف آري؟

– إنه صديق مقرب لي. تستطيعين أن تسأليه عنا.

وعلى الفور بدت عليها الراحة، وغابت تلك الشكوك التي كانت تسبح عميقاً في عينيها الداكنتين. وأخبرتنا حينها أنّ العالم مكان مخيف، فقبل أيام اعتدى مجهولون على سيدة عجوز في فيري كوي، وقاموا بقطع رسغيها من أجل سرقة أساورها. كان ارتياب الأقليات جلياً على المرأة. فذلك التوجس في عينيها، والتحفظ الذي كان يظهر نفسه بشكل غير ملموس، كانا يظهران في كل تصرفاتها.

أخيراً، وافقت على تأجير مينة المنزل، ولكنها لم تندم على هذا القرار مطلقاً، حتى أنها وبعد أن تعرفت إليها أكثر، تأكدت كم كان قرارها صائباً. ويعود السبب بالطبع لتعامل مينة اللطيف والصادق مع ماريا.

– فليسامحه الله.

تشتت كلماتها أفكاري، حتى أنني لا أعي عمن تتحدث بالضبط.

– لقد تعرفت على ذلك الشاب المدعو فخري أيضاً هنا. وقد كان كثير التردد مؤخراً على منزل مينة. لا بدّ أنك سمعت بأنه أطلق النار على أحد أفراد الشرطة، وقد قتل أثناء الاشتباك. ما الذي يحصل سيد سِدات، في البداية اختفت مينة، وبعدها قُتِل فخري.

تصمت وتراقبني بتمعن، لتزن وقع كلماتها عليّ. عيناها السوداوان الدامعتان ملؤهما الأسئلة. وكأنها تقول إنني أنا أيضاً كنت أزورها بكثرة في فترة من الفترات، ورغم ادعائي بأنني صديق عائلي مقرب، ولكن ذلك لم يكن تفسيراً كافياً لعلاقتنا المقربة.

– أعلم – أقولها بنبرة الواثق – لقد كانت مينة تحدثني عنه أحياناً، وتقول

عنه إنه صديق جيد. ومن الواضح أنها لم تكن تعرفه حق المعرفة، فهو كان سجيناً سابقاً، خرج منذ عامين بعد العفو العام.

تشتت كلماتي تركيز المدام، فتكف عن مراقبتي لتسألني بفضول:

– أتعني بأنّ فخري هو من فعل ذلك؟

– هذا ما نعتقده.

– لقد كتبت الصحف أنه كان إرهابياً، ولكنه لم يبدُ لي شخصاً يمكنه ارتكاب أشياءِ من هذا القبيل.

– للأسف هذا ما كان عليه. لقد كان إرهابياً.

– من أين عثرت مينة على شخص كهذا؟

– هو من عثر عليها، فقد حاولوا استغلالها، وحين عجزوا...

– قاموا بخطفها؟ لا بدّ أنّ والديها المسكينين، منهاران الآن..

– تعنين والدها، أم زوج والدتها؟

– لا، بل والدها الحقيقي، السيد متين. لقد عاد من ألمانيا، وبحث عنها في كل مستشفيات إسطنبول.

– لا طائل من ذلك، فقد سبقناه في هذا البحث. كما أنّ المستشفيات مطلعة على القضية، وإن حصل أي جديد ما، سيبلغوننا على الفور.

– لا أعلم ما الذي حدث لهذه المسكينة، فلا هي ظهرت، ولا تأكد خبر موتها!

– لا تخافي سنعثر عليها. – أقولها دون اقتناع بكلماتي – يجب أن أذهب

الآن..

– على رسلك، محال أن أدعك تغادر دون أن تشرب كأساً من الليكور.

– شكراً جزيلاً، ولكنني متوعك قليلاً، وعليّ تناول مضاد الالتهاب، لذلك أفضل عدم الشرب.

– أتحسب الليكور كحولاً؟ كان المسيو كوجو يشرب كأساً كل مساء، ويعتبره علاجاً لكل الأمراض.

– ربما في وقت آخر، حين نعثر على مينة معافاة وسليمة – وأنهض واقفاً.

– آه، آه.. ليت ذلك يحصل.. – تقولها وتحرك كرسيها المدولب وهي ترافقني حتى الباب – هل معك مفتاح؟ فقد جاء أحد الشرطة البارحة، وأخذ النسخة التي معنا.

لماذا يفيض صوتها شكاً، وكأنها تريد أن تعرف إن كانت مينة قد أعطتني نسخة من مفاتيحها، رغم أنها لم تفعل ذلك مطلقاً، فقد كانت تعتبر هذا المنزل، محراب حريتها الخاص، وتردد: «أريد أن أشعر بأنّ ملكية هذا المكان تعود لي وحدي».

– أجل – أقولها بحيادية – لقد أخذت نسخة من والدتها.

– لن تنسى إقفال الباب خلفك حين تخرج أليس كذلك؟

– لن أنسى، لا تقلقي – أقولها وأنا أفتح الباب.

تحرك كرسيها وهي خلفي.

– لا أستطيع أن أخرج من البيت، فأنت ترى حالة ماريا – تقولها في عجز.

– اطمئني، سأقفل الباب بعد خروجي.

– شكراً لك، وأتمنى أن تعثر على ما يفيدك هذه المرة في الأعلى.

إنها تعني بهذه الكلمات، أن أخبرها حال عثوري على شيء ما. ولكنني أتجاهل ما ترمي إليه، وأكتفي بشكرها، متجهاً إلى الأعلى.

الفصل الخامس

ضوء المصابيح الأصفر لا يخفف من برودة السلالم الحجرية، فيما يخيم صمت مطبق على العمارة، وكأن الوحشة التي يخلّفها الثلج خارجاً، قد تسربت إلى الداخل أيضاً. أرتعش، فأرفع ياقة المعطف وأبدأ بالصعود. معظم الدرجات مكسورة الحواف، فيما يعبق الهواء برائحة عفنة بالكاد تُشم. وقد ظهرت على الجدران البيض بقع صفر، بدت كأحافير أزهار قديمة. حينها أنتبه للمرة الأولى أنّ البناء ينازع البقاء ببطء، وما يثير حيرتي، أنني وفي كل المرات التي صعدت فيها هذه السلالم، لم ألحظ الأمر على الإطلاق.

تتبادر إلى ذهني كلمات يلدرم: «لقد رفعت تلك الفتاة قدميك عن هذه الأرض، وأخذتك إلى المكان الذي نسيتَه منذ زمن طويل...» وفجأة أدرك أنه من المحال أن أكون قد تحدثت مع يلدرم في هذا الأمر، فقد تعرفت إلى مينة بعد موته. لا بدّ أن عقلي يخلط الأمور معاً، فأنا أذكر أنني حدثته عنها في أحد أحلامي، والذي كان شديد الوضوح، بحيث لا تزال كافة التفاصيل ماثلة في ذهني. وما زالت كلماته ترن في أذني «لم ينتهِ الاختبار بعد، لقد بدأ للتو...».

حين أصل الطابق الذي تقع فيه شقة مينة أشعر بتعب هائل، وبوخزات في مواضع خياطة جروحي، فأستند إلى الحائط لالتقاط أنفاسي، بينما ينظر إليّ باب الشقة في عجز طفل لا حول له، فينتقل لي حزن وحدته. وأشعرني أتشظّى من ذلك الألم المعتاد الذي ينبع من مكان عميق داخلي، صارعته مرات كثيرة، حتى ظننتني تغلّبت عليه، ولكن حين انتهى كل شيء وبقيت وحيداً، بدأ ذلك الوجع الخبيث ينهض من رماده بخبث ليستحوذ على كياني، وعدت أتلوى باليأس ذاته، والشوق الذي لا ينضب، إنها متاهة لا تسري عليها قوانين العقل والمنطق، ولا أستطيع

الخروج منها، بل كلما حاولت أزداد تيهاً وضياعاً.

لِمَ هذه الرغبة الجامحة إلى مينة؟ ما الذي بقي ولم نفعله سوية؟ لماذا لا أزال أواصل التفكير فيها؟ ما الذي أفتقده؟ فزوجتي مليكة شخص أفضل منها بكثير، مضحية، وحنونة وصادقة، وربما أجمل منها أيضاً، كما أنها والدة أطفالي. ولكن كل هذا لا يكفي، فأنا أشتاق إلى مينة رغم أنها تركتني، بل وأهانتني أيضاً. أشتاق إليها حين تفتح الباب فترفع شفتيها قليلاً نحو الأعلى وهي تبتسم، تلك الغمزة التي بالكاد تلحظ في خدها، أثر الجرح القديم في نهاية حاجبها الأيسر، عيناها البنيتان الفاتحتان، وتلك الرقشة الخضراء التي تظهر فجأة في بؤبؤيها، وكأنها خرجت من أعماق تفكيرها الفتي فجأة، وشعرها الأصهب الطويل، الذي تلمع فيه بعض الخصل الشقراء الذهبية، وانحناءة رأسها الخفيفة حين تستغرق في الاستماع إليّ، موجة الغبطة التي تجتاح وجهها حين تراني، تلك الرقة في صوتها، ويداها البيضاوان اللتان تغمرهما يداي. صدرها الصغير، ساقاها الممتلئان في استقامة جميلة، ورغبتها الجامحة، إنني أشتاق إليها بكل ما فيها، أشتاق إليها كلها، غيابها يسري في عروقي فراغاً لا لون له ولا طعم، ليجرف معه كل غث وسمين في حياتي ويحوله إلى مجرد عبث.

«أين أنتِ؟» أردّد السؤال ذاته. أسمع خشخشة تصلني من الداخل وكأنها تحاول الردّ على سؤالي. أصغي بانتباه، هل أنا مخطئ؟ لا، فالصوت شديد الوضوح، حتى إنني متأكد من تحرك شيء ما في الداخل، ألصق أذني على الباب، وأرهف السمع، فيبدو وكأن أحدهم يتعمد السير بهدوء، حتى لا يسبب أي ضجة، وفيما أضع يدي على المسدس، أتذكر فان غوغ، أيكون هو؟

فان غوغ قط مينة، وكما هو متوقع فلديه وبر ذهبي كسنابل ناضجة تحت شمس الصيف، ولكنه لم يكتسب اسمه من لونه الأشقر، بل بسبب ذلك العراك الذي دخله للدفاع عن عشيقته في إحدى ليالي آذار الباردة، حيث خسر فيه

نصف أذنه اليسرى. واعتبارا من تلك الليلة، أطلقت مينة على قطها اسم فان غوغ، واكتفينا نحن بمناداته غوغ.

ولكن كيف تمكن غوغ من الدخول؟ ربما بسبب خلو البناء. لقد أراحني هذا التفسير نوعاً ما. ورغم ذلك عليّ توخي الحذر، لذا أقوم بإخراج المسدس من قرابه. وأبتعد عن الباب قليلاً، وأنا ألقمه حتى لا يصل الصوت إلى الداخل. ومن ثم أضعه في جيب البنطال، وأخرج المفتاح، وأديره في القفل. وفيما أفتح الباب، أصيخ السمع علني أسمع شيئاً، من الداخل، ولكن لا شيء سوى صلصلة المفتاح في القفل، أدفع الباب برفق بقدمي اليمنى، فتستقبلي رائحة الألوان المألوفة التي تشرّبتها الشقة. ولا يظهر غوغ في الجوار، بالرغم من أنه كان يأتي لاستقبالي على الباب، ويبدأ في التمسح بقدمي، طالباً الطعام.

أعيد المفتاح إلى جيبي، وأخرج مسدسي، وأنا أندس بهدوء إلى الداخل، فيما أغلق الباب بقدمي. أتجه من الممر الضيق إلى الصالون في هذه الشقة المطابقة في تصميمها لشقة المدام.. على اليسار تقع غرفة النوم، حيث أفتح الباب برفق وأستند إليه فيما تجول نظراتي في الداخل، سرير مبعثر، ولوحتان زيتيتان علّقت كل منهما على أحد الجدران. أتجه نحو الصالون الذي حولته مينة إلى مرسم لها. حين أقترب من الباب تصلني رائحة تبغ محروق. وبعد خطوات عدة تتأكد شكوكي، فهناك أحد ما يدخن في الداخل. حين أصل الباب أستند على الجدار مجدّداً، وأرفع مسدسي في وضعية التصويب، وأقتحم الغرفة، فيقابلني عمي بملامحه الجليدية، جالساً على الأريكة القديمة المسندة إلى الحائط العريض.

– عمي! ما الذي تفعله هنا؟ – أصرخ.

لا يتعجل في الردّ عليّ، بل يسحب نفساً عميقاً من سيجارته، وينفث الدخان من بين أسنانه قبل أن يوضح لي:

– كنت في انتظارك.

– كيف علمت أنني قادم إلى هنا؟

لا يجد مبرراً لإخفاء الحنق في عينيه، وهو يرمقني باستياء:

– مجرد تخمين، كنت أرغب أن يكون خاطئاً.

أظنه مطلعاً على علاقتي بمينة. فكل شيء شديد الوضوح، ومن المرجح أنه قام بمراقبتي منذ مغادرتي المشرحة. وقد صعد فيما كنت جالساً في منزل المدام. أشعر بالاستياء، ولكنني أواسي نفسي بأنه ليس واثقاً من معلوماته تمام الثقة، فهو يريد رمي الشبكة في الماء، والتقاط ما يمكن التقاطه، ولكن مجيئي إلى هنا كان خطأً فادحاً، فقد منحته ورقة رابحة.

– هل هناك من أخبار عن الفتاة؟ – أسأله.

– لِمَ أنت مهتم بأخبار هذه الفتاة كثيراً؟

– كيف لا أهتم، وهناك علاقة بين إصابتي واختفائها؟

– دعنا من هذه المواويل – يزداد الغضب في عينيه اللتين تقدحان شرراً وهو يواصل – أخبرني ما الذي تحاول فعله بالضبط؟

– لا شيء.

يسحق ما تبقى من سيجارته في المنفضة المعدنية الموضوعة بالقرب من الأريكة، ويندفع واقفاً في حركة مباغتة، ليمسك بياقتي، ويهزني بعنف وهو يقول:

– لا تكذب عليّ.

– أنا لا أكذب – أحاول دفعه، فيما تتجه نظراتي نحو المسدس الذي

أحمله، وألحظ أنه ينظر إلى السلاح في الوقت ذاته. فأعيده بسرعة إلى قرابه وكأنه شعلة نار عليها أن تختفي، فيترك ياقتي، ولكنه يواصل التنفس من أنفه بصخب.

– عليك أن تخبرني بكل شيء، كل ما يجري، كل شيء، أريد أن أعرف كل ما جرى.

– هدئ من روعك قليلاً – أقولها لنفسي أكثر مما أقولها له، ولكنه أيضاً يتمالك نفسه.

– حسناً، حسناً..– يقولها مبتعداً عني بضع خطوات – أنا على ما يرام، ولكن أخبرني بكل ما حصل.

– المكان شديد البرودة، أذكر وجود مدفأة كهربائية هنا.

– إذاً فأنت تعرف هذا البيت بصورة تكفي لتعلم بوجود مدفأة كهربائية أيضاً.

لا أجيبه، ولا أفهم لماذا يقوم بتهويل علاقة حب سرية إلى هذا الحد. فقد سبق وأن عاش كثير من عناصر الاستخبارات علاقات من هذا النوع.

– أجل، أنا أسمعك. – يقول.

– دعني أجلس أولاً. – أقولها وأنا أشير إلى الكرسي الخشبي الموضوع قرب النافذة، والذي زينته مينة بأزهار مختلفة الألوان. ينظر إلى الكرسي، ويومئ برأسه موافقاً، فأحضر الكرسي لأجلس قبالته.

– لِمَ أنت غاضب إلى هذا الحدّ؟ – أقولها في نبرة تساؤل صادقة.

يحدق إليّ بنظرات حادة من عينيه الزرقاوين، كمن يستغرب جرأتي على طرح هذا السؤال.

– أنت من ستخبرني بالسبب.

– كيف لي أن أخبرك بشيء لا أعلم سببه؟– أسأله بصوت هادئ، ظاناً أنني تمكنت من التغلب عليه بهذا الأسلوب، حيث سأجعله يزداد انفعالاً ويرتكب أخطاء تخولني زمام الحديث نحو الوجهة التي أريد. وهذا ما يحصل بالفعل، فعمي يزداد غضباً، ويصرخ فيّ وهو يرفع سبابته مهدداً:

– كفّ عن التلاعب، فأنا أريد معرفة كل ما أخفيته وتخفيه عني.

– وما الذي سأخفيه عنك؟ – أقولها بأكثر حالات البراءة التي تستحضرني – فالأمر واضح جداً، لقد كانت الفتاة جارتنا في البناء، وكنا نلتقي بين الحين والآخر، وقد ظنها التنظيم أحد مخبرينا.

– هذا ما أعلمه أنا أيضاً، ولكن أخبرني من الذي يقوم بتنظيم العملية؟

– عملية؟

– لا تحملق إليّ هكذا، فأنت تعي تماماً ما أقوله.

– صدقني لا أعرف عما تتحدث، أي عملية هذه؟

لوهلة أفكر بأن هذه العملية ما هي إلا مجرد طعم لكي أفصح عن كل ما جرى، فهو يوحي لي بوجود أمر أكثر خطورة من علاقتي مع مينة، وهذا ما سيدفعني لإخباره بكل ما حصل بيننا تخلصاً من تهمة أكبر، أحقاً هذا ما ينويه؟ أبحث في وجه عمي المتكدر عن إجابة لهذا السؤال، ولكنه لا يوحي بشيء يدل على أنه يخادعني، فهو كحيوان حوصر في زاوية الخطر، يحاول التركيز على كل ما أقوله، وكأنّ مفاتيح نجاته تكمن بين شفتيّ وحدي، فيما يحاول البحث عن مخرج من المأزق الذي حُشر فيه.

– كف عن اللهو – يقولها بنبرة حاسمة – هذا المرة الأمر في غاية الخطورة..

– هل أنت مقتنع أن التنظيم هو من قام بخطف مينة؟

– بالطبع لا أصدق – يجيب بحدة، وأتوقع أن يوبخني قائلاً: كيف لك أن تكون بهذا الغباء، ولكنه لا يفعل. يبدو أنه يصبح أكثر هدوءاً وهو يردف – لو كان كلامك صحيحاً، لما أقدموا على محاولة قتلك. هذا ليس شأناً شخصياً.

– ربما يهدفون إلى ترويع قوى الأمن ليس إلا.

– حتى لو افترضنا صحة الأمر، فلِمَ يحتفظون بالفتاة كل هذه المدة بعد التحقيق معها، ألا يفترض بهم قتلها منذ أمد طويل، وإشهار الأمر في الإعلام كعقوبة لأحد الجواسيس؟

يصمت برهة وهو يدقق النظر إلى وجهي، ولأنني لا أعترض على كلماته التي بدت لي منطقية، يواصل حديثه:

– ولكن النقطة التي يجب توضيحها لإلقاء الضوء على كل هذا الغموض، هو علاقتك بهذه الفتاة. ما هي طبيعة هذه العلاقة؟ ولماذا لم نكن مطلعين على أمرها من قبل؟ ومن تكون مينة هذه؟

– علاقتي بمينة مجرد صداقة لا أكثر. – أقولها بصوت أبعد ما يكون عن الصدق.

يسحب عمي نفساً عميقاً، في محاولة للسيطرة على غضبه، قبل أن يتحدث:

– اسمعني يا بني، ربما لا يعنيك الأمر، ولكن والدي، أعني جدك؛ كان

من أكثر أفراد الاستخبارات كفاءة واستقامة. وقد أمضى جلّ عمره يعمل من أجل هذا الوطن، وإبقاء هذه البلاد قوية ثابتة. وحين قتل على يد المتمردين الكورد في جبال ديرسيم، كان هناك على رأس عمله، يبذل كل جهده لمنع انقسام البلاد. وقد حاولت طوال حياتي المهنية أن أكون جديراً بهذا الإرث. وكنت أنتظر منك الأمر ذاته. ولكنك خيبت كل تطلعاتي. كل ما أطلبه منك الآن أن تتوقف عن الكذب، وتكون جديراً باحترام عائلتك.

لقد سمعت هذه الكلمات مرات عديدة أفقدتها معناها، بل إنها باتت تثير مللي. تتجه نظراتي إلى اللوحة المعلقة على الحائط خلف عمي؛ فقد استنسخت مينة هذه اللوحة، عن لوحة بيكاسو «مصارع الثيران»، والتي تعود لبداياته الفنية. ألوان اللوحة شاحبة، وأكثر ما يلفت الانتباه فيها هما عينا المصارع. فتانك العينان في وجهه الطفولي، تضفيان على اللوحة مزيجاً من الحزن والتصميم. حين أعود لمتابعة حديث عمي، أنتبه إلى أننا وفي كل مرة نتحدث فيها عن أمر جدي، يكون ذلك أمام لوحة ما. ففي مكتبه في مبنى الاستخبارات حيث نتبادل الحديث أحياناً، هناك لوحة كبيرة للمخلص العظيم6 وحين يكون الحديث في منزله، فهو يدير ظهره معظم الأحيان لصورة جدي – النقيب الشاب واقفاً في لباسه الرسمي، والمعلقة على الحائط. وحتى عندما حاول إقناعي بالانضمام إلى الاستخبارات؛ حين كنت في السنة الثانية في كلية الحقوق، أيضاً كانت خلفه صورة كبيرة للمخلص العظيم. ربما كانت متوالية صدف! ولكن في كل اللوحات؛ المخلص العظيم، جدي، ومصارع بيكاسو، هناك ذلك التصميم الحزين. ولكنها أغلب الظن مجرد مصادفات لا أكثر، فعمي لن يستمد القوة من لوحة شخص كبيكاسو – نسبه السياسي العائلي غير صاف7 – من أجل إلقاء عظاته الطنانة..

– ألم تدرك بعد مدى جدية الأمر؟ – يواصل عمي حديثه – إن لم تخبرني بكل ما لديك، فحتى أنا هذه المرة لن أتمكّن من إنقاذك.

– لا أفهم ما الذي ترمي إليه بالضبط. فأنا لا أقل عنك احتراماً لجدي، كما أنني أحب مهنتي كثيراً.

– كنت تحبها، ولكنك لم تعد كذلك. فقد قام يلدرم بتشويش أفكارك.

ما إن ينطق اسم يلدرم حتى أفقد السيطرة على هدوئي، فمنذ جلوسي، وهو يتحاذق ويهينني، ويصدع رأسه بافتراضاته التافهة عن العملية، والآن جاء دور يلدرم. لم أعد قادراً على التحمّل.

– لم يكن يلدرم يقل عن جدي في كفاءته الاستخباراتية، كما أنه لم يشوش أفكاري، كل ما فعله هو مساعدتي على اكتشاف الحقائق لا أكثر.

– ولهذا السبب قمت بالانضمام إلى العملية؟

عاد إلى العملية اللعينة، أهو مجنون؟ أكاد أخرج عن طوري تماماً.

– ليس هناك من عملية! – أصرخ معترضاً – فذلك الفتى قام بخطف مينة وحاول قتلي، هذا كل ما في الأمر.

– لقد أطلقوا عليك النار من سلاح والده، كما أنه إرهابي متمرس قام بتدبير محاولات اغتيال سابقة، ويستخدم أسلحة يمكن الوصول بسهولة إلى تراخيصها.

– ربما قام بالتصرف من تلقاء نفسه.

– أهذا ما تعتقده؟ – يقولها بنبرة ساخرة.

أدرك أنّ الأدوار قد انقلبت، ولكن الوقت فات. فعمي من يتحلى بالهدوء الآن، أما أنا فعلى وشك أن أقوم وأخنقه بيدي.

– عمي، توقف عن محاولة اتهامي – أقولها غاضباً – ما الذي تحاول قوله

على وجه التحديد؟ أنني قمت بإطلاق النار على نفسي من أجل العملية؟ أهذا ما تعنيه؟

يراقبني بنظراته لوهلة قبل أن يجيب، وكأنه يريد التأكد، ومن ثم ينفي بحركة من رأسه قائلاً:

– لا.. لا. لم يخطر لي أمر كهذا. ولكنك وقعت ضحية كمين نصبه أحدهم بذكاء فائق.

– أنت تبالغ، فهناك فقط احتمالان في هذه الحادثة؛ الأول هو أن التنظيم قام بتنفيذ الأمر، والثاني أنّ فخري قام بالأمر من تلقاء نفسه ظناً منه أنّ مينة عميلة لنا، بل ربما ظنها أحد أفراد الشرطة.

– لقد أخبرتك لماذا لا يمكن أن يكون الاحتمال الأول صحيحاً، أما بالنسبة إلى الثاني؛ فقد قرأت الملف الذي تم إعداده عن فخري. فحين دخل السجن لم يتفق مع التنظيم، ويعود سبب الخلاف إلى فكرة الإرهاب، حيث قام فخري بانتقاد الفكرة، وأوضح أنها تؤدي إلى طريق مسدود. وعلى إثر ذلك قام التنظيم بإيقاف عضويتهما على أساس أنهما عضوان سلبيان. فهل لك أن تفسر كيف لعضو استُبعد من التنظيم لمعارضته الإرهاب، أن يقوم بخطف حبيبته لاشتباهه في كونها عميلة، ويقدم على محاولة قتل أحد أفراد الاستخبارات؟

– ولكن إن أضفت الغيرة إلى الأمر.

– الغيرة؟ حقاً هذه نقطة لافتة، ولكن لماذا سيشعر فخري بالغيرة منك؟ أكانت تجمعك بمينة علاقة حب؟

– ربما يكون هذا ما اعتقدَه.

– كف عن المراوغة سِدات، وحاول أن تكون منطقياً بعض الشيء، لا

أدري إن كنت مدركاً، ولكنّ هناك تحولاً جذرياً يطال قوى الاستخبارات، لاختلاف موازين القوى في العالم، فلم يعد هناك اتحاد سوفيتي ولا خطر شيوعي، ولكن المخططات التي تحاول النيل منا لم تنته، فهم يريدون تقسيم البلاد، وإضعاف الدولة، ويهدفون إلى تعطيل كل الجهات الرسمية والمدنية التي تتصدى لهذا المخطط، وكان الهدف الذي وضعوه نصب أعينهم، منذ بداية تشكّلهم، هو القضاء على قوى الاستخبارات، لذا فلديهم الكثير من العملاء في الداخل، وفي المقابل يردد السياسيون الذين اعتادوا الثرثرة طوال الوقت، أن هناك إعادة هيكلة داخلية في قوى الاستخبارات، ألا تثير كل هذه الأمور شكوكك؟

– ولِمَ سيثير أمر كهذا شكوكي؟ ثم ما علاقة كل ما تقوله باختفاء مينة؟

– هناك علاقة وثيقة. فهم بحاجة إلى أسباب مقنعة للتخلص منا، وقد قدمت لهم قميص عثمان الذي ينشدونه.

تحليلات عمي هذه، تزيد من اضطراب أفكاري، فالترابط الذي قام به منطقي للغاية، فالتنظيمات السرية لا تكفّ عن هوس زرع عناصر مضادة في صفوف منافساتها، وقد شهدنا كثيراً من هذا النوع من العمليات.

ولكن هل يمكن أن يكون اختفاء مينة، إحدى هذه العمليات؟ إنها المرة الأولى التي أفكر فيها جدياً بوجود احتمال من هذا القبيل. لو لم أكن أعرف مينة حق المعرفة، ولم أعش هذه التجربة بنفسي، وقدم أحدهم لي ملفاً عن عملية مشابهة، فلا أستبعد أن أصل للنتيجة ذاتها التي توصل إليها عمي. ولكنني أعرف مينة.

– لا – أرد على عمي – هذا محال.

يضحك بتهكّم.

– حسناً، إذاً أين هي مينة الآن؟

– أعدتَ للشك بمينة؟

– يا بني، يبدو أنّ الحب قد أعمى بصيرتك، ولكنك لو استطعت النظر إلى الأحداث من الخارج، لفهمت ما يجري على الفور. لقد قُتِل فخري، وكنت قريباً من المصير ذاته، وتلك الفتاة التي تسببت بكل هذا قد اختفت. فأنت وذلك الفتى لم تكونا سوى بيدقين، أما هدفها الأساسي فهو قوى الاستخبارات. وما لم نقم بالتصدي للأمر سيقضون على هذه القوى بشكل تام. فهم يرمون إلى جعل تركيا ضعيفة من الناحية الاستخباراتية، وسيتبعون كل الوسائل لتحقيق غايتهم. ولا تستغرب أن تجد صورنا مقتولين عما قريب تحتل صفحات الجرائد الأولى، وبالطبع ستنال أنت دور البطولة.

أيعقل أن يكون ما يقوله صحيحاً، وتكون مينة جاسوسة؟ ما خطبك يا رجل؟ إنه أمر محال، وكل ما يردده عمي ليس سوى هذياناته ومخاوفه المعتادة. ولكن، أيقوم عمي بخداعي؟ لا، فهو لن يفعلها. كما أنه من قام بحمايتي على جري عادته، بعد حادثة يلدرم. والأهم أنه ما من حاجة إلى ذلك، فهم قادرون على جعلي أستقيل في الوقت الذي يشاؤون، ولن يسعني سوى الموافقة صاغراً.

– في الحقيقة لم أنظر إلى الموضوع من هذه الزاوية من قبل، ولكني أريدك أن تصدق أمراً مهماً، فحتى في حال وجود عملية من هذا القبيل، فأنا لست جزءاً منها بكل تأكيد.

– بل أنت جزء منها دون أن تدرك.

– لا أظن ذلك، ولكن إن منحتني بعض الوقت، سأقوم بحل القضية – أرمقه بصدق عميق وأنا أردف – أريدك أن تصدقني هذه المرة.

يتهرب عمي بنظراته بعيداً، ويمسد بيده اليمنى على شعره الذي حافظ على كثافته، رغم الشيب الذي خطه. فتظهر أزرار كمّ قميصه الذهبية. كانت هدية زوجته في حفل زواجهما، وما زال يتقلدهما حتى الآن.

– فأنت تعلم تماماً أنني الآن بت خارج أي تجمع أو تنظيم آخر.– أضيف قائلاً.

يزنني بنظراته، وكأنه يحاول أن يقيس مدى صدقي. أنتظر أن يقول لي إنه لم ينسَ بعد حادثة يلدرم، لكنه يلتزم الصمت، بينما يواصل النظر إليّ بقلق، وكأنه يحاول التحقق مما يجول في خاطري. للحظة أفكر أنه يتقصّد كل هذا من أجل التأثير عليّ، ذلك أن اقتراحي يصب في مصلحته أيضاً. حيث لن تتشعب القضية وتنتشر أكثر، وأرجح أنه ينوي الموافقة، ولكنه يماطل.

– منذ مدة وأنت تهمل عملك، وما تقوم به مخيب للآمال. – يعلق

– لقد انعزلت لبعض الوقت، فقد كان لموت يلدرم وقع سيئ عليّ.

– لم يكن للاستخبارات يد فيما حصل، لقد اتهمتنا جزافاً.

– هذا موضوع آخر. ولكنني سأجد مينة.

– سأوافقك شرط أن تطلعني على كل المستجدات، دون أن تتجاوز حتى أصغر التفاصيل.

– اتفقنا، ولكن أبعد الشرطة عن هذا الأمر.

– حسناً، وسيرافقك مصطفى.

– وما السبب؟

– يجب أن يكون لديك من يساعدك، فلن تتمكن من إنجاز الأمر

بمفردك. كما أنّ مصطفى شاب منضبط، وليس فضولياً، وتستطيع أن تسيّره في الوجهة التي تريد.

إنه ينوي مراقبتي عن طريق مصطفى، ولكن لا وقت لدي لألاعيبه الصغيرة، كما أنّ ما قاله عن مينة يثير الاشمئزاز، فهو يظنها جاسوسة، وأن كل ما عشناه كان مجرد كذبة.

– ألا تلاحظ أنك لم تخبرني حتى الآن عن طبيعة علاقتك بهذه الفتاة؟

– أظنك قد خمنت الحقيقة. – أكتفي بهذا التعليق.

– لم أكن أتوقع أن تكون شخصاً عاطفياً إلى هذه الدرجة، إنها ميزة سيئة بالنسبة إلى استخباراتي.

ألتزم الصمت فيما أنهض، وتعود نظراتي إلى المصارع، الذي بدا وكأنّ الحزن في عينيه قد زاد اتساعاً، دون أن ينقص من العزيمة التي فيهما بالمقابل.

الفصل السادس

حيّنا في منطقة إيسن كوي يشبه علبة كبيرة مخرّمة، تنبثق منها خيوط الضوء المتباينة، حيث يجلس جيراني الذين لا أعرف معظمهم على موائد العشاء الآن. أرفع رأسي نحو الطابق السابع إلى الشقة التي أقطن؛ فألمح أحدهم أمام النافذة. إنها مليكة، فهي تنتظر وصولي بهذه الطريقة كلما حدث خطب ما. كيف أبدو في نظرها يا ترى، مجرد رجل أرعن، لا يفعل شيئاً سوى التعثر في متوالية من الخيبات؟ لا أظن ذلك، فأنا في نظرها على الدوام ذلك الرجل القوي، ولكنني لن أجزم أنها لا تحب ضعفي ووهني الذي أنا عليه الآن، لأنها تكون أقرب إليّ حينها، وتجد فرصة من أجل مساعدتي. فالرأفة والإخلاص كانا على الدوام يتفوقان على باقي طباعها. وقد يكون هذا سلاحها، فهي تضغط على الطرف الآخر من خلال الطيبة والإخلاص. ألم تكن هذه الصفات هي السبب الذي دفعني لعدم الانفصال عنها؟ ربما الأمر مجرد كيد نسائي، فكل هذه التضحيات والعطاء مظاهر من أجل الاحتفاظ بزوجها، لا يا رجل، فهي تحبك حقاً. وكانت كذلك على الدوام. وماذا عني؟ لقد أحببتها، وما زلت. ومينة؟ إنها شيء مختلف. وكأنّ ما يربطني بها ليس حباً، إنما رغبة يغذيها الحقد، إنه شعور معقد، نوع من الجنون، فهل يمكن أن يحقد أحد على من يحب؟

لم يسبق لي أن شعرت بإحساس مماثل اتجاه مليكة. وحتى في اللحظات التي أتذكر فيها أنّ مينة تركتني، لأنني لم أقبل بالانفصال عن زوجتي، لم أتمكن من استحضار حقدي على مليكة. أما مينة فقد كانت تثير حقدي، كنت أكرهها وأرغب في تملكها حتى الموت، حتى الموت؟ ليس فقط ذلك، بل كنت مستعداً للتخلي عن كل ما له قيمة في حياتي. عائلتي، مهنتي، كرامتي؛ التي كنت مستعداً

لتمريغها في التراب من أجلها. ولكن هل أحبتني هي؟ لقد كانت كذلك في البداية، ربما لم يصل بها الأمر حدود العشق ولكنها أحبتني. ربما أكون ذكّرتها بوالدها الذي تركها طفلة وسافر إلى ألمانيا، فقد سمعت عن عقدة إليكترا8 للمرة الأولى من مينة نفسها. ربما وجدت فيّ شيئاً لم تجده في زملائها من الجامعة، فالفتيات عادة ينضجن بصورة أسرع من الفتيان، وربما ما شدّها إليّ هو كوني متزوجاً، فهي ستسجل نصراً نسائياً حين تتمكن من أخذ رجل من زوجته الناضجة، ولكن الغريب أنها تركتني للسبب نفسه؛ لأنني رجل متزوج.

وماذا عن فخري؟ ألم يكن لهذا الفتى أي دور في افتراقنا؟ بالطبع لا، فلو أنني وافقت على فكرة الطلاق، لما أنهت مينة علاقتها بي. بالطبع هي لم تصرّح عن ذلك علانية حين قررت تركي «لا فرق إن كنت أعزب أم متزوجاً، فلكل علاقة عمر معين، وقد انتهى عمر علاقتنا». كانت ذات كبرياء، فلم تطلب مني أن أطلق زوجتي، بل كانت تريدني فعل ذلك من تلقاء نفسي. ولكن لا تبالغ كثيراً في مدحها، فإضافة إلى كبريائها كانت بالغة الأنانية. فلو أنها كانت راغبة حقاً في الاستمرار معي، لطلبت مني أن أنفصل عن زوجتي. كانت ستتمكن من إقناعي بالفكرة، دون أن يحق لي إبداء أي اعتراض.

أنهكني تواصل هذه الأفكار فيما أصعد نحو الطابق الذي أقطن. وما إن أصل الباب حتى يفتح من تلقاء نفسه، ليقابلني وجه مليكة المتكدر.

– قلقت عليك، لقد تأخرت كثيراً.

– كنت مع عمي، وقد طال بنا الحديث – أقولها فيما أدخل، دون أن أرى أثراً للتوأم. ما زال الوقت مبكراً على نومهما، ولكن مليكة تجيب على نظراتي المتسائلة:

– لقد كلفتهما المعلمة ببعض الواجبات، وهما تدرسان في غرفتهما.

بدأتا دراستهما الابتدائية هذا العام، وهناك منافسة حامية الوطيس بينهما، حول من ستتقن القراءة قبل الأخرى. باب الغرفة مغلق، أطرقه بأناملي، فيظهر خيال فتاة صغيرة من خلال الزجاج المحجر وهي تقترب من الباب، ترى أهي غوكتشة أم آيتشا؟ تنتصب أمامي غوكتشة بملامح جدية أكبر من عمرها بكثير.

– أليس من سلامٍ على البابا؟

– ولكن لدينا الكثير من الواجبات بابا. – تقول معترضة على طلبي.

فتقبل آيتشا التي تسمع صوتي، وعلى عكس شقيقتها، تستقبلني باهتمام.

– كيف حالك بابا؟ – وتطبع قبلة صاخبة على خدي. هذه هي الحال دوماً؛ فحين تقول الأولى أبيض، تعاكسها الثانية بالقول أسود. ولا تطيقان مشاركتهما لأمهما، ولي أنا على وجه الخصوص. ولكنهما في أحيان أخرى تتفقان بطريقة تدهشنا حقاً.

– هل تناولتما العشاء؟ – أسألهما.

– من زمان. – تقول غوكتشة.

– لِمَ لم تأتِ بابا؟ – تسألني آيتشا.

– بابا كان لديه عمل. – تحاول غوكتشة تملقي، فتهب مليكة لنجدتي.

– هيا يا فتيات، لا تتعبا والدكما أكثر من ذلك.

تنسلان بهدوء من بين ذراعيّ، فنتركهما أمام الطاولة الصغيرة بين الكتب والواجبات ونخرج.

– لقد طبخت بامية مع صلصة حمراء، أنت تحبها. – تقول.

لا رغبة لي بتناول الطعام، ولكنني لا أريد كسر خاطرها.

– سلمت يداك. – أردّ.

وفيما تتجه مليكة إلى المطبخ أسألها:

– هل أتى مصطفى؟

– أجل، جاء قبل ساعات، وسأل عنك. إنه فتى طيب، يهتم لأمرك.

– ألم يترك شيئاً؟

– بلى، ترك ملفاً سميكاً.

– أين الملف؟

– لِمَ لا تجلس وترتاح قليلاً؟

– سأقرأه فيما أنا أرتاح.

نتجه إلى الصالون سوية، تفتح الدرج السفلي للخزانة، وتخرج ملفاً أصفر تمده لي.

– أخبرني أنه سيكون في المنزل الليلة، وإن احتجت شيئاً فاتصل به.

– حسناً. – أقولها وأنا آخذ الملف.

أفتحه فيما أتوجه نحو غرفة المكتب، فتناديني مليكة من الخلف:

– أنا أسخن الطعام.

– سألقي نظرة على هذه الأوراق أولاً..

– ألا تستطيع تأجيل الأمر إلى ما بعد الطعام؟

– بعد نصف ساعة.

ورغم أنها لا توافقني، ولكنها تتوقف عن الإصرار أكثر. أشعل الضوء، وأتجه نحو طاولة خشبة الجوز التي ورثتها عن والدي. يحوي الملف تقارير عن فخري ورفاقه في التنظيم؛ الذين تمّ اعتقالهم. ورغم أنني قرأت بعضاً من هذه التقارير أثناء التحقيق مع فخري ورفاقه بعد اختفاء مينة، ولكن لا بأس من إلقاء نظرة أخرى.

ولد فخري عام 1985 في أحد المستشفيات العسكرية في أزمير، قسم الولادات. درس المرحلة الابتدائية في أزمير، ومن ثم انتقل والده بسبب طبيعة عمله إلى إسطنبول. وهناك التحق بثانوية سانت جوزيف. ويبدو أنه كان طالباً مجتهداً، فجميع علاماته فوق الحد المتوسط. كان يكتب الشعر، وفي سنته الثانية من المرحلة الثانوية بدأ العمل في النادي الأدبي للثانوية. وهناك انتقلت إليه لوثة اليسارية، وأغلب الظنّ أنه انضم للتنظيم الإرهابي بعد إنهاء الثانوية. قُبل في جامعة بوغازجي، كلية الآداب قسم اللغة الإنكليزية، ولكنه لم يذهب إلى الجامعة سوى لسنة واحدة، وقد تعرض خلالها للاعتقال؛ مرة بسبب مشاركة في تجمعات ممنوعة، وثلاث مرات بسبب مناشير مخالفة للقانون. وفي السنة التالية لم يذهب إلى الجامعة مطلقاً لانشغاله بإدارة أحد فروع التنظيم، حيث يتمّ إلقاء القبض عليه مسلحاً، في اشتباك وقع أمام جامعة إسطنبول. ولأن السلاح كان نظيف السجل، لم يمكث في السجن سوى شهرين. ولكنهما ساهما في رفع أسهمه في التنظيم بشكل ملحوظ.

بدأت صداقة سنان وفخري منذ أيام سانت جوزيف، حيث كانا معاً في النادي الأدبي، أنهيا مرحلة الثانوية معاً، وقد درس سنان في كلية الآداب قسم الفلسفة، ولكنه مثل صديقه لم يكن ملتزماً كثيراً بدوامه الجامعي. ثم جاء الاعتداء على قسم الشرطة وفترة السجن، أيكون البائع المتجول الذي أطلق النار عليّ هو سنان؟

بحسب ما أورده مخبرنا من داخل التنظيم، فإنهم كانوا يخططون لعملية هروب من السجن، ولكن الانقلاب العسكري، وتغير إدارة السجن قد أفشلت خططهم. ومن الغريب نجاة سنان وفخري من حبل المشنقة، بعد صدور حكم الإعدام على المشاركين في الاعتداء على قسم الشرطة، حيث تمّ الحكم عليهما بالإعدام، وظلاّ مسجونين حتى العام 1991، حين صدور العفو العام.

– لقد وضعت الطعام على النار يا سِدات. – يشتت صوت مليكة القادم من المطبخ أفكاري.

– حسناً. – أردّ عليها، دون أن أجد رداً على السؤال الذي يثير قلقي بعد.

لديّ اطّلاع على معظم المعلومات الواردة في التقرير حتى الآن. أيضاً وبحسب المخبر نفسه، فإن فخري لا يتفق مع التنظيم، ويتم إبعاده مع سنان عن الكومونة. هل يوجد صور لسنان يا ترى؟ أقلب أوراق الملف بسرعة، فأجد بعض الصور. إنها لفخري حين أُلقي القبض عليه للمرة الأولى، كم كان شاباً.. أياً يكن الأمر لا وقت لذلك. من هذا؟ ليس هو. حسناً، ها هي صورة سنان داليا، لكنه لا يشبه الرجل الذي أطلق النار عليّ في شيء. ربما أكون مخطئاً، فالصورة لا تشبهه حالياً، لأنها قديمة جداً، وقد صُورت بطريقة بالغة السوء. كما أنه في هذه الصورة كثيف الشعر، وليس أصلع مثل البائع الجوال. ولكن ألا يجوز أنه أصيب بالصلع فيما بعد؟ قد أجد له صورة أخرى ملونة، أعود لنبش الصفحات مرة أخرى، وأخيراً أعثر على صورة ملونة له. لقد تمّ التقاطها عام 1987، حين نُقل إلى سجن جاناق قلعة. يبدو شخصاً لطيفاً، فهناك لمحة من الاستهزاء في نظرة عينيه السوداوين الكبيرتين. إنه قطعاً ليس البائع الجوال الذي أبحث عنه. ولكن من هو هذا الرجل الذي أطلق النار عليّ؟ أيكون أحداً من رفاق السجن، أو شخصاً تعرّف عليه بعد إطلاق سراحه؟ يجب معرفة المزيد عن سنان هذا، عما فعله بعد خروجه من

السجن. أبدأ بقراءة التقرير الخاص به.

– لقد أصبح الطعام أبرد من الثلج.

أرفع رأسي فأجد مليكة واقفة على باب الغرفة، بتعابير ساخطة. فأغلق الملف.

– لا يجب أن ترهق نفسك بالعمل، وأنت لم تشفَ بعد.

– لا تقلقي. – أقولها وأنا أنهض – أنا بخير..

في الحقيقة، لا رغبة لي مطلقاً في تناول الطعام، والتحدث إلى مليكة. عليّ إنهاء الملف بأسرع وقت ممكن، ولكن تفانيها في خدمتي، يمنعني من مبادلتها بالرفض، فأتبعها رغما عني. تستقبلني رائحة عبقة من المطبخ؛ ليست رائحة الطعام، بل الأزهار، وحين أرى المزهرية البيضاء مليئة بأزهار السوسن الصفراء، وقد افترّت عن شذاها أدرك مصدر العبق. وكما في كل مرة، فقد أعدت زوجتي مائدة جميلة. حين أرى طبقين فارغين، أسألها وأنا أسحب الكرسي:

– ألم تتعشي مع البنات؟

– كان الوقت مبكراً، ولم أشعر بالجوع. – تقولها وهي تسكب لي حساء الطماطم.

أتذوقه برأس ملعقتي، شهي، حينها أدرك أنني جائع بالفعل. وفيما تسكب مليكة حساءها، أمعن النظر فيها. هناك تجاعيد خفيفة حول عينيها، وشيب قد تمكن من بعض الشعرات هنا وهناك، تحاول إخفائه بصبغات الشعر، لكنها لا تزال جميلة. إنها شركسية الأصل، لذا فالجمال متوارث في جيناتها. التقيتها للمرة الأولى في منزلنا، فهي إحدى قريبات زوجة عمي ناريمان. وقد أسرني جمالها، كما أنني كنت قد بلغت السن المناسب للزواج، وأنهيت دراسة الحقوق منذ خمس سنين، وكانت قد

مكتبة

مضت على وفاة والدي سنتان، أما والدتي المريضة حينها، فكانت أكبر مخاوفها أن تموت قبل أن تزوجني. لم يكن لمليكة أحد، وكانت تدرس في دار المعلمين، وقد علّقت عليها والدتي: «هذه الفتاة قطعة ألماس، فلا تضيعها من يدك يا بني». ثم بدأنا نخرج سوية، كانت فتاة خجولة طيّعة الطباع. وكلما تعرفت إليها أكثر، ازددت حباً لها، وقد تمت خطبتنا بعد ثلاثة أشهر. وما إن تخرجت مليكة في نهاية السنة، حتى تزوجنا، وأثبتت أنها زوجة صالحة. فطبيعة عملي كثيرة المتاعب، وقد أتلقى هاتفاً مفاجئاً منتصف الليل، وأجد نفسي وسط اشتباك ما في أحد الشوارع. في بعض الأحيان، لم أكن أعود إلى البيت لأيام متتالية، ولكنها تمكنت من التأقلم مع كل هذا، وباتت خير سند لي، ربما لهذا السبب لم أتمكن من تركها؛ فلم أقدر على خيانة كل ذلك الإخلاص والصداقة.

– في غيابك جاءت السيدة سيفيم؛ والدة مينة. – تقولها فيما تسكب البامية في صحني – إنها تأتي كل يوم، وقد أخبرتني بأنها لو علمت بموت ابنتها، لما فُجعت إلى هذا الحد، كما أنها ترغب في لقائك..

عيناها مليئتان بالأسئلة. ترمقني وكأنها تتهمني بإخفاء أمر ما عنها. لكنني أواصل الأكل دون أن أعلق بشيء.

– لا توجد أخبار جديدة، أليس كذلك؟ – تصرّ على مواصلة الكلام.

– لا، لا يوجد أي جديد.

– كانوا يعتقدون أنّ الفتاة أحد عملائكم، أهذا صحيح؟

– من أخبرك بذلك؟

– السيدة سيفيم، وقد أطلقوا عليك النار لهذا السبب.

– هذا ما اعتقدوه.

– إنهم مجرمون. المسكينة، كانت في ريعان شبابها.

أفقد شهيتي، وأكابد صعوبة في ابتلاع كل لقمة، فأتناول كأس الماء عله يساعدني.

– هل الطعام حاد جداً؟ – تسألني مليكة.

– لا، على العكس إنه شهي، سلمت يداك.

أشرب الماء بأناة، فأشعر بتحسن، وفيما تهمّ مليكة بأخذ صحني مجدداً، أوضح لها:

– لا أستطيع تناول المزيد.

– عليك أن تتغذى جيداً، وإلا لن تستعيد عافيتك.

أضع يدي فوق الصحن الفارغ.

– لا شهية لديّ.

لا تواصل الإلحاح، ولكنها حين تراني أخرج علبة السجائر من جيبي، لا تستطيع منع نفسها من التعليق:

– لو أنك تتوقف عن التدخين لبعض الوقت.

– أنا لا أدخن كثيراً، هل أخبرتك السيدة سيفيم شيئاً آخر؟

– يا إلهي كدت أنسى، لقد عاد السيد متين؛ والد مينة من ألمانيا، وهو أيضاً يريد مقابلتك، وقد أعطاني رقم هاتف الفندق الذي يقيم فيه.

أشعر بالانقباض لأنني سأقابل والد مينة؛ أب مفجوع يبحث عن ابنته. ترى هل أخبرته المدام عن ترددي على بيتها؟ ما الذي قالته بالضبط؟ وما الذي

سأقوله لهذا الرجل؟ إن تنصلت من اللقاء، فهو لن يدعني وشأني، ولا أستطيع لومه، فما يمرّ به ليس سهلاً على الإطلاق. ماذا لو أرسلت مصطفى؟ لا لا، عليّ حل الموضوع بنفسي، أنهض عن الطعام متكدّراً.

– هل ستشرب القهوة في غرفة المكتب؟ – تسألني مليكة فيما تجمع الأطباق.

– لا رغبة لي في شربها الآن، ربما بعد قليل.

– حسناً. – تقولها برقة، وتبدأ بوضع الأطباق في غسالة الصحون، بينما أتجه نحو مكتبي. عليّ مراجعة ملف سنان في أسرع وقت ممكن، ولكنني لن أستطيع على ما يبدو؛ حيث يُفتح باب غرفة البنات، وتسرع آيتشا إلى الخارج وهي باكية.

– ما الذي حصل عزيزتي؟ – أوقفها.

– لقد أخذت غوكتشة ممحاتي. – فيما تنهمر دموعها على خديها المحمرين. فنعود سوية إلى الغرفة، فيما تنظر إلينا غوكتشة والذنب بادٍ من عينيها.

– أصحيح أنك أخذتِ ممحاة أختك؟ – أسألها.

– لكنها أضاعت ممحاتي.

ألتفت نحو آيتشا وقبل أن أتكلم تبادر:

– لم أفعل ذلك، لقد نستها في الصف.

– ما تفعلانه معيب جداً، كيف تدعيان أنكما أختان، ولم تتعلما بعد مشاركة ممحاة بينكما؟

– ولكن بابا. – تحاول آيتشا الاعتراض.

مكتبة

– لا أريد سماع كلمة واحدة. – أقاطعها بحسم – ستتشاركان الممحاة فيما بينكما، وغداً اشتري لنفسك ممحاة جديدة يا غوكتشة.

تطرقان رأسيهما، وحين أتأكد من استتباب الأمن بينهما، انسحب نحو مكتبي لإكمال الملف.

تقرير كل من فخري وسنان، كتبا بطريقة مماثلة. الخط ذاته والمسافة بين السطور ذاتها، وأنا واثق أنهّما كُتبا على الآلة الكاتبة ذاتها.

ينحدر سنان من عائلة غنية، فجده الأكبر رونق أفندي كان مسؤولاً عن إمداد القصر العثماني باحتياجاته من السمن. وقد تمكن رونق أفندي عن طريق تجارته، من شراء دزينة من المحلات التجارية في منطقة تاهته كاليه، وقصر قديم في بيه أوغلو، وعمارة في منطقة نيشان تاشى. ولكن الأبناء والأحفاد لم يرثوا عنه مهاراته التجارية، ورغم ذلك فقد كانت الثروة التي كونها جدهم، تكفيهم جميعاً. كان والد سنان مسرفاً كبيراً، فبعد إنهائه مرحلة الثانوية في ثانوية سانت بينويت، سافر إلى باريس. واندمج مع الوسط الفني هناك، ولكنه وبعد مدة، عاد إلى الوطن، بعد أن ملّ البوهيمية التي عاشها. فباع متجراً من الأربعة التي ورثها في تاهته كاليه، وبدأ بمزاولة التجارة. ولظن والديه أنّ ابنهما سيحيا حياة طبيعية، وجدوا له فتاة جميلة وقاموا بتزويجه. وقد أبصر سنان النور بعد سنة من هذا الزواج، ومع قدوم ابنه، حاول الأب المسكين بذل كل جهده في العمل، ولكن مع قليل من سوء الحظ، والكثير من انعدام الموهبة في التجارة، ساءت أحواله، فقام بإغلاق المحل بعد بضع سنوات، وبالاعتماد على أجرة متاجره، أخذ يواصل نمط حياته الذي كان يعيشه في باريس. ولأنه كان يقوم بدفع فواتير الحساب معظم الأحيان، فقد جمع حوله معظم معاصريه من فنانين موهوبين وفاشلين، وشعراء وكتّاب ونقاد، ولم يجد السيد عزمي مانعاً من اصطحاب ابنه سنان الذي أصبح في طور المراهقة، إلى هذه الاجتماعات أيضاً. وقد ذكر سنان أنه تشرب أول مبادئ اليسارية من أولئك

السكارى في تلك الاجتماعات، ولا بدّ أنّ ميوله الفنية أيضاً نشأت في تلك الحقبة.

وأغلب الظنّ أنّ سنان كان أول من أثّر على فخري، الذي كان ابن رجل عسكري، وهذا يفترض ابتعاده عن الفكر اليساري. على عكس سنان الذي نشأ في وسط تُناقَش فيه هذه المواضيع بشكل يومي، وقد حدثه عن تلك الأفكار التي ستقود الإنسانية نحو مستقبل أفضل. وبسبب طبيعته الجامحة، فقد تشرّب فخري هذه الأفكار، ومن ثمّ انتسب إلى التنظيم. وربما كان سنان عضواً في التنظيم منذ البداية، ولكنه احتمال مستبعد، فالوسط الفني المائع الذي نشأ فيه هذا الشاب البوهيمي لا يخوله التقيد بأي نشاط تنظيمي. فهؤلاء الأشخاص عادة جبناء، لا يستطيعون التخلي بسهولة عن حريتهم في إلقاء خطب رنانة على مسامع الجميلات، بين كأس مُثلجة وأخرى. لكن الأوساط السياسية كانت محتقنة في تلك الفترة، حيث كان لليساريين أذرع في كافة الجامعات والمدارس تقريباً، وكانوا يقومون بالتواصل مع كل من يجدون لديه قبولاً لأفكارهم. وأغلب الظنّ أن هذا ما حصل أثناء انضمامه إلى النادي الأدبي.

أنهى الشابان الثانوية معاً، وقد انتسب سنان لقسم الفلسفة في الجامعة كما كان يرغب، ولكنه لم يداوم سوى فترة قصيرة. حيث كان يقضي معظم الوقت في الجمعية التي شكّلت غطاء لنشاطات التنظيم. وكان يكتب مقالات دعائية في مجلة يسارية. كما كان يترجم بعضها عن مجلات فرنسية، تتحدث عن نشاطات الثوار في الدول الإفريقية التي تخوض حروباً من أجل استقلالها. ولكن ذلك لم يكن كافياً من أجل إثبات شخصيته. لذا فقد كلفه التنظيم بالهجوم على مركز الشرطة بقيادة فخري. حيث خرجا من السجن بعد العفو الصادر عام 19. وبسبب الخلاف بين أعضاء التنظيم وكل من فخري وسنان في السجن، انفصل الاثنان من الكومونة، ليس لتخليهما عن الفكر الاشتراكي، بل لمناصرتهما إعطاء الأولية لأطروحة الهيمنة الثقافية بدل هيمنة البروليتاريا، لتحقيق الثورة. وهذا أمر لم يكن ليناسب تنظيماً يعتمد على قوة السلاح لفرض نفسه. وعلى إثر ذلك تمّ فصل

كليهما من التنظيم، والغريب في الأمر أنّ التنظيم نفسه سينحلّ بعد عام تقريباً. ولكن تلك الفئة المقتنعة بالكفاح المسلح، تقوم بإحياء كمونة خاصة بها. يلفت انتباهي اسم أحد المؤسسين «أوزير يلكى»، أين سمعت هذا الاسم قبلاً؟ أوزير يلكى.. أوزير يلكى.. من يكون؟ أتذكر فجأة. إنه الرجل الذي ذهبت للتحقق من جثته في المشرحة. الإرهابي الذي أطلق عليه مصطفى النار، ظناً أنه من قام بمحاولة قتلي.

إذاً لا علاقة بين فخري، وهذا المدعو أوزير يلكى! حتى أنّ شجاراً قد نشب بينهما ذات مرة، بحسب مخبرنا من السجن. ولولا تدخل بقية السجناء، لنال كل من فخري وسنان ضرباً مبرحاً.

وهذا يشير إلى انتهاء علاقة فخري بالتنظيم، أثناء فترة سجنه. وبالتالي لم يعد هناك من منطق في قيامه باتهام مينة أنها عميل لنا، ومحاولة الانتقام منها. ولكن ألا يمكن أنه يقوم بتقييم الموضوع أخلاقيا؟ فهو يظن أنّ الفتاة التي أحبها ما هي إلا مجرد عميل، وهي بالتأكيد صفعة قوية بالنسبة إلى شخص يتهم قوات الأمن بتدمير حياته، بعد قضاءه إحدى عشرة سنة في السجن، لا بدّ أنه ثار حنقاً، بل وصل به الجنون إلى حدّ القضاء عليّ وعلى مينة وعلى نفسه أيضاً.

لو افترضنا صحة هذا الرأي، فماذا عن الرجل الذي كان برفقته؟ أهو قاتل مأجور؟ لا أعتقد، فليس لدى فخري النقود الكافية لاستئجار شخص كهذا. كما أنّ هؤلاء لا يريدون التورط في عمل قذر، كقتل أحد رجال الاستخبارات. إذاً من يكون هذا الرجل؟ أعود للملف مرة أخرى.

سنان يكتب قصصاً من السجن، ويرسلها إلى بعض المجلات، ولكن خلا مجلة ذات ميول يسارية، فقد رفض البقية نشر أي عمل له. وأغلب الظن أنه قليل الموهبة مثل والده. وربما حين أدرك افتقاده الموهبة الفنية، عاد لحضن التنظيم مرة أخرى. رغم أنّ التقرير لا يذكر ارتباطه المباشر بأي تنظيم سياسي. ألا يحتمل أنه

تمكن من تخطي مراقبيه؟ ربما! وهذا شيء غريب آخر، فما أن يخرج من السجن، وبواسطة حصته من ميراث والده، يقوم بفتح مكتبة تسمى الحروفات. ومن ثم يقوم بإصدار مجلة دورية بذات الاسم، ولن أستغرب إن ظهر للحروفات دار نشر أيضاً. ماذا كان ليفعل التاجر رونق أفندي الذي جنى ثروة طائلة بذكائه وجهده، لو قيّض له رؤية أولاده وأحفاده الخائبين، وهم يبددون ثروته على ترهات ثقافية تغطي على جدب مواهبهم الفنية؟

بدأ سنان بأول عمل تنظيمي له، أثناء الثانوية بانخراطه مع الفعاليات المسرحية. ولكن ألن يحاول استغلال «الحروفات» لغرض مماثل؟ إنه الشخص الذي سيساعدني في فكّ خيوط هذه العقدة. ولكن كيف سأدفعه للكلام؟ فبحسب ما ورد في التقرير؛ يبدو ذا شخصية متماسكة، وفي كلتا المرتين اللتين تمّ استجوابه، لم يحصلوا منه على كلمة مفيدة. ولن يجدي التحقيق معه مجدداً. ولكن هل الحروفات مجلة مرخصة رسمياً؟ هممم. أجل، هنا كل الأوراق اللازمة. الأمور على ما يرام، ولكن لحظة، ما هذا الإنذار؟ إنه إخطار بتسليم عشرة نسخ من كل عدد للفرع الأمني. وهو لم يرسل شيئاً من آخر ثلاثة أعداد.

«هذا أمر جيد» أرددها لنفسي، فهو طريق للتواصل مع سنان. أنهض متجهاً نحو الهاتف، فأجد مليكة منشغلةً بمتابعة أحد برامج (تلفزيون الواقع). إنها شغوفة جداً بهذا النوع من البرامج. ومن الغريب حقاً لامرأة هادئة الطباع مثلها، الاهتمام بهذا النوع من البرامج.

فيما أرفع السماعة، تصلني أصوات ضحكات من غرفة الفتيات، يبدو أنّهما أرخنا حبل الدراسة.

بعد الجرس الثالث يرفع المحقق ناجي السماعة:

– ألو تفضل؟

– مرحباً ناجي، أنا سِدات.

حين يدرك من أنا، يتخلى عن جديته على الفور:

– متى نهضت يا رجل؟ منذ يومين كنت تشارف على الموت في الفراش.

– لست معتاداً على الدلال مثل جنابك، في البارحة كنت في المستشفى، واليوم على رأس عملي.

– ستحصل على زيادة راتب.

– أجل، وفي المرة القادمة سأنال أربع رصاصات بدل اثنتين.

– من الفضة؟

– مغلفة بالذهب، وتنتهي كل منها بأربع حبات من الألماس.

– هذا ما يليق بالأمراء من أمثالك، أما نحن عامة أفراد الشرطة، فلا ننال سوى بعض الخردة الحديدية.

– على أي حال شكراً لك، لقد استلمت الملفات التي أرسلتها مع مصطفى.

– لا تقل ذلك، إنه واجبنا، لقد تركت كل مهامي وانشغلت بتنفيذ أوامرك.

– بالطبع عليك فعل ذلك، فحين تحتاجني في أمر ألا ألبيك على الفور؟

– على رسلك يا رجل، كنت أمازحك.

– هناك شخص ورد في التقرير اسمه سنان؛ سنان داليا، يجب عليّ التحدث إليه.

– ما الذي تعنيه؟

– دعك مما أعنيه، قم باستدعاء سنان، ولا تتدخل في البقية.

– أستطيع استدعاءه، ولكن ما الحجة؟

أستغل الفرصة للتهكّم منه:

– يالا الكوارث التي تقع أبعد من أنفك بخطوة، وأنت غارق في جهلك.
– أقولها موبخاً – إنه يصدر صحيفة تسمى «الحروفات». وعليه أن يسلم نسخاً منها لفرع الأمن، وقد نسيتم أمر الإخطار الذي أرسلتموه له أول مرة. وهذا مخالف للقانون.

– يا له من أمر عظيم الأهمية يا رجل. – يعلق بسخرية – علينا الإمساك به، وغربلة جسده بالرصاص.

– حسناً، هذا ما ستقوله أمام الرجل، فيما ألعب أنا دور الشرطي الجيد.
– أقولها ضاحكاً.

لكنه يعقب بجدية:

– أتعتقد أنه سيبتلع الطعم؟

– سنعمل على أن يبتلعه، ليس أمامنا حل آخر.

يعود للتهكم مجدداً:

– حسناً سيدي. – يهتف صاخباً – أول مهمة سأقوم بها في صباح الغد، هي إيجاد هذا المدعو سنان.

– أبلغني بالمستجدات.

– أمرك سيدي. – يواصل ابن العاهرة التهكّم.

الفصل السابع

يقيم والد مينة في فندق لندن الكبير المطل على ساحة تيبى باشى. يحولني موظف الاستقبال إلى هاتف غرفته. صوت السيد متين يافع، وحين يعلم من أكون، يطغى القلق على صوته فوراً. وإن شئتم الحق فأنا أيضاً لا أشعر بالارتياح من هذه المكالمة، ولكنني أحاول التمسك ببرود أعصابي قدر المستطاع. يخبرني أنه مضطر على السفر إلى ألمانيا هذا المساء، لذا يتوجب علينا اللقاء من كل بدّ، فلا أرفض طلبه.

نتفق على اللقاء في الساعة الحادية عشرة في الفندق، وهو واحد من قصرين قديمين، بناهما شقيقان إيطاليان منذ قرن على وجه التقريب، حيث تحولا إلى فندقين فيما بعد. وقد نفذنا مهمة فيه منذ ثلاث سنوات لتعقب جاسوس بلغاري، حيث كان يقيم في إحدى غرف الطابق الثاني. فوضعنا جهاز تنصت في الغرفة، وتبيّن أنه كان يتواصل مع شخص آخر ينحدر من الأتراك الذين هاجروا من بلغاريا. وتمكنا من تثبيت مكان لقائهما السري حيث يعملان، والقينا القبض عليهما بعد يومين. حيث تمت مبادلة الجاسوس البلغاري مع آخر تركي، أمّا شريكه فلا يزال قابعاً في السجن.

يجلس بعض السواح في الردهة. أما الطاولة المجاورة فيجلس عليها رجل أشهب الشعر، دميم الوجه. يبدو وكأنه ينظر إليّ، ولكنني لا أعيره اهتماما. تجول نظراتي على المكان حيث لا يبدو لي أيٌّ من الحضور والد مينة. أتجه نحو موظف الاستقبال:

– لديّ موعد مع السيد متين.

مكتبة

– إنه هناك. – يقولها بلكنة عربية واضحة، فأنظر نحو الجهة التي يشير إليها، لأجد العجوز الذي رأيته منذ لحظات. من الواضح أنه قد تجاوز الستين من العمر، ينهض حين أقترب منه، ويدهشني أن يكون والدها عجوزاً لهذا الحد، فيما والدتها لم تبلغ الخامسة والأربعين بعد.

– مرحباً. – يقولها وهو يمدّ يده مصافحاً.

– السيد متين؟ – أسأله فيما أصافح يده بدوري.

– أجل، تفضل بالجلوس. – وحين يلاحظ دهشتي يردف – كنت تتوقع شخصاً أصغر عمراً أليس كذلك؟

أجلس على المقعد الذي يشير إليه.

– إن شئت الحق، أجل.

يبتسم الرجل.

– فهمت، لكنني حين تزوجت سيفيم كان فارق العمر بيننا أكثر من خمسة عشر عاماً.

– لا، لقد أسأت فهمي. – وأمعن النظر في تقاسيم وجهه علّني أرى شبهاً بينه وبين مينة – ولكن صوتك على الهاتف هو من شوّش الأمر.

– إنه يشوّش الجميع.

لا يوجد أي ملمح مشترك بين هذا الرجل الدميم ومينة، يبدو أنّها ورثت جمالها كله من أمها.

– آسف لأنني لم أتمكن من اللقاء بك قبلاً، لقد كنت في المستشفى.

يكتسي وجهه بملامح جدية.

– أعلم. – ويسألني وهو يصوب نظراته إليّ – ما الذي حصل لهذه الفتاة سيد سِدات، هناك الكثير من الروايات التي يجري تداولها، دون تأكيد أي واحدة منها.

لا يبدو كشخص يريد محاسبتي، بل كمن يستجدي المساعدة.

– نعتقد أنها قد خُطفت.

– أكانت تعمل لحسابكم؟

هذا ما يفسر به علاقتنا إذاً. أحاول المراوغة.

– لا يمكن اعتبار الأمر على هذا النحو، ولكنها كانت تمدنا بالمعلومات بين الحين والآخر.

– أنا رجل يحب بلاده وشعبه. وفي العام المنصرم حين قام الألمان بتطبيق حصار اقتصادي على تركيا سحبت جميع رصيدي المالي، وأودعته في بنك تركي. ولكنني لا أفهم سبب توريطكم لابنتي في أمر كهذا.

– في الحقيقة، نحن لم نورطها في شيء، وربما أطلعتك السيدة سيفيم على الحادثة التي تورطت فيها مع الشرطة، حيث قمت بمساعدتها. كنا نقطن العمارة ذاتها، ويصدف أن نلتقي ونتبادل الحديث، ولكن يبدو أنّ الإرهابيين قد فسروا هذه المحادثات وفق ما يشاؤون.

– إنك رجل محنك، وكان يجب أن تخمن وصول الأمور إلى هذه المرحلة.

– إنك محق، ولكننا لا ننجح في التنبؤ بالأحداث كل مرة.

– لو كانت مينة ابنتك، أكنت سترمي بها في الخطر بالطريقة ذاتها؟

لوهلة لا أعلم بما يجب عليّ الرد، ولكنني أتمالك نفسي:

– أنا متأسف بقدر أسفك أو أكثر.

– لا أظن، فمن لا يحترق، لا يكابد الألم.

– لم أكن راغباً مطلقاً في أن تصل الأمور إلى هنا.

– إذا عليك أن تجدها.

– وهذا الشيء الوحيد الذي أعمل عليه حالياً، وآمل الحصول على نتيجة قريباً.

نتيجة؟ – يحدق إليّ – عليك أن تعثر عليها حية – ويختلج صوته – أتسمعني؟ لا يمكن لكم المخاطرة بابنتي من أجل القبض على بعض الإرهابيين.

– لا تفكر بمثل هذا الاحتمال، بالطبع سأعثر عليها حية.

يحدجني بنظرات حانقة، وكأنه يريد التأكد مما أقوله، فتخفّ حدة غضبه قليلاً وهو يقول لي:

– ولكن قلقك الواضح لا يشي بذلك – ما هي طبيعة علاقتكم؟ أتوقع هذا السؤال، ولكنه بدلاً منه يواصل – أرجو أن تعذرني إن كنت أسأت التصرف.

– لا عليك، فأنا أفهمك جيداً.

نظل صامتين لبرهة، ولكنني أعلم نيته مواصلة الحديث، والبوح بما في داخله لأحد ما:

– ألا يخطر لك احتمال آخر غير فرضية الإرهابيين؟

– ما الذي تعنيه؟

– كما تعلم فهي كانت تقيم مع زوج والدتها.

– أجل؟

– وقد حاول الاعتداء عليها، لكنه لم يتمكن... لهذا.

– لو حدث أمر من هذا القبيل، لأخبرتنا السيدة سيفيم على الفور. – أقاطعه.

– لا أعلم، ربما ستفعل – يبدو غير واثق مما يفكر فيه – فالإنسان معرض لكل أنواع الكوارث، ولكن الأسوأ أن يكون هو السبب في اجترار الكارثة.

– وما علاقتك بالأمر؟ – أسأله.

– لي علاقة كبيرة، فمينة كانت ضحية أحد أخطائي.

– هل لك أن تكون أكثر وضوحاً؟

– حين طلاقنا ما كان عليّ تركها لدى أمها، بل أخذها معي، ولكنني قلت لنفسي إنها فتاة وستعتني بها أمها أفضل مني. إلا أنني لم أتوقع أن تتزوج سيفيم مرة أخرى وبهذه السرعة. كان يجب أن أتوقع أنها ستهمل ابنتي بعد أن أنجبت أبناء آخرين.

يزداد صوته ارتعاشاً، وتمتلأ عيناه دموعاً.

– عذراً، ولكن هل لي بمعرفة سبب انفصالك عن السيدة سيفيم؟ – أسأله.

ينسحب عائداً من شروده ويرفع رأسه.

– لماذا تريد أن تعرف؟

أستشف الحدة في صوته، إذا فهو لا يزال يشعر بالضيق من هذا الموضوع.

– حسناً، لما تشكّ في زوج أمها؟

يجيب على سؤالي، وكأنه عاد لشروده السابق:

– مينة تشبه أمها في شبابها.

– وما الذي يعنيه هذا الأمر؟

– لقد شاخت سيفيم بسرعة، ولكنّ مينة ما زالت في ريعان شبابها، وقد يكون الرجل مال إليها.

– إنك تظلمه، فلا يوجد أي دليل يشير إلى أمر مماثل.

– لكنك لا تعرف ما حصل في الماضي.

– إذاً أخبرني لأعرف.

يحدق إليّ متردداً وكأنه يريد القول: إن لم تراودك الشكوك بشأن الرجل، فلماذا تريد سماع حكاية انفصالنا؟

– ولكن إن لم تكن راغباً في التحدث، فلن أجبرك بالطبع. – أواصل.

– لا سأخبرك بالقصة، سأفعل أي شيء يمكن أن يساعد في إيجاد ابنتي.

وبعد أخذ نفس عميق يبدأ بالسرد:

– قبل سفري إلى ألمانيا، كنت أعمل في سوق الخضر، فبعد إنهائي مرحلة الثانوية، ساعدني زوج خالتي على إيجاد هذا العمل. كنت أنهض مع بزوغ الفجر للتوجه إلى العمل، ولا أخرج سوى بعد غروب الشمس، وأعيش مع أمي المسنة. مع راتبي ومعاش والدي التقاعدي كنا بالكاد نسدّ احتياجاتنا، وبعد وفاة أمي أدركت

أنّ العمل في سوق الخضر لن ينتهي بي إلى أي مكان، فيما العمر يمضي. وفي تلك الأثناء سمعت عن حاجة ألمانيا للعمال، الأمر حدث بالطبع قبل حوالى ثلاثين، أو خمس وثلاثين عاماً، ولم يكن لديّ حينها ما يجبرني على البقاء، لذا ومن خلال الرشى والوسائط تمكنت من تسريع معاملتي، لأغذّ السير إلى ألمانيا. كنت طموحاً جداً، وأنوي فعل المستحيل للعودة غنياً، ولكن الألمان لا يعطونك مالاً دون مقابل. كانت أعلى الرواتب تُعطى للعاملين في مناجم الفحم، ورغم أنني حائز على شهادة الثانوية، لكنني تقدمت بطلب للعمل في منجم بمدينة غيلسن كيرتشن، بسبب ارتفاع الراتب. كنت أعمل لساعات على بعد مئات الأمتار عن سطح الأرض مثل المجانين، ولكنني بعد الانتهاء أجد وقتاً للمتعة أيضاً، فالنساء الألمانيات لا يشبهن التركيات في شيء. فقد كان من المريح الدخول في علاقات معهن دون عواقب، في البداية استغربت الوضع، حتى أنني احتقرتهن على هذا الاستهتار، ولكنني تعودت فيما بعد، ففي النهاية كنت شاباً وأمامي نساءٌ جميلات.

كنت أزور البلاد كل سنتين أو ثلاث، فقد تفرق معظم أصدقائي ومعارفي، ولم يكن لديّ من أقرباء سوى خالتي العجوز. في المقابل، كان كل ما أريده موجوداً في ألمانيا، ولكن الزمن يمضي سريعاً، حيث بدأت تظهر عليّ بوضوح آثار العمل الشاق في المنجم لمدة خمسة عشر عاماً. ورغم أنني لم أتجاوز الخامسة والثلاثين، فقد بدوت عجوزاً، كما أخذت نواقيس الخطر ترن في أنحاء جسدي، حيث أصبت بروماتيزم المفاصل. فانتابني الخوف من الموت وحيداً من دون أن يلحظ أحد. وكان لي صديق من الفاتح يعمل في المنجم ذاته اسمه أكرم، وقد لاحظ وضعي وأصرّ أن نتحدث، فصارحته بكل شيء.

– ولِمَ تشغل ذهنك، تزوج وانتهى الأمر.

– وهل الزواج أمر بهذه السهولة، فمن التي سأتزوجها وأين سأجدها؟

– بالتأكيد لن تتزوج من ألمانية، كما أنّ الناس في تركيا يتهافتون لتزويج

بناهم لمن يعمل في ألمانيا يا رجل.

راقني كلامه، ففكرة الزواج من فتاة تركية مناسبة المظهر والجوهر وإنجاب أولاد – حتى وإن كنت قد تأخرت قليلاً – بدت لي مناسبة جداً. وفي ذلك الصيف عدنا إلى تركيا، وكانت الخالة أمينة؛ والدته قد بدأت البحث ووجدت لي بعض المرشحات، حيث راسلها أكرم قبلاً، ورضيت هي عن طيب خاطر السعي في هذا المشروع. وطوال الوقت كان يراودني إحساس مخيب، أنّني لن أنال إعجاب أي من الفتيات، فأنا مدرك أنني لا أملك شيئاً من الوسامة، بالإضافة لأنني لم أكن شاباً في مقتبل العمر. فلِمَ تقبل بي شابة جميلة؟ ولكن العكس ما حدث، فرغم أنّ معظم الفتيات وافقن على الزواج بي من دون تردد، لم أجد في نفسي ميلاً إلى أي واحدة منهن. فكيف سأقضي بقية عمري مع امرأة لا أشعر بأي ميل نحوها، لذا بدأت أشعر باليأس. إلا أنّ ما حدث بعدها كان غير متوقع بالفعل، فبسبب انشغالي بالبحث عن عروس مناسبة، لم يتسنَ لي الوقت لزيارة خالتي العجوز بالشكل الكافي، لذا توجهت لزيارتها في صباح يوم أحد.

كانت تسكن وحدها في شقة كبيرة ورثتها عن زوجها في منطقة كوجا مصطفى باشا. ولأنها لم تنجب، فقد كانت تحبني كثيراً. طرقت الباب ففتحت لي فتاة شابة، استغربت، وظننتي مخطئاً في العنوان، ولكنني حين تأكدت من رقم الشقة، أدركت أنني لست مخطئاً، بينما تراقبني الفتاة دون أن تدرك سبب حيرتي.

– تفضل، من تريد؟

– جئت لرؤية السيدة أمينة.

فابتسمت، وكأنها أمام أحد تعرفه، كانت جميلة وعفوية.

– لا بدّ أنك ابن أختها؟

– أجل، كيف عرفتِ؟

– لأنها حدثتني عنك مراراً.

وقد جاءت خالتي أيضاً حين سماع صوتي، فدخلنا جميعاً، كانت تتحدث عن أمور كثيرة، ولكن ذهني ظل مشغولاً بالشابة التي ترافقنا، ومن سير الحديث علمت أنّ اسمها سيفيم. غادرت سيفيم بعد برهة، فتوجهت نحو خالتي على الفور:

– من هذه الفتاة؟

– ابنة جارتي السيدة نورتان التي تسكن في الطابق العلوي.

– فتاة جميلة.

– ليت حظها أيضاً كان جميلاً كوجهها.

– لماذا تقولين هذا؟

– حدث معها أمر مؤسف، فقد أحبت شاباً وهي في الثانوية.

– وما المؤسف في الأمر؟

– المسكينة ونتيجة علاقتهما ببعض، أصبحت حاملاً؟

– إيه وماذا حصل؟

– كانا قد أنهيا الثانوية للتو، وقد حاز الشاب على قبول كلية الهندسة في جامعة أنقرة، فسافر وترك الفتاة.

– وماذا عن الطفل؟

– أجهضوه، ولكن المسكينة لحقها سوء السمعة إلى الأبد.

– حقاً إنه أمر مؤسف، فهي فتاة جميلة جداً.

– ليست جميلة فقط، بل خلوقة مطيعة، ونشيطة، ولكن طالعها أسود.

– كان عليها أن تكون أكثر حذراً.

قلتها غاضباً، ولكن ما شأني بها؟ ربما لأنني تأخرت في العثور عليها، فلو لم يحصل معها هذا الحادث، لكانت زوجة مناسبة. ولكن هل ستقبل بي هي؟ ربما ما كانت لتقبل بي سابقاً، ولكن بعد الذي حدث معها، أظنها ستقبل بكل امتنان. وماذا عني؟ هل أرضى الزواج من فتاة فعلت ما فعلته؟ صحيح أنني رافقت الكثير من الألمانيات، ولكن حين الزواج يختلف اختيار الرجل تماماً. هذا ما تعلمناه من آبائنا، وما ترعرعنا عليه. إلا أنها كانت بالغة الجمال، وبالمقابل كان الوقت يكاد يفوتني. وحين خمّنت خالتي ما أفكر فيه سألتني مستوضحة:

– فيمَ تفكر بكل هذا العمق؟

– لا شيء.

– لا تحاول الإنكار، فأنت تفكر في سيفيم أليس كذلك؟ لو تتزوجها يا بني ستكسب ثواباً عظيماً، لقد غُرر بها لصغرها.

– وهل يمكن ذلك يا خالة؟

– يمكن بكل سهولة، وسيكون فيه خير عظيم.

– وما الذي سيقوله من سمع وعلم بما حدث لها؟

– ومن سيعرف بأمركما بعد أن تأخذها إلى ألمانيا؟ وإن شئت خذها ولا تعد مرة أخرى.

– حسناً، لنرَ إن كانوا سيزوجونني الفتاة.

مكتبة

– سيفعلون، وهل سيجدون من هو أفضل منك؟

– دعيني أفكر في الأمر قليلاً، يا خالة.

قلّبت الأمر في ذهني ليومين، فمثل رجل تركي كنت أودّ الزواج من فتاة عذراء، إلا أنّ أي واحدة منهن لم تلقَ هوى في نفسي. أما سيفيم فكانت تشبه الفتاة التي أريدها زوجة لي. ولكنها تعرضت لسوء حظ بالغ. ومن جهة أخرى فكّرت في ما قالته خالتي، فمن سيعلم بماضيها إن سافرنا؟ كما أنني سأكسب ثواباً عظيماً إن أنقذتها من هذا الوضع.

ومع ذلك كان اتخاذ القرار أمراً بالغ الصعوبة، حتى أنني عجزت عن النوم طوال تينك الليلتين، وقد أدرك أكرم أن بي خطباً ما، فأصرّ على معرفة الأمر، لكنني لم أخبره شيئاً بالطبع، وفي اليوم الثالث زرت خالتي وأبلغتها بقراري والخجل يعتصرني، فيما أصابها سرور كبير. وفي تلك الليلة ذهبنا لنخطبها من عائلتها التي قابلت طلبنا بامتنان، أما سيفيم فلم يقم أحد بأخذ رأيها، وهي أيضاً لم ترفض، ولم تقل لهم أنها لا تريد الزواج بهذه الطريقة. أكان باستطاعتها قول ذلك؟ أعتقده أمراً صعباً. والغريب أنني وبعد الزواج لم أشعر بالسوء مما حصل معها في الماضي. فقد غطّى جمالها على كل شيء. ليس جمالها فحسب بل جاذبيتها، وربما لم يجدها الآخرون بكل ذلك الجمال الذي وجدتها عليه. ولكنها كانت في نظري أكثر النساء إثارة على وجه الأرض.

قد تجد تركيزي على جمالها أمراً مبالغاً فيه، ولكن بالنسبة إلى شخص حُرم من هذه النعمة، وكان يرى النفور في نظرات النساء ومن النادر أن يحظى بنظرة إعجاب حقيقية، فالجمال شيء قيّم بالفعل. وكان أكبر أحلامي ألا يشبهني طفلي القادم، وأن يتصف بالجمال الذي حرمت منه. وحين ولدت مينة كانت هذه المخاوف تراودني وأنا أنظر إليها للمرة الأولى، ولكنني لم أجد سوى كتلة لحم لا ملامح محددة لها، تبكي على الدوام. فكانت فرحة الأبوة في قلبي تظللها مخاوف أن

تكون ابنتي قبيحة. ولكن مخاوفي تبددت بعد مرور أسبوع، حيث كانت مينة تكبر بسرعة، ومع كل يوم جديد كانت تزداد جمالاً، ومع نضجها أكثر باتت تشبه والدتها. ولكنني الآن أتمنى لو أنها لم تشبهها مطلقاً.

– لِمَ؟ – أسأل السيد متين.

– ربما لم أكن حينها سأقبل أن تأخذها أمها، ولما كانت ستتعرض لهذه المصيبة.

– ألم تكن ترغب ببقائها معك لأنها كانت تشبه والدتها؟

– حتى لو بدا الأمر سخيفاً لك، ولكنها الحقيقة. مكتبة

– لأنها ستذكرك بطليقتك التي ما زلت تحبها.

– بعد كل ما فعلته بي؟

– وما الذي فعلته بك؟

– حسناً، سأروي لك. في البداية كان زواجنا يسير على ما يرام، كنت أعلم أنها لم تقع في حبي، ولكنها لم تقصر في واجباتها اتجاهي، وهذا ما كنت أكتفي به. حتى أنني كنت أحلم باليوم الذي ستبدأ فيه بحبي. ولم يخطر لي أنّ جرحاً قد مضى عليه أربعة عشر عاماً، سيعود للنزف من جديد.

كانت مينة قد بلغت الرابعة عشرة للتو، وفي ذلك العام خضعت لعملية جراحية في معدتي. كانت عملية ناجحة، ولكنها خلفت بعض المضاعفات، أما مينة فكانت متحمسة لقضاء العطلة في تركيا مع والدتها كما في كل عام. كنت أشعر بالضعف، لذا عرضت عليهما ألا نعود إلى تركيا في ذلك العام، ولكن سيفيم لم توافق، لرغبتها في رؤية والديها اللذين أصبحا عجوزين. فاقترحت أن تذهب هي

ومينة بمفردهما، وقد وافقت، وودعتهما بنفسي. كان من المقرر أن تبقيا في تركيا لأسبوعين فقط، ولكنهما مكثتا ثلاثة أسابيع. وقد أخبرتني على الهاتف أنّ والدتها مريضة، لذا فهي تودّ البقاء لفترة أطول، ولم أجد في الأمر ما يثير الشكوك، فعذرها منطقي جداً.

وبعد ثلاثة أسابيع ذهبت لاستقبالهما في المطار؛ كانت مينة قد اشتاقت إليّ كثيراً، وكان ذلك واضحاً على كل تصرفاتها، ولكنني لن أقول الشيء ذاته عن أمها. فقد كانت تعاملني ببرود واضح، وكأنّ تلك الأسابيع الثلاثة كانت كافية لمحو أربعة عشر عاماً قضيناها سوياً. حتى أنها باتت غريبة بالنسبة إليّ. ترى هل تعاقبني لأنني أبعدتها عن والديها؟ أم أنها ملّت زواجنا؟ شغلتني هذه الاحتمالات كثيراً، دون أن يخطر ببالي أنها قابلت حبّ صباها الذي تركها منذ سنوات طويلة، وأنّ المشاعر عادت للتأجج مجدداً. تحولت إلى شخص حاد الطباع، فكانت تصرخ على مينة دون أي مبرر، وتعاملني بجفاء واضح. في إحدى ليالي الصيف الدافئة تركنا مينة في المنزل وخرجنا نتمشى بمفردنا في الحديقة، كانت أعشابها قد جزّت للتو، وعبقت الأجواء بشذى نباتي يأسر اللبّ. أتذكر أنني نظرت إلى زوجتي بحب بالغ، وأنا أسألها بسذاجة:

– يا له من عبق شذي أليس كذلك؟

– أين الشذى؟ إنها مجرد رائحة عشب مجزوز. – رمتني بجواب أدركت معه أنها لم تحبني مطلقاً، ولن تفعل في أي وقت. وأنها لم تتزوجني وتنجب مينة سوى لأنها كانت مجبرة، ولو كان الأمر بيدها لما رضيت بي. وقد حدث معها أمر ما أثناء زيارتها الأخيرة لتركيا، جعلها تدرك هذه الحقيقة بصورة أكبر، ولكن لا أنا واجهتها بالأمر، ولا هي امتلكت الجرأة الكافية لتصارحني. وكنت بحاجة إلى شهر إضافي لأدراك ما حصل بالفعل.

كنا نقطن نحن وأكرم وعائلته في العمارة ذاتها، وفي إحدى الليالي

استيقظت على الصراخ والعويل القادم من منزلهم. كان أكرم يتشاجر مع زوجته، ولكنه كان شجاراً مخيفاً، فصوت تهشيم الزجاج، وصراخاته شاتماً لاعناً كانت تصل حتى آخر الحي. ارتديت ثيابي بسرعة، وتوجهت إليهم، حيث فتح لي ابنهم الصغير علي الباب، وقد جحظت عيناه هلعاً وهو يصرخ: «أرجوك عم متين أنجدنا، فأبي ينوي قتل أمي..».

حين دخلت وجدت أكرم وقد ألقى بزوجته أرضاً، وهو يضربها بكل ما أوتي من قوة.

– على رسلك يا مجنون، ستقتلها.

– فلتمت، أليس أفضل من خداع زوجها. – كان يصرخ حانقاً، ويحاول دفعي وهو يواصل كيل الركلات والضربات لزوجته.

– أقسم لك يا متين أن لا علاقة لي بالأمر.. – كانت المسكينة تتوسلني باكية، ثم تلتفت نحو أكرم وهي ترجوه – فليمت ابني للتو إن كانت تلك الرسالة لي.

– فلتموتي أنت بدل ابنك يا سافلة، أسمعت ما الذي تقول عن ابننا؟

بالكاد تمكنت من تسكين أكرم، وأقنعته بأن يأتي معي. حين دخلنا منزلي وقعت نظراتي على سيفيم التي بدت شاحبة جداً، ويداها ترتعدان، ففسرت الأمر بتأثرها لما حصل لهوليا، لأنها كانت صديقتها.

– هيا، اذهبي أنت إلى هوليا. – وأرسلتها إلى منزل صديقي.

وما إن ذهبت حتى بدأ أكرم بالتذمر محتداً.

– أي بلاء ابتليت به؟ لم يكن ينقصني سوى لقب المغفل «ذي

القرنين»[9].

– على رسلك يا رجل، قد تكون مخطئاً.

– لقد وجدت رسالة.

– وهل كُتبت لهوليا؟

– كانت في درج ملابسها.

– أيعقل أمر كهذا؟ فأنت لم تعرف بعد لمن أرسلت الرسالة.

– إنها تبدأ بحبيبتي، فما الذي تريده أكثر؟

– فليسامحك الله يا رجل، قد تكون لأحد آخر. وهل ورد فيها اسم المرسل؟

– شخص يدعى جيهون أورِن، أرسلها من إسطنبول.

بدا الاسم مألوفاً، ولكنني لم أدقّق كثيراً، فكل ما كان يهمني هو تهدئة أكرم.

– إن كانت مرسلة لأحد آخر، فما الذي أتى بها إلى منزلنا؟

– يا رجل، قد تكون لإحدى بنات الجيران، فهوليا قلبها طيب كما تعرف، وقد تكون الفتاة أقنعتها بإخفاء الرسالة خوفاً من ذويها..

صوّب إليّ نظراته مفكراً، فقد بدت كلماتي مقنعة بعض الشيء.

– ومن تكون هذه الفتاة؟

– هدئ من روعك، حتى نسأل ونعرف من تكون.

في تلك الليلة نام أكرم في منزلي، وسيفيم في منزله. ولم نفتح الموضوع سوى على عشاء اليوم التالي. حيث حدثتني سيفيم عن شابة تركية تقطن مع عائلتها، وقد طلبت من هوليا إخفاء الرسالة عندها، تماماً كما أخبرت أكرم البارحة.

— إذاً فقد تلقت المسكينة كل ذلك الضرب دون مبرر. ولكن لماذا لم يذكر المرسل اسم الفتاة أيضاً في الرسالة؟ — تساءلت بأسف.

تدخلت مينة التي كانت تتابع محادثتنا منذ البداية بالقول:

— ولكنه كان يحاول حماية الفتاة يا بابا.

— ولكنه لم يتورع عن ذكر اسمه، حيث وقع الرسالة باسم جيهون.

وما إن سمعت الاسم حتى هتفت قائلة، دون أن تعي الزلّة التي وقعت فيها:

— آه ماما، إنه نفس اسم صديقك من أيام الثانوية، والذي استقبلنا في المطار حين ذهبنا إلى تركيا حيث... ولكنها سكتت في منتصف جملتها، ربما لاكتشافها الحقيقة وما ستجلبه من عواقب، وربما لصدمتها مثلي بعد أن أدركت ما يجري. كنت أول من تمالك نفسه، حيث أكملت طعامي بهدوء وكأنّ شيئاً لم يكن.

— سلمت يداك سيفيم، الطعام شهي جديد. — قلت دون أن أنظر إلى وجهها.

لم تجب بشيء، وظلت نظرات الاثنتين معلقة عليّ في وجل، بينما واصلت تناول عشاءي دون أن أبالي. وحين شاهدت مينة هدوئي شعرت بالراحة، لكن سيفيم ظلت مترقبة. كانت تدرك أنني اكتشفت كل شيء، وما يخيفها أكثر

كان صمتي. فقد كانت تتوقع أن أضربها بل وحتى أن أقوم بقتلها. وفي الحقيقة، لن أدّعي أنه لم يخطر لي طرحها أرضاً، وضربها حتى الإنهاك والتشفي، ولكن كان هناك ما يمنعني، فقد كان صوت ما بداخلي يقول إنني أستحق هذا المصير، لأنني لست مناسباً لامرأة بهذا الجمال. ولم تكن بي طاقة على معارضة هذا الصوت، فقد كنت أشعر بنفسي رازحاً تحت عبء لا أحتمله، حتى أنني بالكاد كنت أستطيع التنفس. لا أدري كيف تمكنت من إتمام العشاء، والخروج إلى الشارع بحجة تدخين سيجارة. مع كل خطوة جديدة، كانت الأفكار تثقل كاهلي أكثر، كنت أتجول على غير هدى، لا أدري ما عليّ فعله، فتذكرت أنني أخبرتهما بخروجي للتدخين، لذا اتصلت من حانة صاحبها تركي، وادعيت بأنني التقيت بأحد الأصدقاء.

– لا تتأخر. – هذا ما قالته سيفيم.

كان في صوتها رقة لم أسمعها من قبل. فشعرت أنها خجلة ونادمة، لكن عقدة ما بدأت بالتصاعد في حلقي، وبالكاد استطعت الجلوس إلى إحدى الطاولات، وأخذت في البكاء بحرقة وصخب. لمست يد ما كتفي، وحين رفعت رأسي وجدته أحد الألمان السكارى، كان يقف بجانبي. نظرت إليه بحنق لتدخله، ولكنه كان ثملاً لدرجة لم تخوله تخمين غضبي، بل كان يدمدم مترنحاً بشيء ما وهو يمدّ لي المنديل. كان مظهره يوحي بالحزن أكثر من السخرية، أخذت منه المنديل، فيما تهاوى على كرسي بجانبي. كان يهز رأسه، ويكرر كلماته ذاتها. إلا أنّ ثمالته تحول دون خروج الكلمات بصورة واضحة، وبعد برهة استطعت فهم ما يقوله. «الحياة أسخف من أن تستحق البكاء بسببها» قلت له إنه محق، وعانقته لأواصل النواح.

عندما عدت إلى المنزل بعد منتصف الليل كانت سيفيم تنتظرني، ولكن مينة لم تكن هناك، فأدركت أنها خلدت للنوم. وما إن دخلت حتى اقتربت مني سيفيم، لكنني لم أكن راغباً في النظر إلى وجهها؛ ليس لاحتقاري لها، فقط لم أشأ

مكتبة

رؤيتها. لكنها اقتربت وأمسكت بيدي.

– أعتذر، لم أرغب أن يحصل الأمر بهذه الطريقة.

لم أقل شيئاً، وأنا أحاول الابتعاد عنها، ولكنها لم تتركني، بل لفت ذراعيها حول عنقي وأخذت في البكاء. فاحترت فيما عليّ فعله. ولم أعرف من منا يستحق الشفقة أكثر. وبعد مدة من نشيجها مسحتُ دموعها بيدي، ولم يخطر ببالي شيء سوى قول: «الحياة أسخف من أن تستحق البكاء بسببها».

كان هذا ما يحصل على الدوام، ففي كل مرة نتشاجر فيها، كانت لا تستطيع كبح دموعها التي أمسحها لها بيدي، ومن ثم نمارس الحب بقوة وعنفوان. لكنني لم أكن راغباً في الاقتراب منها تلك الليلة. كما أنني لم أكن واثقاً إن كانت هي راغبة في شيء مماثل. كنت واثقاً بأنها ليست مجرد نزوة مع عشيقها القديم. لو أنها كانت نزوة حقاً، فلن أخفيك أنني كنت سأتجاوز الموضوع من أجل سعادة أسرتي، لكنني كنت واثقاً أنّ دموعها ليست ندماً بل تأنيب وشفقة عليّ، فهناك زوجها الذي ظلّ طوال أربعة عشر عاماً يعاملها بحب لا ينضب، ويلبي كل ما تبتغيه، دون أن تحبه بالمقابل. وعلى الجهة أخرى كان يقف حبيبها الذي تركها في وضع مزرٍ منذ أربعة عشر عاماً، والذي ظلت تحبه بجنون كل هذه السنوات. كانت عالقة في حيرتها بيننا نحن الاثنين، وربما اتخذت قرارها منذ اللحظة التي عادت لرؤية جيهون مجدداً، أو حتى قبل ذلك، ولكنها كانت مترددة في مصارحتي. حب دام لأربعة عشر عاماً؛ أدركت أنني لن أتغلب عليه بعد الآن، طالما لم أحقق ذلك خلال كل الوقت الذي مضى، سوى بقتل سيفيم، إلا أنني لست سيئاً لدرجة قتل أحدهم، خلا أنني لا أملك الجرأة الكافية. وكان أفضل الخيارات ترك الأمر لها، دون مزيد من الإطالة والمعاناة لنا كلينا. ولا داعي لأن أخبرك كم كان هذا القرار مؤلما بالنسبة إليّ. ولكنني رجل يؤمن بالأقدار، واقتنعت بأنّ هذا قدري.

تلك الليلة نمنا منفصلين، وبقيت أتقلب على جمر الأفكار حتى الصباح،

وبعد ذهاب مينة إلى مدرستها، أخبرت سيفيم بأنني قررت تطليقها، ورغم ثقتي بأنها سرّت لدى سماع هذه الكلمات، لكنها حرصت على إخفاء مشاعرها وهي تسمعني في صمت. وطلبت منها أن تأخذ مينة أيضاً معها، فالأم تحسن تربية الفتاة أكثر من الأب، وواصلت بأنني سأتكفل بمصاريفها، كما سأمنحهما مبلغاً كافياً حين الطلاق، وقد حافظت على صمتها، ولكن الخزي الذي كانت تتمرغ في أوحاله لم يكن خافياً عني، وبالطبع كان وضعها هذا يرضي غروري بعض الشيء. وهكذا نسيت مسؤوليتي اتجاه ابنتي، واقتنعت بأنني لن أستطيع العيش معها بعد الآن، فهي تشبه أمها كثيراً، وستذكرني بها كلما رأيتها، في الوقت الذي كنت بحاجة للهرب من كل ما يذكرني بسيفيم، وإبعاده عن حياتي.

لم تعلق مينة بشيء حين علمت بطلاقنا، ومن المحتمل أنها خمنت بحدوث شيء ما بعد المحادثة التي جرت الليلة الفائتة. دخلت غرفتها وأغلقت الباب، وبدأت بالعزف على الغيتار الذي أهديتها إياه في ذكرى ميلادها قبل عامين. ولكن حين أخبرتها أمها بأنهما عائدتان إلى تركيا، جنّ جنونها، وبدأت تصرخ بأنها لا تريد ترك مدرستها والابتعاد عن أصدقائها، وأخذت تكيل الاتهامات لأمها. فتركتهما تتشاجران، وأنا ممتن لما آل إليه الوضع وخرجت، وحين عدت جاءت مينة إليّ وهي تسألني:

– ما الذي سيحصل الآن بابا؟

– سننفصل يا ابنتي.

– وماذا عني؟

– من الأفضل لك البقاء مع والدتك حتى إنهاء الثانوية، ومن ثم ستعودين إلى ألمانيا للبدء بدراستك الجامعية. – ورغم أنّ كلماتي كانت مقنعة، إلا أنها لم تكن في الوضع الذي يسمح لها بإدراك الأمر. ولكن ما باليد من حيلة، فوالداها قد

قررا ما ستؤول إليه حياتها دون أخذ رأيها في عين الاعتبار. وبعد شهر من ذلك عادت مع والدتها إلى تركيا.

وتعلم ما حدث بعدها، فلم يتخل جيهون عن سيفيم هذه المرة، بل تزوجها وأنجبا طفلاً، ولم تعد مينة سوى شخص غريب في ذلك المنزل، وكانت تصرح في رسائلها عن مدى استيائها من الوضع. حينها فقط أدركت خطئي، فلو فكرت قليلاً في ابنتي قدر تفكيري في كرامتي التي أُهينت، لما أقدمت على التخلص منها.

دعوتها للمجيء إلى ألمانيا، ولكنها كانت قد دخلت الجامعة، وتنوي إنهاء دراستها، وقد علقت بالقول: «ربما سآتي إلى ألمانيا من أجل إكمال دراساتي العليا..» ولكنها طلبت مني زيادة مصروفها، لأنه يتوجب عليها مغادرة ذلك البيت، وقد تظنني موسوساً، لكنني منذ تلك اللحظة لم أمنع نفسي من التفكير في احتمال تحرش جيهون بابنتي. أرسلت لها النقود على الفور، لتغادر ذلك المنزل. كما قمت بشراء منزل في منطقة آتا كوي عله يكون ملاذي إن قررت العودة لاحقاً إلى تركيا، لأعيش فيه مع ابنتي. لكن مينة لم ترغب في الإقامة فيه لبعده عن جامعتها، وفضّلت البقاء في البيت الذي استأجرته في منطقة كورتولوش. وافقت على قرارها، ولكنني كنت قد تأخرت كثيراً على الاهتمام بابنتي.

– أنت تظلم نفسك.

– لا أظن ذلك، فلو تحملت مسؤوليتي كما يجب، لما تعرضت ابنتي لشيء من هذا القبيل.

– وكيف لك أن تعلم ما سيحصل. أياً يكن الأمر دعنا نعدْ لقصة جيهون، هل أشارت مينة في رسائلها أنه حاول التحرش بها؟

– لم تقل شيئاً صراحة، ولكنها كانت تكرر بأنها تكرهه كثيراً.

– ولما كانت تكرهه؟

– لأنه يتدخل في جميع شؤونها.

– ولكنها لا تعتبر أدلة كافية.

– لقد لمحته عدة مرات وهو يتلصص عليها من الباب.

– ما الذي تعنيه؟

– حين كانت تبدل ثيابها، تفهمُ ما أعنيه.

– إنها يعيشان في البيت ذاته، وقد تكون مجرد مصادفة، ومع ذلك سآخذ مخاوفك على محمل الجد.

– أرجوك سيد سِدات، أعلم أننا تعرفنا للتو، ولكن ليس هناك مَن أثق به سواك.

– لا تقلق، سأفعل كل ما بوسعي... وكأنها. – كدت أن أقول له «وكأنها ابنتي» ولكنني تمالكت نفسي وأنا أردف – وكأنها قضية تعنيني شخصياً. ولكن متى ستعود إلى ألمانيا؟

– للأسف هذا المساء. – يقولها حرجاً – فكما تعلم، الألمان يتقيدون بالأنظمة، وعليّ أن أتواجد على رأس عملي في المصنع لمدة يومين على الأقل قبل أن أتمكن من أخذ إجازة أخرى والعودة، كما أفكر في الذهاب إلى إيطاليا قبل عودتي، من أجل التحدث إلى سيلين صديقة مينة التي تقضي عطلتها عند عائلتها هناك.

لا يروقني اقتراحه على الإطلاق، فمن الممكن أن تطلعه سيلين على علاقتي بمينة، وحينها ستتعقد الأحداث، وتصبح كتلة صوف مبلولة يصعب فكّها.

– لا أظنك ستجني شيئاً – بدأت في محاولة إقناعه – لقد تحدثنا على الهاتف وأخبرتنا أنها لا تعرف شيئاً.

– ألن تكون المحادثة وجهاً لوجه أكثر فائدة؟

– ستجهد نفسك دون طائل، فلو كانت على علم بأي شيء، لكانت أخبرتنا به.

– يبدو أنني بالفعل لا أعلم ما يجب عليّ فعله، وابحث عن بصيص أملٍ في أي مكان.

– أرجو أن نعثر عليها في أسرع وقت ممكن، ونتجنب كل هذه المشقات. أعطني رقم هاتفك لكي أطلعك إن استجدّ أمر ما.

يدوّن رقمه على ظهر بطاقة، ويناولني إياها وهو يقول:

– تفضل، وأشكرك جزيل الشكر على كل ما تفعله.

– لا داعي للشكر، فهذا واجبي. – وأمدّ يدي مصافحاً، ولكن نعومة يديه تثير استغرابي، ألم يخبرني بأنه كان يعمل في المناجم؟

– لم تتقاعد بعد أليس كذلك؟

– لا، بقي لي عام آخر.

– لا بدّ أنّ العمل في المنجم شاق جداً.

– ما باليد حيلة، إنها لقمة العيش.

يومض بريق ما في عينيه فاتحتي اللون بينما يواصل حديثه، وللمرة الأولى أجد شبهاً بينه وبين ابنته. وأكتشف أنّ مينة قد ورثت رموشها الطويلة من هذا

الرجل.

الفصل الثامن

حين أصل الحجرة الصغيرة التي يمتزج الحديد والبلاستيك في بنائها مع حجارة جدران القصر الضخمة القديمة، والتي لا تزال تحافظ على متانتها ورسوخها رغم تعاقب السنين، يهنئني موظف الأمن بسلامتي. ورغم أنني لم أبادل هذا العجوز ذا الوجه الباش الحديث إلا مرات قليلة، لكن الابتسامات التي بالكاد تُلحظ والتحايا كانت كافية لتواصل صداقتنا الخفية. يسألني لماذا أستقل سيارة أجرة، فأجيبه أن زجاج سيارتي الفورد قد تهشم أثناء الاشتباك، لكنها ستكون جاهزة في الغد.

– لقد تعرضت لخطر كبير، ولكن الله أعانك. – يقولها متأسفاً، ويودعني باحترام صادق، دون أن ينسى تكرار عبارات التهنئة وتمنِّي الشفاء العاجل لي.

يعبق الهواء بعطر لطيف، فأشعر بأن جسدي ينتعش من جديد. وخلا الطريق الذي أمشي عليه، فقد غطى الثلج الحديقة برمتها. فيما العصافير تتقافز بين الأغصان التي تزينها ندف الثلج كدانتيل أبيض، صعوداً وهبوطاً دون أن أحدد أهي تبحث عن طعام، أم تتلذذ باللعب. أما الطريق الأسفلتي الممتد أمامي، فيبدو كنهر أسود وسط كل هذا البياض ليصب في مبنى الأمن.

يذكر شكل البناء مسدس الزوايا – الذي لم يُسمح بارتفاعه سوى ثلاثة طوابق، حتى لا يؤثر على مظهر القصر – بالخيم التركية القديمة. ولكن الزجاج العاكس الذي يغطيه، يضفي عليه جواً من الغرابة. ولن أدّعي بأنّ هذا التباين العمراني متناغم مع المشهد العام للمكان. ولكن لاتساع الحديقة، وسماكة الأسوار، لا يلحظ أحد سوانا هذه التوشيجة الغريبة. تعتبر هذه الحديقة تحفة حقيقية؛ فهنا

بنى السلطان سليم الثالث قصره الشهير، حيث أشجار الصنوبر الأحمر التي صفّت على طول الجدران تفصلها مسافات متساوية؛ وكأنها قيست بالمسطرة، وأشجار الكستناء التي تداخلت ظلالها الوارفة، والدلّب المئوية بجذوعها البيضاء، حولّت هذه الحديقة إلى جنة عدن سرية، وسط إسطنبول التي بدأت ترزح تحت وطأة الغزو الإسمنتي.

انتقلت قوات الأمن إلى هذا القصر في عهد نوزت باشا، وكان عبد الحميد الثاني المولع بالروايات البوليسية، يقرأ ترجماتها عن الإنكليزية والفرنسية في جنبات هذه الحديقة. ويقال إنّ نوزت باشا الذي كان هو أيضاً مولعاً بالروايات البوليسية، قام بنقل قوات الأمن إلى هذا القصر تحديداً، بعد ما علمه عن شغف عبد الحميد الثاني بها.

قبل بضع سنوات، وفي إحدى ليالي العمل المكثف، خرجنا أنا ويلدرم لنجلس على المقعد أسفل ظلال شجرة الكستناء المقابلة لنافورة الماء الصغيرة، لنعبّ دخان سيجارتينا، ونستمتع بنسيم الربيع الدافئ. وفيما نتأمل الطبيعة التي بدأت تنهض من رقادها متحمسة، أذكر أنني بدأت الحديث حينها بالقول:

– إن شئت الحق، فالجنود أكثر اهتماماً منا نحن المدنيين بالحديقة والخضرة، فحتى في أكثر المدن قحلاً، تجدهم يزرعون الأشجار التي تحافظ على خضرتها شتاءً.

ابتسم يلدرم وهو ينظر إليّ:

– أنت محق، ولكن لا يمكن تسليم إدارة قوى الأمن لهم، فقط من أجل هذا السبب.

ما إن تطأ قدماي مدخل البناء، حتى يقابلني زملائي بحفاوة بالغة، ومن يراني يخبر البقية، حتى يجتمع حولي كل من يحبني ومن لا يحبني. تتطاير فوق رأسي

عبارات التهنئة بسلامتي مختلطة بالإرشادات والنصائح لأكون أكثر حذراً. الكل يبدو صادقاً، حتى من لم أتوافق معهم يوماً، يصافحونني بكل ود. وإن استمر الحال أكثر، ربما ستدمع عيناي. بعد الرد شاكراً على عبارات التهنئة، وإشباع فضول زملائي حول كل التفاصيل، أحاول التهرب والابتعاد وأنا ألتفت نحو فضيلة – وهي إحدى الموظفات التي تثقل وجهها بالتبرج رغم جمالها – لأسألها عن مصطفى.

– عاد منذ نصف ساعة، أظنه في مكتبك الآن.

استغل الفرصة للتملّص من الحشد المحيط بي، وأنا أقول لهم بينما أصعد السلالم:

– لدينا عمل مهم أنا ومصطفى.

– سِدات.

يناديني صوت وأنا أصعد، ألتفت لأرى أورهان خلفي وهو يبتسم، ولكن قلقاً ما يلوح في نظراته.

– حمداً لله على سلامتك. – ويحتضنني. ودون أن يمنحني فرصة لشكره، يهمس في أذني – ما الذي يجري؟

– لم أفهم.

تجول نظراته القلقة يميناً ويساراً، وحين يرى انفضاض البقية يتأبط ذراعي، لنكمل الصعود سوية. ولا ينسى أن يضيف بصوت مسموع – من الجيد رؤيتك وقد تحسنت. – ويعود للهمس مجدداً – كل من وقع على بيان الاعتراض يتمّ استجوابهم مرة أخرى.

– هل أنت جاد؟

– أجل، وقد طلبوا مني تقريراً مكتوباً. ويقال إنّ الأوامر صدرت من السيد عصمت. أتعلم شيئاً حول الموضوع؟

– لا، فأنا أسمع بالخبر للتو منك.

– ألم يخبرونا أنه تمّ إغلاق ذلك الملف؟

– على رسلك، ربما أراد المستشار الجديد الاطلاع على تفاصيل القضية لا أكثر.

– الأمر لا يشبه مجرد الحصول على تفاصيل. فالمستشار الجديد مدني، ويبدو أنه ينوي التخلص من كل شخص ورد اسمه في البيان. من الواضح أنهم يخططون للإيقاع بنا.

– هدئ من روعك. – أقول له.

– كيف لك أن تكون مطمئناً إلى هذا الحدّ؟

– صحيح أنّ المستشار أصبح مدنياً، ولكن قوى الأمن «ستظل حليمة على عادتها القديمة». ولا يوجد سبب يدفعهم للقلق منا. أظنه مجرد تهديد مبطن، أو مخاوف أحدهم لا أكثر.

يحدق إليّ وكأنه يريد تصديق ما أقول.

– أرجو أن يكون الأمر كما تقول.

– إنه كذلك بالفعل، ولكن إن بقيت تجول من باب لآخر لتعلن لهم مخاوفك، فسيظنون بوجود معارضة حقيقية داخل قوى الأمن، وحينها سيتخلصون منا بكل تأكيد. كن هادئاً، وأجب على أسئلتهم إجابات مقبولة.

– وأنت كن حذراً، ولا تدع طيبتك تقودك نحن الغباء. ولا تنسى ما

حصل ليلدرم.

– حسناً، حسناً، لا تقلق، وشكراً على تحذيرك لي.

حين نصل إلى الطابق الذي يقع فيه مكتبي، يعود لرفع صوته وهو يحدثني:

– حمداً لله على سلامتك مرة أخرى. انتبه لصحتك. – ويبتعد.

أنا أحب أورهان، فقبل موت يلدرم كنا نعمل نحن الثلاثة سوياً. صحيح أنه جبان بعض الشيء، ولكنه صديق فائق الذكاء. وفي الحقيقة لن ألومه على مخاوفه، فحضرة العم قد بدأ يعيش الرواية التي ألفها بنفسه. فهو مقتنع أنّ خطف مينة ما هو إلا عملية تستهدف قوى الأمن. ولكن كيف لرجل تمتد خبرته لسنوات طويلة، أن يقتنع بنظرية كهذه دون وجود أي معطيات حقيقية؟ أدخل المكتب فيما تشغل هذه الأفكار ذهني فأرى مصطفى مستغرقاً في الأوراق المبعثرة على الطاولة التي يجلس إليها. يرتدي سترة سكرية أنيقة، فيما السوار الذهبي في معصمه يتحرك جيئة وذهاباً على الورقة التي يقرأها.

– ما الأخبار؟ – أقول له.

– أهذا أنت سيدي؟ – وينهض لدخولي – كنت أشاهد صور زملاء فخري في التنظيم. حيث لم يصلني هذا الملف البارحة.

أعلّق معطفي على المشجب، وآخذ الملف الذي يمده لي مصطفى.

– لقد أحسنت العمل، إذاً فصور كل الأعضاء موجودين هنا؟

– كل من مرّ اسمه على ملفات الشرطة، خلا من ليس لديه ملف سابق، حيث لن نتمكن من معرفته. ولكن التقرير يشير إلى أنّ معظم أعضاء التنظيم قد تفرقوا. وعدد من لم يتمّ ذكرهم في الملف يكاد أن يكون معدوماً.

– أرجو أن يكون الأمر كما تقول. – وأجلس خلف طاولتي.

وفيما أقرأ يظل مصطفى واقفاً.

– سأطلب كأساً من الشاي، أترغب في شرب كأس أيضاً؟

– حسناً، سيكون ذلك جيداً.

وفيما يخرج من الغرفة، أبدا بالتفرج على الصور. هناك ما يقارب مئتي صورة في هذا الملف، معظم أصحابها في منتصف العقد الثالث من العمر، كانوا طلبة جامعيين، ولا يوجد بينهم من أنهى دراسته. ومن بين سبعة وثلاثين شخصاً متوفياً منهم، لا يوجد سوى شخص واحد مات لأسباب طبيعية؛ وهو سرطان الدم. أما البقية، فقد قتل واحد وعشرون في اشتباكات مع رجال الشرطة، كما عجلت شروط السجن في وفاة الأربعة الباقين. أتجاوز صفحات الأموات، حيث البقية قد مكثوا في السجن ما متوسطه خمس سنوات. لا أجد صورة البائع الجوّال في الصفحة الأولى، فأنتقل بسرعة للثانية. هناك اثنتا عشرة صورة في كل صفحة. وأسفل كل صورة الاسم والنسبة، واسم الوالدين. أقلب الصفحة ليذهب الاثنا عشر، ويحلّ مكانهم آخرون. شبان يافعون يمكن أن يُقال عنهم أطفالٌ، وخلف عيونهم المقطبة، يكمن الخوف والحقد في نظراتهم المحدقة بنا. يا للبراءة التي تحيط بهم، يبدون كفتية غاضبين منعهم آباؤهم من الخروج، ولا يمكن إقناع أحد أنهم إرهابيون. ورغم أن بعضهم لم يحملوا سلاحاً بأيديهم، لكن معظمهم إما قتلة عناصر من الشرطة، وإما ممن سطوا على البنوك. أتأكد مرة أخرى كم من الممكن أن يكون المعتقد سلاحاً فتاكاً، ولا أتمالك نفسي من الأسف على هذه العقول الفتية، والطاقات الشابة الجامحة؛ والتي لو تمّ توجيهها الوجهة الصحيحة، لكان حال البلاد الآن مختلفاً تماماً. يشتت صوت الباب أفكاري، حيث يدخل مصطفى ومعه كأسان من الشاي.

– لم أجد رضا، فأحضرتهما بنفسي. – ويبادرني بابتسامة.

– شكراً لك. – وأتناول الكأس التي يمدها نحوي.

أرتشف رشفة، ثم أشعل سيجارة وأعود لتفحص الملف. في الصفحة الأخيرة، وُضعت صورتا فخري وسنان جنباً إلى جنب. هناك ظلال عميقة تخيم على نظرات فخري؛ يختلط فيها الغضب باليأس. على عكس سنان الذي يبدو هادئاً، يلوح في عينيه بريق غريب، بل وكأنه يكاد يبتسم. ولكنني لم أعثر على صورة البائع الذي أبحث عنه، وحين أنتهي من الصفحة الأخيرة، يصلنا صوت طرق على الباب، فينظر كلانا نحوه معاً. يدخل عمي وسط دهشتنا. وفيما نحاول الوقوف احتراماً، يشير لنا بيديه قائلاً:

– لا عليكم، اجلسا.

يخطو بضع خطوات إلى وسط الغرفة، بحيث يقع كلانا تحت نطاق نظراته.

– أهلاً بك. – يقولها وهو ينظر إليّ – كيف العمل؟

– جيد.

– فليكن جيداً على الدوام. كنت أتحدث مع المستشار البارحة، وطلب مني أن أبلغك تهنئته لك بسلامتك.

– أشكره على ذلك.

– ولكن سبب مجيئي ليس فقط إيصال التهاني، أتذكرون المداهمة التي قمنا بها قبل بضعة أسابيع، على أحد المنازل في منطقة أوسكودار10، وقتل خلالها ثلاثة إرهابيين.

– تعني العملية التي قام بها ناجي، فيما توليت ومصطفى مهمة المراقبة؟

– أجل تلك. ظهرت بعض التقولات في الإعلام عن كون العملية تصفية دون محاكمة، وليست مداهمة عادية، وقد تمّ مناقشة الأمر في البرلمان، وستقوم وزارة الداخلية بفتح تحقيق حول القضية. وهم يريدون منا تقريراً حول ما جرى.

– ولكننا بقينا في الخارج أثناء الاشتباك. – أجبته.

– أعلم، كما أنه لا يوجد اتهام موجّه إليكم. إنهم يستجوبون ناجي، تعرفه أليس كذلك؟

– كنت أسبقه بسنة دراسية في الكلية.

– إذاً فهو جامعي، غريب! كنت أظنه مجرد متطوع.

أيحاول أن يسمعني شيئاً، أم أنّه يعبّر عما يجول في ذهنه حقاً؟ هذا ما لا أعلمه.

– لا أظنه مطلعاً على أمر الاستجواب بعد، فقد تحدثنا البارحة مساء، وكان يبدو رائق المزاج.

– سيعلم به اليوم أو غداً، أياً يكن الأمر لا تخبره بشيء، لا نريد أن يتسرب الموضوع من عندنا.

– هل يعني أنه سيتعرّض للمتاعب؟

– لا أظن، فكل المقتولين من الإرهابيين، ومعظمهم قتلةُ عناصر من الشرطة، كما أنّ تقريركم حول الموضوع سيفيد كثيراً.

– بحسب ما أرى فلم يكن هناك أمر مخالف للقانون، أليس كذلك مصطفى؟

يبدو مصطفى قلقاً بعض الشيء.

– أجل إنه كذلك سيدي. فقد مكثنا في الخارج حينها، وقد أطلقت النار بنفسك على الفارين، حيث أصيب أحدهما، وقد قُتل الآخر في الاشتباك الذي تلا الحادثة بيومين. أما المصاب فلم يتمّ إلقاء القبض عليه، هذا كل ما نعرفه.

– إذاً ما من مشكلة. – يقولها عمي وهو يتجه إلى الباب – أنا في انتظار تقريركم.

– سيصلك خلال يومين.

– كما أنني تحدثت مع بعض المسؤولين في الشرطة، ولم يتمّ ذكر اسمك في قضية الفتاة المفقودة.

– إنه خبر جيد، شكراً لك. – أقول.

– إلى اللقاء. – يقولها وهو يخرج من الغرفة.

أمر غريب. فليس من عادته القدوم إلى مكتبي للتحدث في أمور العمل، فعادة ما تتم المناقشة في مكتبه. قد يكون مجيئه نوعاً من التحذير، ورسالة يخبرني فيها بتوخي الحذر، فلست شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه، بل هناك المئات من أمثال مصطفى ممن سيحلون مكاني. كما أنه يريد أن يقول لمصطفى من هو الآمر الحقيقي هنا. فهو لا يرغب في إثارة أي مشاكل، إن حاول تأليب مصطفى عليّ مستقبلاً.

– لا أقول ذلك لأنه عمك، ولكن السيد عصمت إنسان جيد بالفعل. – يعود صوت مصطفى ليشتت لمّ أفكاري.

– أجل هو كذلك. وستحبه أكثر إن تعرّفت إليه أكثر. – يشكك

مصطفى في كلماتي، بعد السخرية التي يلمحها في صوتي، ويدقق النظر إلى وجهي عله يفهم، ولكن الهاتف يرنّ، فأتجه نحو السماعة مسرعاً. ترى من؟ أيكون ناجي؟

– ألو تفضل.

– مرحباً سيدي، هل السيد سِدات موجود؟

أعرفها من اللكنة التي في كلامها؛ إنها المدام إيلين.

– تفضّلي مدام، أنا سِدات.

– من الجيد أنك أجبت، لقد حدث أمر مهم.

– خيراً؟ أهناك أخبار عن مينة؟

– الأمر مهم، ولا يمكنني التحدث على الهاتف.

– حسناً، أنا قادم على الفور.

أغلق السماعة لتواجهني نظرات مصطفى المستفسرة.

– لم تخبرني بما جرى، ولكنها تقول إن الأمر مهم.

– هل آتي معك؟

– بقاؤك هنا أفضل، فأنا أنتظر مكالمة من ناجي.

أدوّن هاتف المدام على ورقة، لأعطيه له.

– سأكون هناك، إن حصل أمر عاجل، اتصل بي على هذا الرقم. أعطني مفاتيح السيارة.

يبدو الاستياء واضحاً عليه لأنني لن أصطحبه. يعتقدني لا أثق به، وهو

ليس مخطئاً في ظنونه. رغم أنه ومنذ لحظات كان يشعر بأنه واحد من العائلة حين بدا وكأننا نحن الثلاثة؛ أنا وعمي وهو نشكّل فريقاً رائعاً.

يخرج المفاتيح من جيبه ويمدها إليّ وهو يقول:

– كُنْ حذراً من المكابح سيدي، فهي تتعطل بين الحين والآخر.

– شكراً لتحذيرك.

يحاول أن يخفي استياءه، ولكنه واضح. لذا يجب عليّ كسب وده سريعاً، وعدم دفعه نحو شباك عمي.

الفصل التاسع

قبل أن أطرق باب المدام، تتجه أنظاري من خلال الفراغ بين الدرابزين نحو شقة مينة، حيث هذا الفراغ يستمر حتى السقف. أشعر لوهلة بعبور ظلّ ما لهذا الفراغ. أصيخ السمع، لا صوت على الإطلاق، ومع ذلك أصعد بضع درجات. وفي الزاوية التي تلتف فيها السلالم يظهر رأس فان غوغ الأشقر. يموء بصوت ناعم، وبعد أن يرمقني للحظات بعينيه الخضراوين، يقبل نحوي ويلتف حول قدمي. أنحني لأمسّد ظهره، لكنه يهرب. يبدو قلقاً من شيء ما. وبعد خطوات عدة يلتفت نحوي ويموء وكأنه يسألني: «لِمَ الباب مغلق؟ وأين هي مينة؟». ولكنني لا أملك شيئاً سوى النظر إليه في عجز تام. أقترب منه مرة أخرى، فيبتعد متسلقاً السلالم، ليختفي فجأة كما ظهر. حتى لو لحقت به، فما الفائدة؟

أعود أدراجي وأضغط على الجرس، وبعد الرنة الثانية يُفتح الباب. وفيما أتوقع رؤية وجه المدام القلق، تقابلني نظرات شاب ذي وجه ملتح قذر، وسحنة متجهمة، تساقط معظم شعره. من يكون هذا أيضاً؟ وبعد أن يتفحصني بنظراته ويقيسني وفق مقادير الطمأنينة في ذهنه، تلين ملامحه.

– السيد سِدات؟ – يسألني.

– أجل، المدام إيلين ليست موجودة؟

– أستميحك عذراً سِدات آبي. – يقولها دون تكلف، وكأنه يعرفني منذ سنوات – لم أتعرف عليك بسبب لباسك المدني، تفضل آبي. تفضل بالدخول.

لا يبدو أنه يتصنع، ولكنه ليس بالأمر الغريب، فهؤلاء الأشخاص يحرصون

مكتبة

على التقرب من أفراد الشرطة.

– أين المدام؟ – أسأل وأنا أخطو نحو الداخل، دون أن أوليه الكثير من الاهتمام.

– في الداخل، لقد أصاب المسكينة خوف بالغ. – ويغلق الباب.

– لماذا؟ ما الذي حصل؟

– كانوا سيخطفون ابنتها.

أقف على الفور، وألتفت نحوه.

– ماريا؟

– أجل ماريا، وقد وقع الحادث أمام ناظري.

– وهل أصابها مكروه؟

– لا، حمداً لله. وهل كنا سنترك هؤلاء الغجر يخطفون ابنة حينا؟

– الغجر؟ وهل تعرفهم؟

تبدو عليه بعض الخشية من أسئلتي، ومن ثم يميل برأسه جانبه ويرفع كتفيه وهو يقول:

– وكيف لي أن أعرفهم آبي؟

– إذاً ما الذي دفعك للاعتقاد أنّ من حاول خطفها هم الغجر؟

– حين تبدو معالم القرية، فلا تحتاج إلى من يرشدك إليها. دولاب ديري في محاذاتنا، وفي كل يوم نسمع عن مشاكل ساكنيها من الغجر؛ بيع المخدرات،

السرقة، خطف الأطفال الصغار لتشغيلهم في التسول. من سواهم سيفعل ذلك.

يتوقف عن الحديث مع صوت المدام الآتي من الصالون:

– بني يا شرف، من القادم؟

يجيبها شرف بصوت عالٍ:

– إنه سِدات آبى يا مدام.

أتجه نحو الصالون لأسمع القصة من المدام أيضاً، فيلحق بي شرف، حيث تلاقيني المدام أمام الباب.

– آه يا سيد سِدات، لو تدري بما حصل معنا.

– حمداً على سلامتكم مدام. حسناً لا تقلقي، فأنتم بأمان الآن.

من الواضح أنّ أمراً على قدر كبير من الأهمية قد حصل، ورغم ذلك تظل محافظة على لباقتها وهي تقول:

– شكراً جزيلاً، فقد أتيت على وجه السرعة. وأعتذر لأنني لم أتمكن من استقبالك بنفسي، ما زلت تحت وقع الصدمة.

– لقد حدثني شرف عن بعض ما حصل.

– آه، لولا وجوده لكان مصير ماريا أيضاً كمصير مينة.

تنتابني الحيرة للحظات، ما الذي تتحدث عنه هذه المرأة؟ تتجه نظراتي نحو شرف، فأراه هادئاً، تبرق عيناه بفخر من أنجز مهمة صعبة.

– لكانت ابنتي الآن بين يدي أولئك القتلة الجناة. – تكرر مفجوعة.

من الصعب فهم ما جرى من خلال جمل المدام المتقطعة. يهبّ شرف لنجدتي، ويلتفت نحو المدام بثقة من يعرف التصرف في مواقف مماثلة وهو يقول:

– هدئي من روعك قليلاً يا مدام، وليتفضل سِدات آبى بالجلوس أيضاً، ومن ثم أخبريه بما جرى.

– آه، أنا آسفة بالفعل. – تقول المدام محرجة – لقد أودى الخوف بعقلي، ولا أعرف ما يجب عليّ فعله، لو سمحت تفضل بالجلوس، واخلع معطفك حتى لا تمرض.

أخلع المعطف وأضعه على الأريكة التي بجواري، ثم أجلس على الأريكة المواجهة لكرسيها المتحرك. ويأتي شرف للجلوس بالقرب مني، وكأنه صديق العمر بل وأعز.

– سأروي لك الأحداث من البداية – تقولها المدام، وقد خيّمت ظلال الخوف على أعماق عينيها، فيما ترتعش يداها المسنتان النحيلتان، كورقتي خريف على وشك السقوط – السيدة حسيبة مدبرة المنزل ليست هنا، ولن تأتي قبل عشرين يوماً، بسبب ولادة ابنتها. لذا اضطررت أن أرسل ماريا مرة أخرى للتسوّق. حتى أنني كلفت المسكينة بتنظيف الأدراج قبل بضعة أيام، وفي الحقيقة هي تحب القيام بهذه الأعمال، فرغم أنني لم أرَ الدرج السفلي، ولكن بريق النظافة كان يشع من مدخل المنزل. أياً يكن الأمر، فقد قمت بإرسالها إلى البقال، بعد أن نبهتها مراراً وتكراراً أن تعود باكراً. ولكنها خرجت ولم تعد، فعصف بي الخوف، واتجهت نحو النافذة أرقب مجيئها. وحين رأيتها قادمة مع شرف، زال عني القلق، ولكنني خمنت حدوث أمر ما وأنا أراهما سوياً. اعتقدت أنها أضاعت النقود، أو نسيت كعادتها ما يجب عليها إحضاره. ولكن لم يخطر لي مطلقاً أنها تعرضت لمحاولة خطف، حبيبتي الغالية المسكينة.

لم تعد قادرة على مواصلة الحديث فبدأت بالنشيج والبكاء، ويتصرف شرف أسرع مني، وهو يواسيها:

– لا عليك مدام، لقد مرّ الأمر على خير. ولن يجرؤ أولئك المجرمون على الاقتراب من الحي مجدداً.

تخرج المدام منديلاً من تحت الوسادة التي تجلس عليها، وتمسح عينيها.

– أعتذر. – وتلتفت نحوي – فحين يخطر لي ما كان سيحصل لها، أكاد أصاب بالجنون.

– لا تقلقي، لن يحصل أي سوء لماريا بعد الآن، ولكن أين هي؟ – أسألها.

تشير بيدها نحو غرفة ما:

– إنها في الداخل، ومن الأفضل ألا تسمع حديثنا.

– إن شئتِ دعيني أكمل ما جرى – يتدخل شرف – فأنا من شهد الحادث.

ولكن المدام لا تترك له فرصة الحديث.

– آه يا بني، لو لم تكن هناك، فمن يدري ما كان ليحصل؟

يبدأ شرف بالتفاخر، مظهراً التواضع وهو يردّ عليها:

– أي شخص مكاني، كان ليتصرف على هذا النحو يا مدام، إنه واجب إنساني، ولهذه الجيرة الطويلة حقها علينا.

– لا لا. لن أتمكن من ردّ معروفك مطلقاً.

ومع مبالغات المدام ومدائحها، يسترخي شرف على الأريكة أكثر، وترتسم على وجهه ابتسامة غبية. أما أنا فأنتظر متحرقاً انتهاء سلسلة المدائح المتبادلة، لمعرفة ما جرى. وحين يرى شرف نظرة الضيق الواضحة في عيني يلملم نفسه بعض الشيء.

– أظننا يجب أن نسرد على سِدات آبي ما جرى، فهو متلهف لمعرفة الأمر، ومن ثم سأعود إلى دكان المرحوم حموي لمواصلة العمل. لا بدّ أنك تعرف موقعه، إنه في أول الزقاق.

– في أول الزقاق؟

– معك حق ألا تتذكر، فأنا أمارس مهنة البقالة والسمسرة معاً، وبسبب اللوحات الإعلانية المعلقة على واجهة الدكان، عن البيوت المعروضة للإيجار والبيع، فقد ظننت المحل مكتباً عقارياً.

أبتسم، فهو محق، لقد ظننته مكتباً للسمسرة.

– كان الدكان يعمل جيداً على زمن عمي، ولكن بعد ظهور مراكز التسوق والمتاجر الكبيرة، بات الناس يتبضعون من هناك، وأخذت أقوم ببعض أعمال السمسرة مجبراً، إلى جانب البقالة. أياً يكن الأمر، فقد وُلِدت ونشأت في هذه المنطقة، ولا يوجد فيها من لا أعرفه. حتى أني رأيتك هنا بضع مرات، وأعتذر منك، لكنني حصلت على بعض المعلومات عنك من المدام.

أيلمح إلى شيء ما؟ وفيما أفكر في مغزى كلماته، تعود المدام التي جففت عينيها مرة أخرى إلى الحديث:

– أجل لقد حدثته عنك، وعن ابنة أخيك مينة.

ابنة أخي؟ من أين جاءت بهذا الكلام؟ أتظن أنّ مينة هي ابنة أخي حقاً؟

أم أنها لفّقت الأمر حتى تمنع تردد الأقاويل في الحي؟ شيء غريب!

يواصل شرف سرد الأحداث.

– لقد أخبرتني المدام بما جرى، وشعرت بأسف شديد على اختفاء الآنسة مينة. لقد رأيتها آخر مرة منذ حوالي عشرين يوماً حين كانت عائدة إلى المنزل، كانت الساعة حوالي التاسعة مساءً. وقد جاءت بسيارة أجرة، حيث كان برفقتها شاب.

لا بدّ أنّ الأمر وقع قبل اختفائها بعدة أيام، والشاب الذي كان برفقتها هو فخري.

– الشاب لم يتحرك من السيارة، فيما توجهت الآنسة مينة نحو المنزل مشياً. فكما ترى يا آبى، أنا ملمٌّ بكل شاردة وواردة في الحي. وحين أرى أحد الغرباء أميزه على الفور. وأشتم رائحة المشاكل قبل وقوعها. كان الوقت ظهراً حين مرت سيارة بيضاء موديل شاهين أمام الدكان. لا غريب في الأمر، فالشارع للجميع تمر فيه الشاهين، والمرسيدس، وخلافه. ولكن بعد قليل أجد السيارة ذاتها تسير في الاتجاه المعاكس. لم أقف عند الأمر كثيراً، فربما يبحثون عن عنوان ما، أو دخلوا في زقاق مسدود. لم أكد أنهِ التفكير، حتى رأيتها تعود مجدداً. فقلت لنفسي يا ولد، لا بدّ أنّ وراء الأكمة ما ورائها. ولا تسئ فهمي سِدات آبى، فنحن لسنا من أصحاب المشاكل، بل اعتدنا كسب قوتنا بعرق جبيننا، ولكن مرور السيارة المتكرر بعث الشكوك في نفسي. كما أنّ الشارع كان مقفراً حينها، فخفت أن يكونوا لصوصاً ينوون السطو على الدكان لا سمح الله.

خرجت لأرى السيارة تنعطف رويداً رويداً نحو نهاية الشارع، فأحسست أنني هوّلت الأمر دون مبرر، وعدت إلى الدكان لمواصلة عملي. كان عليّ التوجه ظهراً إلى مكتب المختار من أجل تصديق نسخة عن سجل النفوس العائلي. فتركت

شقيقي الأصغر في الدكان، وخرجت إلى الشارع ليفاجئني مشهد مريب، كانت السيارة ذاتها قد توقفت في الزاوية، وبداخلها ثلاثة أشخاص يدخنون ويتحدثون. وقد لاحظوا أنني أراقبهم، ولكنهم تغافلوا عني حتى لا يلفتوا الأنظار. لم أخدع بالطبع، ولكن خطر لي في تلك اللحظات خاطر آخر. ماذا لو كانوا من الشرطة؟ ألا يعقل؟ وأنت أعلم مني بهذه الأمور حين مراقبة شخص ما، للقبض عليه متلبساً، حيث يرتدون الثياب المدنية وما إلى ذلك. وقد انتقل مؤخراً للحي ثلاثة من الشاذين، وهؤلاء لا يجلبون سوى الرذيلة والمشاكل والقذارات. حاولت إقناع الجيران بضربهم وطردهم من الحي لكن لم يصغ إليّ أحد، بل اكتفوا بتقديم اعتراض للشرطة، وخطر لي أن الشرطة تتابع الموضوع، وقد جاءت لإلقاء القبض عليهم، ولن أخفيك أنّ هذه الفكرة قد جعلتني أشعر بالراحة. ورغم ذلك أسرعت في السير، ووصلت إلى المختار بأقصى ما يمكن. وكالمعتاد، فمختارنا العم عاكف لم يكن في مكتبه. ولم يكن ابنه الأبله يعلم متى سيعود والده، فاضطررت لشرح الأمر له والعودة سريعاً إلى الدكان.

حين عودتي صدمني ما رأيت، فقد غيروا اتجاه السيارة، حيث كانت قادمة من أول الزقاق الذي يقع فيه منزل المدام، وتسير ببطء نحو دكاني، فيما الثلاثة يتحدثون إلى أحد ما يسير على الرصيف المحاذي لهم، وحين دققت النظر اكتشفت أنها ماريا. حينها أصابني ذعر شديد، فهؤلاء ليسوا رجال شرطة، ومن الممكن أن تكون ماريا الآن في خطر كبير. دخلت الدكان على الفور، وأحضرت سكين تقطيع الخبز، وانطلقت نحو الشارع مسرعاً، حيث لم يكن الرجال قد لاحظوني بعد. كان اثنان منهما يجلسان في المقدمة، أما الآخر الذي في الخلف فكان يحدث ماريا، ومن حركة يديه، أدركت أنه يدعوها لركوب السيارة، ولكنها لم تكن خائفة رغم ذلك، فالمسكينة لم تكن تدرك ما الذي يجري بالضبط.

في تلك الأثناء اقتربت منها السيارة كثيراً، وأخذ الرجل في الخلف يجرها نحو السيارة بعد أن أمسك بيدها. وقد ضايقها هذا التصرف، فحاولت سحب

يدها، فيما يحاول هو الإمساك بها بقوة أكبر. ولكن كما تعلم فماريا فتاة قوية البنيان، حيث استطاعت إخراجه من السيارة حتى جذعه، ولم يكن من بدّ سوى ترك يدها، وقد كشرّ عن ملامحه ألماً. وعلى إثر ذلك توقفت السيارة، ونزل الرجل من الأمام مصمماً على أخذها معهم عنوة، وهنا كنت قد وصلت، لوّحت بالسكين وأنا أصرخ «أيها الأوغاد، ما الذي تريدونه من هذه الفتاة»، تردد الرجل للحظات، ومن ثم عاد إلى السيارة، وأغلق الباب بشدة، وهو يقول شيئاً للسائق الذي رأيت شفتيه تتحركان، أغلب الظن أنه كان يشتمني. وبدوري لم أقصر في الشتم صارخاً وأنا أسرع نحوهم. ولم يكن يفصلني عن السيارة سوى مترين أو ثلاثة، حين صدرت ضجة صاخبة من محركها، وبدأت بالتقدم نحوي. وأحمد الله أنني كنت في طرف الشارع، فقفزت إلى الرصيف على الفور، حيث بللتني برذاذ الماء والثلج المتطاير من تحت عجلاتها المسرعة وهي تبتعد. وقد حاولت اللحاق بهم، ولكن دون طائل.

– هل استطعت حفظ رقم لوحة السيارة؟ – أسأله.

يبتسم بمكر وهو ينظر إليّ قائلاً:

– إنك تحط من قدري سِدات آبى، لقد سجلت الرقم منذ مرورها الثاني في الحي. (kz 34 763). وحين ابتعدوا ذهبت إلى ماريا التي خافت كثيراً عندما رأت السكين في يدي، ولا ألومها بالطبع. دسست السكين على الفور في جيب المعطف، وحاولت تهدئتها، حيث بدت شديدة الشحوب، وطلبت منها أن نذهب إلى الدكان قليلاً، ولكنها أخذت تخبط الأرض بقدميها غاضبة وهي تقول:

«لا أريد اللعب، لا أريد اللعب، لا أريد اللعب». وبقينا واقفين في منتصف الطريق أكثر من خمس دقائق على هذه الحالة، ومن ثم رأيت قطعة الورق التي في يدها، وأدركت أن المدام أرسلتها إليّ، وحين سألتها ما الذي تريد شراءه من الدكان، هدأت قليلاً.

«خبز وشاي، وأيضاً..» قالت لي ولم تتذكر الباقي، فأخذت الورقة ورأيت أنها نسيت الصابون، فعرضت عليها أن نذهب سوية إلى الدكان لإعطائها هذه الحاجيات، وقد تبعتني على الفور دون اعتراض هذه المرة.

يخطر لي فجأة أن من خطف مينة كان يريد خطف ماريا في الحقيقة، تلتقي نظراتي أنا والمدام لوهلة، ويبدو لي وكأنها تفكر كما أفكر، ولكن محال، فمن سيقع في خطأ من هذا النوع؟ كما أنه لا يوجد أي مبرر لخطف ماريا، ولو كان هؤلاء من قاموا بخطف مينة، فلماذا ما زالوا يلاحقون ماريا حتى الآن؟ ولكن صوت جرس هاتف قادم من مكان عميق يقطع أفكاري. تتحرك المدام على كرسيها نحو الهاتف القريب منها وترفع السماعة:

– ألو، تفضل من معي؟ السيد سِدات؟ لحظة من فضلك. – تلتفت نحوي – إنه لك.

أتناول السماعة منها:

– ألو!

– ألو سيدي، أنا مصطفى.

– قل لي ما الأمر.

– اتصل المحقق ناجي.

– هل ترك رسالة؟

– أخبرني أنّ سنان سيكون عنده غداً في الحادية عشرة صباحاً، وعليك الذهاب إليه قبل ذلك الوقت من أجل التحضير للخطة، وقال لي إنك ستفهم ما يعنيه.

– حسناً لا عليك، ولكنني وصلت للتو، ويبدو أنّ بعض التطورات قد حدثت، وسيكون عليك تدبر الأمر. أريدك أن تبحث عن سيارة شاهين بيضاء، من مالكها، إن كان من ذوي السوابق، سأعطيك رقم السيارة، لحظة. – ألتفت نحو شرف.

– (763 34 kz). – يقولها مشدداً على كل رقم وحرف.

– (763 34 kz). – أكرر الرقم لمصطفى – كما أريد دورية حراسة على الزقاق المسدود في شارع حسام باشا، عند العمارة رقم ثلاثة وعشرين. قدم طلباً رسمياً بالأمر لشعبة الأمن.

– حسناً سيدي أمرك.

– سأطلعك على التفاصيل حين أراك.

– حسناً سيدي، إلى اللقاء.

أنهي المكالمة وأعود إلى المدام.

– سنلقي القبض عليهم. – ولكن هناك أمر يشغل ذهني، فأطرح السؤال دون أن أحدد إن كان موجهاً لها، أم لشرف أم لي أنا – ولكن ما لا أفهمه لماذا سيقدمون على خطف ماريا؟

يبدو شرف مستغرباً من سؤالي وهو يوضح:

– سيستغلونها من أجل التسول آبى. فنحن في وقت سيئ تحول البشر فيه إلى وحوش لديها الاستعداد لفعل كل شيء من أجل النقود. وقد سمعت في كثير

من المرات بأنهم يخطفون الأطفال الذين يعانون مشاكل عقلية من أجل تشغيلهم في التسول.

– أعلم، ولكن ماريا ليست طفلة، إنها شابة.

– لا تقل ذلك سيد سِدات. – تقولها المدام بصوت مخنوق – هذا ما تبدو عليه، ولكنها في الحقيقة لا تختلف عن طفل في الثالثة من العمر.

– أعلم، ولكنها غير مناسبة للتسول، فهم يعتمدون غالباً على الأطفال المشردين ممن هم في أعمار صغيرة، ويرجحون ذوي الوجوه البريئة والأجسام الناحلة الصغيرة، ويشوهون أجسادهم بطرق بربرية من أجل جرّ استعطاف الناس، والحصول على نقود أكثر.

– يا إلهي، يا إلهي. – تهتف المدام في ذعر وهي تصلّب بشكل متلاحق، فأندم على البوح بهذه التفاصيل.

– ما أعنيه أنّ ماريا لا تناسبهم لهذه الغاية. ربما كانوا شباباً فاسدين أرادوا التحرش بها.

– لا تقل ذلك سِدات آبى. – اعترض شرف – من يريد التحرش بفتاة، لن يترقب ظهورها كل هذا الوقت الطويل.

ما يقوله صحيح، ولكنني لا أرغب في إخافة المدام أكثر.

– كل شيء وارد، فقد مرّ على رأسي الكثير في هذه المهنة. – أحاول المراوغة لتغيير مجرى الحديث. – إن رأيتهم مرة أخرى ستتمكن من التعرف عليهم أليس كذلك؟

– سأتعرف عليهم من بين المئات، المهم أن تتمكن من القبض عليهم

آبي.

– إذاً أعطني عنوانك، في حال أردنا التحقق من شخصيتهم.

ولكن تغييراً غريباً يطرأ على هذا الأسد الذي ظل كل الوقت يدعي بأنه حامي حمى الحي. ويتكدر وجهه.

– أرجوك آبي، إنهم غدارون وإن علموا بأنني وشيت بهم، فلن أسلم من انتقامهم ما حييت.

– لا تقلق. – أقولها وأنا أكابد إخفاء ابتسامتي – ستنظر إليهم من خلال مرآة دون أن يتمكنوا هم من رؤيتك.

لا يرتاح كثيراً لتطميناتي، ولكنه يعطيني العنوان إزاء إصراري. وبعد أن أدوّنه في دفتر ملاحظتي ألتفت نحو المدام:

– لا حاجة إلى المزيد من الخوف، فكما سمعتِ؛ اعتباراً من هذه الليلة ستكون هناك دورية حراسة مواظبة طوال الوقت. كما أنّ رقم السيارة أصبح لدينا، لذا سنلقي القبض عليهم بكل تأكيد.

الفصل العاشر

حين أدخلت سيارتي مرأب العمارة، كان الظلام على وشك أن يخيم، ولا أدري سبب عودتي الباكرة إلى المنزل، ربما لعدم وجود ما أقوم به. فحين خرجت من منزل المدام، توجهت إلى محل الميكانيكي من أجل استعادة سيارتي. فيما كان مصطفى يبحث عن هوية من تحرشوا بماريا، وفي صباح الغد سأتوجه إلى الشعبة الأولى من أجل مقابلة سنان. أستطيع التوجه إلى مكتبي الآن، ولكن لا رغبة لي في رؤية عمي ولا أي شخص آخر. فهناك تعب هائل يرزح على كاهلي، ليس تعباً جسدياً، بقدر ما هو نفسي. إنه يختفي حين أكون منغمساً في العمل، ولكنه يطل برأسه ما إن أكون بمفردي، أظنني أمرّ بأكثر مراحلي بؤساً.

في الحقيقة إنه ليس بالأمر الجديد عليّ، فقد بدأ مع موت يلدرم، وأخذت وتيرته تزداد سوءاً مع مرور الوقت. وحلّت كل المصائب المقدرة لي دفعة واحدة، كان مقتله الضربة الأولى، والكارثة التي لم أتوقع. ربما ما كان عليّ التقوقع على نفسي، بل مواصلة ما بدأه هو، ولكن ما الفائدة؟ فلن أتحول عنواناً في جريدة «بعد يلدرم، يتلقى زميله سِدات أيضاً رصاصات مجهولة ذات صباح حين توجهه للعمل، ليموت بدوره». هل من شيء يستحق هذه التضحية؟

حين التقيت مينة، كان هذا السؤال يجول في ذهني على غير هدى: «هل الأمر يستحق؟». وقد تمكنت تحت وقع تأثيرها، من تأجيل هذا السؤال بعض الوقت. فقد كانت كياناً محبباً ملأ الفراغ الذي تركه يلدرم، وربما كانت وسيلة للتهرب من مخاوفي، ولكن الأهم من كل ذلك أنني أُغرمت بها، فمعها استعدت لذة الاستمتاع بكل نفس، بالأكل والقبل وبالتنزه على شاطئ البحر. بكل تلك التفاصيل البسيطة التي كانت تمرّ عليّ من قبل كظلال، بالمتع الصغيرة التي تلون

لحظات الحياة.

إن مهنتنا شديدة الغيرة، تطالبك بكل ما تملكه من وقت وطاقة. وتُنزل الزوجة والأولاد والعشيقة إلى المرتبة الثانية، حتى أنهم يبدأون بقولبة حياتهم وفق ظروف المهنة، وحتى لو رغبنا أن نكون أزواجاً صالحين، وآباء عطوفين، وعشاقاً رومانسيين، فمن الصعب تحقيق ذلك. وقد حررتني مينة من فكيّ العمل، وأعادتني مرة أخرى إلى الحياة الطبيعية. من الممكن أنني عجزت عن تحقيق ما كنا تعاهدنا عليه أنا ويلدرم، وفقدت كل قناعاتي ولكنني استعدت حبي للحياة. والآن في غيابها، أبدو وكأنني عدت إلى البداية من جديد. أشعر بطعم العدم المعدني يرنّ في روحي من جديد.

حين أترجل من السيارة وأغلق الباب، يقابلني البواب نجاتي باحترام، ولا أدري من أين خرج فجأة.

– حمداً لله على سلامتك سيد سِدات. – يقولها في استذلال ظاهر – لقد أسفنا جداً حين سمعنا بما جرى لك.

– شكراً لك سيد نجاتي. – أقولها وأنا أغلق باب السيارة.

– كيف حالك؟ أرجو أن تكون قد تحسّنت. – ويتعقّبني فيما أسير.

– بخير، بخير.

– حمداً لله تبدو بحال أفضل.

– كيف حال الأولاد؟ – أقولها حين أصل باب المصعد.

يتكدّر وجهه، دون أن يغفل فتح الباب لي.

– وكيف سيكون حالهم؟ هم على ما هم عليه سيد سِدات.

لديه ابن في السابعة عشرة من العمر، وابنتان في الحادية عشرة والثامنة من العمر، وكلهم يعانون من تخلف عقلي، حيث أثّر عليهم زواج والديهما لأنهما أبناء عمومة.

يظل واقفاً حتى أدخل المصعد، وقبل أن يغلق الباب يحييني بنبرة احترام مبالغة:

– تصبح على خير.

في العام المنصرم، قرر سكان العمارة عزله من العمل بسبب تباطئه في تلبية حاجاتهم، فهو يتأخر كثيراً كلما أُرسل لأمر ما، ولكنني كنت المناصر الوحيد له ليبقى. هو الآن أكثر دقة، ولهذا السبب يبالغ في احترامي، كما أنّ الخوف الذي يولده كوني شرطياً يعزز هذا الاحترام. أجل، فالكل يظنني أعمل في الشرطة، وليس الاستخبارات. كنت أستطيع الادعاء أنني رجل أعمال أو محام، لإخفاء عملي الأساسي، ولكن هذه المهن قد تصبح مجلبة للمشاكل فيما بعد، لذا فضلت مهنة الشرطي. وبهذا فأنا أحافظ على مسافة أمان بيننا، لا تستجلب فضولهم. أضغط على الرقم سبعة، وأنا أفكر في أولاد البواب، لا مدرسة ولا عمل، يقضون النهار برمته جالسين أمام نافذة القبو الذي يقطنون، حيث يتابعون حركة الأقدام الغادية والرائحة. وفي بعض الأحيان تمسك الأم بيد الثلاثة للخروج في نزهة قصيرة. صادفتهم بضع مرات، حيث كان كل منهم ينظر في اتجاه ما، دون فضول أو اهتمام في أعينهم، بل كانوا يسيرون بخطوات آلية لا روح فيها.

وفيما يهتز المصعد، ويبدأ بالارتفاع استرجع ما جرى في منزل المدام. هل يخاف البواب أيضاً على أولاده من أولئك الذين: «يخطفون الأطفال الذين يعانون مشاكل عقلية من أجل تشغيلهم في التسول...»؟ ربما يواسي نفسه بأنّ أطفاله لن يتعرضوا لمثل هذا السوء، وربما سيسرّ إن قام أحدهم بخطف واحد ليخفّ عبئه. فمن الصعب إعالة كل هؤلاء الأشخاص بالراتب الذي يتقاضاه، ما هذه الأفكار

الغريبة؟ فأيّ أبٍ سيسرّ إن خُطف أبناؤه لمجرد سوء معيشته؟ وتتراءى لي المدام بالذعر الذي في عينيها بسبب ما تعرضت له ابنتها، وكيف كاد قلبها يتوقف خوفاً. لكن ماذا لو كانت المدام محقة في مخاوفها بأنهم خطفوا مينة ظناً منهم أنها ماريا؟ فحتى أنا أختلط عليّ الأمر وظننتها مينة؟ وحين أدركوا أنها ليست الفتاة التي يجب خطفها، قاموا بقتلها والتخلص من الجثة برميها في مكان ما.. لا لا، فماريا أكبر من أن يتمّ استغلالها في التسوّل، وهم يدركون أنّ لها أماً وعائلة ستبحث عنها وتبلغ الشرطة، وهم لا يحبذون التورط في هذا النوع من المشاكل. بالإضافة لذلك هناك الاعتداء الذي تعرضتُ له، وفخري، والإرهابي الآخر الذي تمّ قتله. لا، لا يمكن أن يكون كل ذلك محض مصادفات متسلسلة.

يتوقف المصعد، وأنا ما زلت أفكر في محاولة الخطف رغم إدراكي كم هو أمر غبي. أخرج إلى الممر المظلم، وبشكل آلي تمتد يدي نحو زر الكهرباء. ربما لم تكن محاولة الخطف من أجل التسول، بل من أجل تجارة الأعضاء وبيعها لبعض الدول الغنية ومن سيصدع رأسه بالاستمرار في البحث عن فتاة متخلفة عقلياً، ولكنهم حين أدركوا أنّ من خطفوها هي مينة وليست ماريا، لم يشكل الأمر فارقاً، فلديهم جسد شاب يمكن بيع كل أعضائه. أتخيل جسد مينة الغض ممزقاً دامياً. فأهزّ رأسي بعنف لإبعاد هذه الصور عن ذهني. فما أفكر فيه غير منطقي، كما أنني لست متأكداً إن كانت عمليات الخطف من أجل تجارة الأعضاء البشرية تحدث في تركيا أم لا، يجب التحقّق من الأمر.

– يا رجل ما الذي ستبحث عنه، وكل ما تفكر فيه مجرد سخافات لا أكثر. – أجفل من سماع صوتي، وأدرك أنني أكلم نفسي بصوت مسموع. لحسن الحظ الممر فارغ.

تسرّ مليكة لعودتي باكراً، وتستاء في الوقت ذاته لأنها لم تجهز الطعام بعد. التوأم في الصالون تتفرجان على مسلسل كرتوني لأحد الأبطال الآليين. وهما

مكتبة

مستغرقتان في المشاهدة لدرجة أنهما لا تلحظان مجيئي، أقترب منهما بهدوء، وتجتاحني رغبة قوية في ضمهما إلى حضني، فتوقفني مليكة قائلة:

– جاءت السيدة سيفيم مجدداً، وهي تريد التحدث إليك.

أشعر بالاستياء، لأنها ستعاود البكاء والسؤال عن مينة، ولا رغبة لي في لقاء كهذا.

– سأقابلها غداً.

– أخبرتني أنّ الأمر مهم، وعليك الاتصال بها حال عودتك.

من الواضح أنها راغبة في مجيء سيفيم، فرغم أنها لم تصارحني، لكنْ هناك كثير من الأسئلة التي تلوح في نظراتها، والتخمينات التي تشوّش أفكارها.

– هل أخبرتك بشيء ما؟

– لا، كما أنني لم أقم بسؤالها، فقد كانت بادية الاضطراب.

– الاضطراب؟ – بدأت أشعر بالفضول حقاً – أهناك أخبار سيئة يا ترى؟

ترفع مليكة كتفيها برفق موضحة أنها لا تعلم. أعود إلى مراقبة الفتاتين الجالستين في الصالون، فتختفي رغبتي في ضمهما.

– إذاً دعينا نتصل بها لتأتي. – أقول.

وفيما تتصل بها مليكة، اتجه نحو الحمام لغسل يدي ووجهي وأنا أفكّر في سبب تخليَّ عن فكرة البقاء مع ابنتيّ، لم يكن قراراً منطقياً بل حسياً، ولكنه يملك توضيحاً بسيطاً: معرفة أي خبر عن مينة أكثر أهمية من كل ما عداه. لقد كان لعلاقتي بها تأثير حتى في تعاملي مع بناتي. ففي تلك الأثناء تشكّلت في روحي

معادلة عاطفية غريبة، على أحد أطرافها كانت تقف مينة، وعلى الطرف الآخر مليكة وابنتاي. ولكن الموازين اختلت مع اختفاء مينة؟ وكأنني أضعت معها مليكة والفتاتين أيضاً. قد يكون الأمر مستهجناً، ولكنني حينها لم أكن أشعر بأي ذنب لا اتجاه مينة ولا اتجاه مليكة. وكأنه وضع طبيعي جداً أن أعيش مع امرأتين. يبدو أنّ يلدرم كان محقاً حين كان يقول إن تعدد الزوجات أمر غريزي عند الرجال. ولكنه رغم ذلك لم يقع في غرام امرأة أخرى خلا زوجته، وكان يكتفي بعلاقات عابرة لا أكثر. ويترك ما عاشه خارج البيت، لتكون قبلته الوحيدة على الدوام هي منزله، أما عمي فلم أسمع بأنّ له علاقات من هذا النوع، وأغلب الظن أنها لم تحدث مطلقاً. إنه رجل متعلق بعائلته، بل بعمله، حتى أنه يعتبر العائلة جزءاً متمماً لعمله الاستخباراتي، وبالتالي فمكانة زوجته لا تتجاوز مهمة الدعم اللوجستي. ولكن إن صارحته بالأمر سيثور غضباً، ويصدعني بمحاضرات عن قدسية العائلة. رغم أنّ الوضع هو ذاته بالنسبة إلينا جميعاً، فزوجاتنا لسن سوى مجرد داعمات لنا لا أكثر.

ولكن ما لا أفهمه هو خضوع زوجاتنا لهذا الواقع، لِمَ لا يرحلن فحسب؟ ربما يأسرهنّ هذا الجو الغامض والسري الذي يعشنه. إنهن يتقبلن البقاء مذلولات في ظلال رجال يتنطّعون لمهام في غاية الحساسية بحسب ما يعتقدن، ورغم أنّ هذا الوضع برمته لا يجعلنا نغدق عليهن حباً أكثر، ولكننا في الوقت ذاته نشعر بالامتنان من الحرية وقلة الالتزام الذي يوفره لنا هذه الوضع. ولكن هذا الامتنان الذي يحلّ مكانه بين الحين والآخر شعور بفراغ عاطفي، ينحو إلى الملل في بعض الأحيان. فالحياة العملية الصاخبة التي نحياها، لا تُشعرنا بالاكتفاء من علاقة أسرية ثابتة هادئة. فأنا مثلاً كنت أشعر بالملل من زوجتي قبل بدء علاقتي بمينة، حتى أنني في بعض اللحظات كنت أشعر بزوال الحب الذي كان يجمعني بها. ولكن مع مينة بدأت حياتي الزوجية بالتجدد أيضاً. وبتّ أنظر إلى مليكة بطريقة مغايرة، وأظنها قد شعرت بالتغير الذي ألمّ بي، أو أنّ حدساً أنثوياً دفعها للاعتقاد بحدوث أمر ما، وإن

مكتبة

لم تحدد ما هو. وحتى علاقتنا الحميمة التي كان الروتين قد استهلكها بدأت تكتسب زخماً أكثر حرارة. ورغم أنّ دخول علاقة ثنائية غباء بحت، ولكنه كان متعة تعزز مشاعري الرجولية وترضي غروري بطريقة ما. كانت أعشق إحداهن وأحب الأخرى. وسعيداً مع الاثنتين. والمشكلة الوحيدة أنني لا أستطيع البوح بمشاعري لأي منهن. وحتى لو كان من الصعب الاعتراف بذلك، فأظنه السبب الذي أدى إلى انتهاء علاقتي بمينة.

يقابلني في مرآة الحمام وجه رجل متعب، يحاول فهم ما يجول في نفسه. أبتسم، فهو وضع مؤلم يجعل وجه الرجل في المرآة يتغضن وجعاً. افتح الصنبور، وأستمع قليلاً للخرير قبل أن أملأ كفيّ بالماء البارد، فترتعش أوصالي، هذه الرعشة التي قد تبقيني متيقظاً. أغرق وجهي في بحيرة الماء المتجمعة في كفي، فتنتابني رغبة في المزيد، والمزيد حتى أشعر بالتحسن. وفيما تستمع بشرتي بنسيج المنشفة الناعم، أشتم رائحة عطرة، أهي الخزامى؟ لا، إنه عطر مليكة. فكل ما تلمسه يداها يفوح بهذا العبق، أعود للاستمتاع بالرائحة مرة أخرى وأنا أقربها من أنفي، فيرنّ جرس الباب. لا بدّ أنها السيدة سيفيم. لقد جاءت أسرع مما ظننت. يبدو أنّ هناك بالفعل أخباراً مهمة!

أخرج مسرعاً من الحمام فألتقي بها في الردهة عند الباب. يذكرني حجمها الصغير بابنتها على الفور، شكل الجبين، الأنف المرفوع، والشفتان الممتلئتان. ولكن مينة تختلف عنها، ليست أكثر جمالاً، ولكن... كيف أعبر عن ذلك؟ لكن ملامحها أكثر تعبيراً.

– أهلاً بكِ. – أقولها وأمدّ يدي مصافحاً.

تصافحني بيدين مرتعشتين، ووجه متكدر، حتى أنني ألحظ الرعشة في شفتيها.

مكتبة

– مرحباً، علينا أن نتحدث.

– بالطبع، تفضّلي. – وأشير نحو غرفة المكتب، ولكنني لا أتمالك نفسي من السؤال فيما نسير – ما الأمر سيدة سيفيم، هل هناك أخبار عن مينة؟

– لا. – تقولها وهي تنفي بحركة يائسة من رأسها – ليت الأمر كذلك.

تجلس على الأريكة قرب نافذة المكتب حين ندخل، وأجلس على الكرسي المقابل لها، فيما تظل مليكة واقفة للحظات، مترددة بين البقاء والخروج. أنظر إلى السيدة سيفيم، فأراها تؤثر الصمت، من الواضح أنها لا ترغب لمليكة سماع ما ستقوله.

– هل لك بتركنا لوحدنا قليلاً عزيزتي؟ – أقولها خائفاً من إثارة استيائها.

– بالطبع. – تلملم نفسها – ما رأيكما بفنجاني قهوة؟ – تسألنا وكأنه السبب الوحيد لبقائها في الغرفة.

– شكراً حبيبتي، لا رغبة لي في شرب أي شيء. – تقولها السيدة سيفيم بحزم.

لوهلة أظنها اطلعت على أمر علاقتي بمينة، وجاءت لمحاسبتي. فأحمد الله أنّ زوجتي لن تكون موجودة. وما إن تغلق مليكة الباب، حتى تسألني غاضبة:

– ما الذي أخبرك به متين؟

– متين؟

– أجل متين، والد مينة.

– هاااا، السيد متين. أجل لقد قابلته هذا الصباح، حيث سيعود إلى ألمانيا.

– صحيح، لا بدّ أنه على متن الطائرة الآن، فقد اتصل بي من المطار. كان ثملاً كعادته، ويتهمني باختفاء مينة. وقد تفوه بكثير من الحماقات حول جيهون.

إنها تزداد غضباً مع مواصلة الحديث، حتى تكاد تصرخ.

– وأخذ يردّد بأن جيهون كان مغرماً بمينة، لكنها صدته، وأخبرني بأنه أطلعك على كل هذه التفاصيل. أرجو ألا تصدقه، فهو يفعل ذلك للانتقام مني.

أشعر بالارتياح، فغضبها هذا بسبب متين وليس بسببي. ولكنني لا أجاريها في الرأي وأنا أقول:

– لم يكن يبدو لي شخصاً يحاول الإساءة لأحد.

– هذا ما يبدو عليه، فمظهره يوحي بالاحترام، ولكن لتعرفه على حقيقته عليك أن تعيش معه أربعة عشر عاماً.

– هل كان يسيء معاملتك؟

– دعك من الأمر، فلا علاقة له بحديثنا.

– أي أمر يتعلق بابنتك، له علاقة كبيرة بحديثنا. فقد يساعدنا تفصيل مُهمَل للعثور عليها.

تتردد حائرة بين البوح لي أم البقاء صامتة للحظات، وهي تدقق النظر في وجهي، ولكنها تتخلى عن الفكرة، وهي تهز رأسها:

– إنه أمر مخجل.

– هناك دائماً أمر يدعو للخجل خلف كل الجرائم.

– ما الذي تعنيه؟

– لا شيء. ولكنني لو اطلعت على الأحداث بصورة أكبر، سأتمكن من تحليل الأمور بصورة أكثر دقة.

وبعد برهة من التفكير تقرر:

– حسناً، ولكن عليك أن تعدني أن ما سأخبرك به، سيبقى سراً بيننا.

– تستطيعين الوثوق بي.

– أظنّ متين أخبرك عن ظروف زواجنا، فقد كنت في حالة بالغة السوء. حينها لم تكن الأمور سهلة بالنسبة إلينا، كما شباب هذا الجيل، فحين تواعد فتاة ما أحدهم وتبدأ بالخروج معه، فستصبح عرضة لإشاعات كل من يحيط بها، كنا أنا وجيهون نحب بعضنا منذ المرحلة الإعدادية، وتوطدت علاقتنا في المرحلة الثانوية أكثر، ورغم اعتراضي، لكنني رضخت لإصراره، ومارسنا الحب. وبعد مرور شهرين اكتشفت أنني أصبحت حاملاً. كان جيهون شاباً صغيراً، لم يستطع الوقوف في وجه عائلته، لذا تركني في تلك الحال، وذهب إلى أنقرة من أجل إتمام دراسته.

– لقد أطلعني السيد متين على هذه التفاصيل.

– حسناً، جاء متين بعدها. كان رجلاً دميماً جداً، وقد أعجب بي لدى رؤيتي. وحين حاولت خالته معرفة رأيي، رفضت في البداية، ولكنني فيما بعد أدركت أنها فرصتي للهرب من المنزل. فقد كنت أعيش وسط جحيم حقيقي، أتعرض فيه لتوبيخ والدي وإهانته طوال الوقت، حتى أنه في إحدى المرات حرّضني على الانتحار، وفي بعض الأحيان كنت أخاف من إقدامهم على قتلي. لذا، وجدت عرض متين فرصة للخلاص مما أنا فيه. كما إنه، وإن لم يكن رجلاً وسيماً، بدا لي شخصاً طيب القلب.

تزوجنا، وبقينا في إسطنبول خلال الأسبوع الأول من زواجنا، وكانت الأمور تسير على ما يرام، حتى أنني عدت تلك الفتاة المدللة لدى عائلتي.

كنا في السرير، بعد مرور أسبوعين على انتقالنا إلى منزلنا في ألمانيا...

تسكت السيدة سيفيم وهي تحني رأسها.

- لماذا سكتِّ؟ - أسألها.

- أخجل من التحدث عما جرى. - تتمتم مطرقة رأسها.

- لا داعي للخجل، اعتبريه حديثاً لغاية العمل لا أكثر.

ترفع رأسها وهي تنظر خجلةً إليّ، دون أن أحدد إن كان تصرفها هذا حقيقياً أم محاولة لخداعي، ولكنها تقرر إتمام حديثها:

- فشل متين تلك الليلة معي، فهو كان ضعيف البنية، تعتل صحته بين الحين والآخر. وقد كان شديد الحرج لكنني حاولت تهدئته، والتقليل من أهمية الأمر. ورغم أنه تحسن في المرات التالية، ولكن الليالي التي قضيناها معاً باتت تتقلص تدريجياً، وبعد مرور بضع سنوات توقفنا عن ممارسة الحب بشكل نهائي. في البداية كان شديد الانزعاج، ولكنه اعتاد الأمر مع مرور الزمن، ووجده خيراً من تعرضه للخيبة في كل مرة يحاول فيها، وتوقف عن المحاولة. وقد صرّح في إحدى المرات بأنّ عليه التخلص من عمله في المنجم. وكان مدير المحاسبة في المنجم شخصاً طيب القلب، حيث أخبر متين بأنه لن يسمح له بإتلاف صحته أكثر من ذلك، وقد أخبرني متين حينها بأنه على وشك تغيير وظيفته، وقد تمّ الأمر بعد برهة وجيزة، حين نُقل إلى الطاقم الأمني المسؤول عن المنجم.

- القسم الأمني؟

مكتبة

– شيء يشبه الشرطة الخاصة للحفاظ على سير أعمال المنجم.

– غريب، ومنذ متى وهو يعمل في هذه الوظيفة؟

– منذ خمس أو ست سنوات تقريباً. حيث ظلّ يعمل بشكل سري لمدة عام، من خلال تقديم تقارير عن العمال هناك، ومن ثم تمت ترقيته.

– وهل ما زال يعمل في هذه المهمة الخاصة؟

– أجل، فذلك الألماني له سلطة كبيرة على الإدارة.

– هل تذكرين اسمه؟

– كان يناديه رولفي، ولكن اسمه رولف ستشميتز.

أدوّن الاسم في دفتر الملاحظات، ليس لكون الأمر معلومة مهمة، ولكن من أجل سير التحقيقات.

تنظر السيدة سيفيم إلى القلم في يدي وهي تسألني:

– أيعقل أن يكونوا وراء خطف مينة؟

– لا، لا. ولكنني أحاول جمع المعلومات لا أكثر. حسناً وكيف سارت علاقتكما فيما بعد؟ هل تحسنت؟

– لا، لم يطرأ عليها أي تغيير. وإن شئت الحق فلم يكن الأمر يعني لي الكثير في البداية. والمتعة التي حصلت عليها مع جيهون، لم أحصل ولو على فتاتها أثناء علاقتي مع متين، الذي لم أكن أحبه. فقد نذرت نفسي لتربية ابنتي، حتى أنني بدأت بالنوم في غرفة مينة. ولم أكن أرغب مجرد التفكير في ممارسة الحب.

– وكيف كان تعامل السيد متين معك بالمقابل؟

– كما أخبرتك، فقد كان يعاملني وكأنّ شيئاً لم يكن. كان مكتفياً بوجود امرأة في المنزل، أنجبت له طفلاً. ربما كان ينظر إليّ كأمٍ، يستمتع بالجو الأسري الذي أقدمه له ليس إلا. وقد استمر الوضع على ما هو عليه حتى التقائي جيهون في تركيا. وإن شئت الصدق، فقد شعرت بالانفعال ذاته الذي كان ينتابني لدى رؤيتي له في أيام الصبا. ولكنني لم أجد سبباً يدفعني للتمسك بأي أمل معه، فقد اعتقدته تزوج بدوره. كان مجرد لقاء عابر، ولكنه تمكن من الوصول إليّ في اليوم التالي، حيث أخبرني أنه ما زال يحبني، ولم يتزوج أبداً، كما أنه يرزح تحت شعوره بالذنب منذ سنوات بعد أن تركني ورحل، وأخذ يعتذر لي. عاتبته قليلاً، ولكنني لن أنكر بأنني بقيت أحبه طوال تلك السنوات. وكما هو متوقع فقد عادت علاقتنا تتأجّج مرة أخرى. وحين العودة إلى ألمانيا، وبينما كنت أنوي إخبار متين بالأمر، وقعت حادثة الرسالة. وقد تصرف كإنسان متحضر واعٍ، ولكنني أشعر أنه يكنّ غضباً جارفاً اتجاهي أنا وجيهون، رغم أنه وافق على طلاقنا دون أي مشاكل. كان يتصرف بطيبة حتى إنني بدأت أشعر بالذنب، ولكنني لم أتمكن من حبه في أي يوم، كما أنني كنت صغيرة في العمر وراغبة في الحياة.

– وماذا عن ابنتك؟ – يفلت السؤال مني، ذلك أنني أعلم مده كره مينة لجيهون، فقد كانت تقول إنه فظّ وبخيل إلى درجة المرض. وكان أكثر ما يثير دهشتها، أنّ والدتها مغرمة برجل مثله.

– حين تزوجنا، أحبها جيهون وكأنها ابنته، وكان يعاملها برقة بالغة، ويريد حمايتها. ولكنها كانت تثير المشاكل على الدوام، وتفتعل الشجار. سأخبرك الحقيقة؛ فصحيح أنّ مينة هي ابنتي، وفلذة كبدي، ولكنها كانت تتصرف بطيش بالغ، جعلت ثقتنا تخيب فيها، كانت متحررة أكثر مما يجب، فحتى أثناء الثانوية، كان لديها الكثير من العلاقات الحميمة. ولم تكن تلتزم بأي ضابط.

– ولكنها أمضت طفولتها في ألمانيا، ونشأت وفق عادات مغايرة.

– صحيح، فقد قاست كثيراً من أجل التأقلم، ووحد الله يعلم ما كنت أعانيه حين كانت في الثانوية. فحين بدأت المدرسة، كانت تعود كل يوم باكية، وهي تقول لي: «دعينا نعدْ إلى ألمانيا» وقد جاهدت كثيراً من أجل إقناعها. فمن جهة كنت أحاول تهدئتها ومن جهة أخرى أحاول إقناع جيهون وتبرير تصرفاتها له، وفي معظم الأحيان كنت أجد نفسي عالقة وسط الاثنين. ولكنني حين أستذكر الأحداث الآن، أدرك أنّ مينة هي المخطئة. كانت ألمانيا قد انتهت بالنسبة إلينا، ويتوجب عليها نسيان الأمر. كما أنّ جيهون رجل حريص على سمعته وشرفه. وقد حاول أن يكلمها بالحسنى دون طائل، وحين لجأ للعقاب أصبح الأب القاسي السيئ. أنا خير من يعرف ابنتي، فقد كانت تستغل هذه الخلافات للحصول على المزيد من المال من والدها، والعيش على هواها. وقد رجوتها مئات المرات أن تتوخى الحذر، حتى لا تورط نفسها في مصيبة ما، ولكنها لم تستمع إليّ، وحين دخلت الجامعة أصبح من الصعب التحكّم فيها، وأخيراً استأجرت ذلك المنزل في كورتولوش بالمال الذي أرسله لها والدها. ورغم ذلك لم أشأ تركها، فطلبت منها تحويل ذلك المكان إلى مرسم، والبقاء معنا في المنزل، ولكنها لم تصغ لي.

يبدأ صوتها بالارتعاش، ويقع ما كنت أخشاه.

– لا أدري إن كانت حية أم ميتة، حتى أنها لا تملك قبراً أذهب للبكاء عليه.

وتجهش بالبكاء.

أحاول تسكينها وتهدئتها بالقول:

– هدئي من روعك، سنعثر عليها. – ولكن دون أن أتمكن من تسكينها، وحين تراني نهضت، تنظر إليّ من خلال عينيها المبلّلتين.

– سأحضر لك كأساً من الماء. – أقول.

مكتبة

– شكراً لا أريد. – تقولها وهي تمسح دموعها بيديها. تتغير فجأة من تلك المرأة الغاضبة، إلى أم بائسة لا تريد سوى العثور على ابنتها – كما أنني لا أريد إزعاج مليكة أكثر من ذلك – تقولها وهي تجفف أنفها، كي لا تراها مليكة باكية.

أشعر بشفقة تختلط مع شعور هائل بالذنب اتجاهها.

– أحياناً أشعر أنّ كل ما يحصل ما هو إلا مزحة سمجة، وسأستيقظ في أحد الأيام لأجد ابنتي بالقرب مني.

– أتمنى أن يتحقق ذلك.

ولا تنسى أن تسألني وهي تنهض:

– لن تقحموا جيهون في الأمر أليس كذلك؟

– لا تقلقي، فليس هناك من مبرر لاستجواب زوجك.

– أشكرك سيد سِدات.

– حين نعيد إليك ابنتك سالمة معافاة، حينها عليك أن تشكرينا.

نخرج من المكتب، لنجد مليكة في المطبخ، ولا يبدو عليها أنها استاءت على الإطلاق، أو أنّ هذا ما تحاول إظهاره.

– ابقي معنا حتى العشاء سيدة سيفيم. – تقول.

– شكراً عزيزتي، ولكن جيهون على وشك الوصول، ولم أقم بتجهيز شيء بعد.

وبعد أن نودع السيدة سيفيم، لا تسألني مليكة حول ما تحدثنا عنه، بل

تعود إلى إتمام السلطة.

– هل تريد عصر الليمون عليها؟

– سيكون ذلك جيداً. – أجيب باقتضاب.

يسود بيننا صمت مضطرب، يدفعني للتوضيح بينما تقطع الليمون.

– تتبادل الاتهامات هي وزوجها السابق.

تظل محافظة على صمتها، وهي توزع الأطباق على المائدة، وبعد برهة تقول متذمرة:

– الأزواج يختلفون والأولاد يبتلون. مسكينة مينة، انتقلت من بيت لآخر ومن حياة لأخرى حتى دُمرت حياتها.

صوتها مشحون، حتى تبدو وكأنها على وشك البكاء. فهي تتمالك نفسها منذ أيام، ولن أستغرب إن فاض بها الكيل الآن. وبينما أفكر كدِراً أنها ستكون المرأة الثالثة التي ستبكي أمامي اليوم وأنا أعصر قطعة الليمون على صحن السلطة، تهبّ غوكتشة لنجدتي. تقف على باب المطبخ بقامتها الصغيرة، وهي تقول:

– أنا جائعة أمي.

– حسناً يا حلوتي. – تطفو للحظات على الكآبة التي تغرق وسطها وهي تكمل – سيكون الطعام حاضراً خلال لحظات.

أحتضنها وأنا أسحب نفساً عميقاً.

– هل جاعت صغيرتي الحلوة كثيراً؟

– متى عدت بابا؟

– عندما كنتما تتفرجان على التلفاز، ولكن أين أختك؟

– في الداخل، تشاهد الإعلانات.

نتجه إلى الداخل بينما أحتضن غوكتشة، فنجد آيتشا مستغرقة في المتابعة وقد أسندت خدها بيدها.

– ألم تشعري بالملل يا بنتي؟ – أسألها.

تلتفت نحوي وهي تهتف:

– آه لقد عاد بابا. – وتفتح ذراعيها وهي تقبل نحوي، فأخشى حملهما معاً، لأنّ الأطباء حذروني من رفع حمل ثقيل لفترة من الوقت، لذا أنزل غوكتشة، وأحتضنهما واقفتين. وفيما ألهو معهما تبدأ نشرة الأخبار. حيث الخبر الأول عن مداهمة شرطة إسطنبول لأحد المنازل، حيث قتل ثلاثة من الإرهابيين من قَتَلَة الشرطة. أترك الفتاتين وأنا أجلس على الأريكة، فيما تحدثني آيتشا عن بعض الأمور المتعلقة بالمدرسة، لكنني لا أسمع سوى لغط عابر، لأنني أركّز على الخبر، متسائلاً عمن التحق بالعملية كمراقب من قواتنا. وفجأة أتذكر أنني لم أكتب بعد التقرير المتعلق بناجي. وأفكر أنه عليّ الانتهاء منه هذا المساء، فيما تمر مشاهد الإرهابيين الدامية على الشاشة.

الفصل الحادي عشر

يقع مكتب ناجي في نهاية ممر طويل، في الطابق الثاني من الشعبة الأولى للشرطة. في المدخل هناك ثلاثة شبان من الشرطة بالزي الرسمي يتبادلون الحديث حول أحد أصدقائهم الذي تمّ تعيينه في المنطقة الشرقية، فيما أمرّ بجانبهم، متجهاً حتى نهاية الممر. يدخل رجل أربعيني بخطوات مترددة إحدى الغرف على الجهة اليمنى، وهو يحمل ملفاً بيدين مرتعشتين ووجه يعلوه حذر قلِق. أراقبه من الباب الذي تركه مفتوحاً، وهو يقترب من الموظف، ورغم أنني لا أرى وجهه، لكنني أستطيع تخمين تلعثمه وهو يعرض حاجته. وحين أدير رأسي، يواجهني ثلاثة أشخاص يسيرون جنباً إلى جنب، يظهر بجلاء أنهم شرطيان مدنيان برفقة أحد المتهمين، في حين كان الضجيج المنبعث من جهازه اللاسلكي يخدش أذنيّ، أمّا المتهم الذي طالت لحيته بشكل بارز، فتعلو وجهه سكينة لا بدّ أنّ مصدرها نجاته من الاستجواب دون عواقب.

لم تراودني رغبة أن أصبح شرطياً مطلقاً، ليس لأنني أقلل من شأنهم، فمعظمهم يتبع الشعار «أغمض عينيك ونفّذ ما عليك»، ولكنني لا أظنّ أنّ ما يقومون به وفق هذه القاعدة ينفع في خدمة البلاد. لا أعلم كيف أوضح الأمر، ولكنهم ليسوا من يضع أساس اللعبة، حتى أنّ دورهم لا يتعدى دور مجرد لاعب عادي. ورغم أنّ أمثال ناجي يتحلون بالذكاء والألمعية، ويتفانون في عملهم، لكنهم لا يختلفون عن البقية في لعب الأدوار المناطة بهم. أما بالنسبة إلينا فالوضع مختلف، لأنّ رجال الاستخبارات هم من يضعون قواعد اللعبة التي يقوم البقية بأدائها. صحيح أننا لا نختلف عنهم، في كوننا موظفين في الدولة، ولكننا أكثر حرية بما لا يُقاس في مجالنا الخاص. ورغم ذلك لا أنكر أنه لو سئلت عن رغبتي العمل في

الاستخبارات، فلن أجيب بتلك النعم الواثقة كما في أيام الشباب. لقد كنت أحب مهنتي، وربما ما زلت أحبها، ولكنني بتّ مقتنعاً أننا لم نعد نختلف عن موظفين منسيين يقومون بالمهام المناطة بهم في سأم، خلف تلك الطاولات في غرف أسقفها عالية، وجدرانها باردة، وهذا ما جعل كثيراً من قناعاتي تتساقط على طريق الزمن.

أذكر أنني وفي اليوم الذي انتسبت فيه للاستخبارات، قام عمي بإلقاء هذه الكلمات على مسامعي فخوراً:

– هذا المكان الوحيد في الدولة حيث يمكنك استخدام ذكائك وشجاعتك، في سبيل بلادك وأمتك. والدخول إلى هذا المكان هو امتياز حقيقي، حيث يقدم لك كل الإمكانيات لتثبت جدارتك، الطرقات كلها مفتوحة أمامك وتستطيع الجري كما تشاء بحرية تامة، دون خشية من أن يعترض أحد سبيلك.

ولكنهم فعلوا ذلك، معي ومع يلدرم ومع كل شخص يريد جعل الاستخبارات في وضع أفضل. فتلك الرياح المحمّلة بالعجاج والتي كانت تعصف بأروقة الدولة، اختلطت بأنفاسنا، واستنفدت طاقاتنا في العمل سوية، ونقلت إلينا عدوى كثير من الآفات، ورغم أنها لم تتمكن من القضاء على الاستخبارات، لكنها حولتها أرضاً قاحلة لا حياة فيها.

– لقد مزقت الكفن مرة أخرى.

حين أرفع رأسي، يقابلني المحقق فؤاد، يراقبني وهو يستند إلى الباب. وألمح في نظراته احتراماً يخالطه الإعجاب. لعل هذا ما أتمناه فيما الحقيقة لا تغدو مجرد حسد لا أكثر.

– يقال إنك أطلقت النار على عزرائيل، فيما كانت سيارتك تنطلق مسرعة.

– إنهم يبالغون. – أقولها بلامبالاة.

– أتعني أنهم يكذبون؟ – يقولها بتوق من يرجو أن يكون ما قيل كذباً بالفعل.

قبل أربع سنوات كنا أنا ويلدرم وفؤاد نمارس الرمي في نادي الرماية، وكان أكثر انسجاماً في علاقته مع يلدرم، وفي المقابل لم يحرص كلانا على إخفاء النفور المتبادل. كان مهووساً بالأسلحة لدرجة مرضية. وبحسب ما أوضحه يلدرم، فلديه تشكيلة واسعة من الأسلحة في المنزل. وخلا كونه رجلاً نزقاً، فهو يعتبر رامياً جيداً. كنا نتبارى كثيراً حينها، ولم يكن يستطيع النجاة من المركز الثالث، ليغدو مادة للتندّر والتسلية، ولا بدّ أنه ما زال يحمل ضغينة تلك الأيام حتى الآن، لذا لا بأس من إغاظته بعض الشيء.

– لقد صوب كلانا مسدسه على الآخر، ولكن الأسرع كان صاحب الإصابة القاتلة.

– ولكن جرحك أيضاً كان بالغ الخطورة بحسب ما سمعت.

– يبدو أنه لم يكن بتلك الخطورة.

– تسير بتبجّح وعلياء، بحيث يصعب الوصول إليك.

– حاول مجدداً بعد قليل فقد تصل، أنا هنا حتى الظهيرة.

– تريد رؤية ناجي؟

– أجل، فنحن نجهز تقريراً عن بعض المحققين السفهاء.

– توقيت ممتاز، فالمسكين في أفضل حالاته لكتابة التقارير.

– لماذا؟ ما الذي حصل؟

مكتبة

يتكدر وجهه، ويحل الحزن بدل سفاهته وهو يوضح:

– قضية ادعاءات القتل دون محاكمة. يبدو أنّهم قرروا التخلّص منه.

– لن يتمكنوا من فعل شيء.

– ليت الأمر كما تقول، ولكن الوضع بات كثير التعقيد، حسناً أراك لاحقاً.

– إلى اللقاء.

إذاً فقد علم ناجي بأمر الاستجواب، ولكن هل يعلم بأنني من أكتب التقرير يا تُرى؟ أدخل مكتبه وسط هذه الأفكار، ولكنني لا أستطيع تبين طريقي من دخان السجائر. لا يوجد أحد سواه في الغرفة، وقد أغلق اللاسلكي، وأسند مرفقيه إلى الطاولة غارقاً في غمامة أفكاره القلقة. ينهض حين يراني.

– تفضّل سِدات.

– خيراً، من هزم جيوشك حتى أغرقك في كل هذه الكآبة يا رجل؟

يحدجني بنظرات برمة.

– وكأنك لا تعرف؟

– بِمَ؟

– بكل هذه القذارة – يقولها بحدة – عن المداهمة التي قمنا بها على ذاك المنزل في أوسكودار، برفقتك وذلك المتسكع الذي معك.

– ها... تلك هي القصة.

– أجل تلك هي القصة، وتدّعي أنك لا تعرف؟

– لقد سمعت بأمر الاستجواب، ولكن كيف لي التخمين أنّ هذا ما يزعجك.

– وهل هناك من مصيبة أكبر أيها الأحمق؟ سيزجون بنا في السجن.

– لن يفعلوا أي شيء.

– هذا ما تعتقده أنت، ولكن ألقِ نظرة على هذه الجريدة.

أحمل الجريدة الموضوعة على الطاولة، حيث ورد الخبر في نهاية الصفحة الأولى بعنوان: «اشتباك أم عملية تصفية؟» وتحته تفاصيل المقال:

«في العملية التي تمت قبل فترة على أحد منازل الإرهابيين في أوسكودار، هناك ادعاء بوجود إحدى ممرضات مستشفى زينب كامل، وتدعى كولي زار نسيم، بين الثلاثة الذين تمّ قتلهم دون محاكمة. وبحسب المؤتمر الصحفي الذي عقدته عائلتها، فإنّ الشرطة قد اقتحمت المنزل، حيث لم يبدِ الموجودون أي مقاومة مسلحة، بل قام عناصر الشرطة بإطلاق النار دون تكلف مشقة استجوابهم. وما يزيد الشكوك العثور على مسدسين فقط بحوزة القتلى الثلاثة. وقد علمنا بقيام وزارة الداخلية بفتح تحقيق موسّع حول القضية».

أرفع رأسي عن الجريدة، فتقابلني نظرات ناجي القلقة.

– طلبوا مني تقريراً مكتوباً للتوضيح، وهذا يعني أنه سيُقضى عليّ هذه المرة.

أجلس على الأريكة قبالته وأنا أقول:

– لا يوجد أي دليل بحوزتهم..

– لو لم تمت الممرضة، لفكرت مثلك.

– ألم تكن هذه المرأة إرهابية؟

– إنها كذلك، ولكن القتلى لا ينتمون للتنظيم نفسه.

– كيف ذلك؟ ألم يكونوا موجودين في المنزل ذاته؟

– أجل، ولكن المرأة لا تنتمي إلى تنظيمهم، كما أنها سجنت من قبل خمسة أشهر.

– لم تكن تهمتها جنائية على ما أعتقد.

– بالطبع لم تكن، كان ذلك بسبب انتمائها لتنظيم إرهابي آخر.

– حسناً، كانت تحاول الانتساب إلى تنظيم آخر، لعدم اقتناعها بمبادئ تنظيمها القديم وفاعليته.. – أبرر الأمر في محاولة للتخفيف عنه.

– ولكنها لم تكن كذلك. – يقولها في صوت يائس.

– لم أفهم – أقولها بجدية – هل لك أن تشرح الأمر بالتفصيل.

– كما تعلم، فالأمور بدأت مع الاعتداء على حافلة شرطة مكافحة الشغب في منطقة زنجيرلي كوي، حيث استشهد اثنان من زملائنا، وجُرح سبعة آخرون. فتحركنا على الفور، وبدأنا بمراقبة اثنين من الإرهابيين اللذين كنا كشفنا أمرهما من قبل. كان الهدف هو الكشف عمن يتواصلون معهم، للقضاء على التنظيم نهائياً. ولكنهم كانوا حذرين، فقد تركوا المكان الذي كانوا يقيمون فيه، فيما بقينا نراقبهم سراً. كنا نريد لهم الاعتقاد بأنهم تمكنوا من التخلص من مراقبتنا. وبعد تغييرهم الكثير من المنازل، وفي اليوم الثالث، ذهب أحدهم لمقابلة زوج الممرضة في مكان عمله، حيث كان يعمل موظفاً في البلدية. تحدّثا لبعض الوقت، وبعد الظهيرة انتقلا إلى منزل الممرضة.

– أتعني أنهم لم يكونوا رفاقها، بل رفاق زوجها؟

– أجل، فالرجل كان متعاطفاً معهم. صحيح أنه لم يتورط في أي نشاط حقيقي، ولكنه كان يساعدهم على الدوام. وكان كثير ممن نراقبهم يلجؤون إليه حين تسوء الأمور. وقد طلبوا منه المكوث في منزله يومين، ووافق الرجل.

– كيف تعرف كل هذه التفاصيل؟

– هو من اعترف لنا.

– هل هو في حوزتكم؟

– أجل، في السجن. وقد أخبرنا بأنه قام بأخذ الإرهابيين إلى منزله، ومن ثم عاد إلى العمل. وقد قمنا بإلقاء القبض عليه هناك، حيث اعترف بكل شيء، كما أخبرنا أنّ زوجته توقفت عن القيام بأي نشاط، ولكنها مثله متعاطفة معهم.

– أتعني أنّ المرأة لا علاقة لها بكل ما جرى؟

– هذا ما أخبرنا به.

– كان يحاول حمايتها لا أكثر.

– أظنه صادقاً. فقد أخبرنا بكل ما لديه. وحين قارنا اعترافاته بما لدينا من معلومات، تأكدنا من صحة معظمها.

– ولكنه أخفى عنكم وجود ممر بين المنزل والقبو.

– أجل، وقد قمنا بسجنه بتهمة إيوائهم، ولكن الممرضة قُتلت أثناء الاشتباك.

– وكيف لكم أن تدركوا أثناء حمى الاشتباك وفوضاه، من المذنب ومن

البريء؟

– هذا ما لا يريد أحد سماعه. فهل يتوقعون منا رميهم بالورود حين يطلقون النار علينا؟ وكما قرأت، فهم يدعون أنّنا اقتحما المكان وأمطرناهم بالرصاص دون أن يقوموا بإطلاق النار علينا.

– ما هذا الكلام؟ لقد كنت موجوداً، وهم من قاموا بإطلاق النار علينا.

لوهلة لا يعي ما الذي أتحدث عنه، فهو يعلم أنني لم أعلم ما جرى في الداخل. ذلك أنني ومصطفى بقينا في الخارج طوال الوقت. فكلانا يعلم تماماً أنّ هناك شبه اتفاق سري بين قوى الأمن في كل أنحاء العالم، بعدم التهاون مع قَتَلَة الشرطة، والقضاء عليهم ما أن تحين أدنى فرصة. ورغم ذلك، أجد نفسي مجبراً على التوضيح.

– هرب اثنان منهم من الطابق السفلي.

– تماماً، وقد قتلنا أحدهما في منطقة بالموجو.

– كما أنكم عثرتم على السلاح الذي أطلق منه النار عليّ. والحائط الذي خلفي قد تخردق من الرصاص.

– تماماً، كان مسدس براونينغ عيار تسعة ميليمتر. لكننا لم نعثر على الآخر.

– أي أنهما افترقا أثناء هروبهما.

– أو أنك أخطأت التقدير، فالضباب كان مخيماً في تلك الليلة شديدة الظلمة، والرصاصات التي جمعناها كلها تعود لمسدس براونينغ، ولم يتمّ استعمال مسدس آخر في الاشتباك.

– وربما الآخر لم يكن مسلحاً، لكنني واثق أنني لم أكن مخطئاً. فقد رأيت شخصين، وكان مصطفى أيضاً معي، حيث رأينا خيال شخصين وسط الضباب. في البداية لم يخطر لنا أنهما إرهابيان، وغاب عنا احتمال خروج أحد حيّاً من المنزل.

يقاطعني ناجي الذي يظنني أكيل له الاتهام، وهو يوضح:

– لقد تمّ الأمر بسرعة خاطفة، ولم نكن نعلم بوجود ممر آخر في المنزل المجاور.

– أعلم. وأيّاً يكن الأمر، كانت المسافة التي تفصلنا عنهم خمسة عشر متراً، وكنت أول من رآهما، لكنني اعتقدتهما من سكان الحي. ومع ذلك أردت التحقق، فأمرتهما أن يتوقفا. وحين لم يذعنا، أطلقت ثلاث رصاصات، حيث بادلاني إطلاق الرصاص. وبالكاد تمكنا من الانبطاح أرضاً، وحتى حين توقفا عن إطلاق النار لم نلحق بهما بسبب كثافة الضباب. ولم نتحرك إلا بعد فترة. لكنهما كانا هربا حتى ذلك الوقت، وقد تعقبناهما في الشوارع الخلفية، إلا أنهما تمكنا من الفرار.

– ربما احتميا بمنزل آخر في تلك الأثناء.

– ربما، ولكنني نجحت في إصابة أحدهما، حيث عثرنا على آثار دماء.

– إذاً فقد كانا حقاً شخصين. ذلك أنّ الفتى الذي عثرنا عليه في بالموجو لم تكن له آثار جرح قديم. أي أنك أصبت الآخر. هل مات يا ترى؟

– لا أظن، فلو كان الأمر كما تقول لاستغلوه في حملتهم الدعائية.

– ربما تعمدوا ذلك حتى لا يعطونا أي أدلة.

– أتعني أنهم قاموا بدفنه بصمت؟ محال. الموت بالنسبة إليهم دعاية

سياسية. لذا فهم يقدمون على ارتكاب الجرائم دون أي تردد.

– أنت محق تماماً، وحين نقوم بحماية أنفسنا، يتهموننا بتصفيتهم عمداً.

– لذا فلن يستطيع أحد اتهامك.

– لقد فعلوا ذلك. ولو واصل الإعلام تسلّيط الضوء على الموضوع، فسيُجزّ عنقي.

– لكن الحكومة لن تنجرّ إلى هذه الضوضاء، فهي تتبع سياسة القضاء الكلي على الإرهاب.

يشعل سيجارة، وبعد سحب نَفَس عميق يقول:

– حين يضيق الخناق على السياسيين، نصبح نحن كبش الفداء الأول. – يضحك بمرارة.

– وما رأي مدير الأمن حول هذا الموضوع؟

– تواصل مع وسائل الإعلام التي تدعمنا، ليعملوا على دحض هذه الرواية. ولكنه يفكر مثلك بأنها زوبعة ستثير بعض الضجيج، وتنتهي من تلقاء نفسها.

– إنه محق، فلا يمكنهم النيل منك.

– كيف لك أن تكون واثقاً إلى هذا الحدّ؟

يحرق الدخان عيني، فأنهض لفتح الشباك، ولكن رائحة قذرة تلفحني. حيث الحديقة غارقة في الوحل بعد ذوبان الثلوج. يتقافز شرطيان ترجلا من السيارة نحو الباب، تجنباً لخوض برك الماء الموحلة. أشعر بحرقة في أنفي، وأغلق الشباك على الفور. فرائحة النيكوتين في الداخل، أهون من رائحة الكبريت اللاذعة.

– أتخفي عني أمراً ما؟ – يصرّ ناجي على المواصلة.

ألتفت فأراه واقفاً أمامي مباشرة.

– الرائحة في الخارج مهلكة.. – أقول وكأنني لم أسمع سؤاله. ثم أعود للجلوس على الأريكة مجدداً. فيما يراقب ناجي كل تصرفاتي في انتباه بالغ. يجلس بدوره قبالتي، وهو يسألني:

– لقد طلبوا منكم أيضاً تقريراً، أليس كذلك؟ – وللمرة الأولى منذ قدومي أرى بريق أمل في عينيه – بالطبع – يقولها وهو يكوّر يده اليمنى ضارباً كفه الأيسر – فكيف لهم الحصول على معلومات سوى عن طريقكم؟ لقد كنتم هناك.

– وأخيراً أدركت سبب محاولتي تهدئتك.

تنتقل إليه عدوى ثقتي البالغة، ولكنه سرعان ما ينحدر نحو مخاوفه من جديد.

– ولكن ما مدى الأهمية التي سيولونها لرأيك؟ – تلتقي نظراتنا، ومن الجلي أنه يشير إلى المشاكل التي أعانيها في العمل، لكنه سرعان ما يشيح بنظره خجلاً.

– لم أكن أعلم أنك تميل للتشاؤم إلى هذه الدرجة.

– لا تقل ذلك يا سِدات، ولكن ابنتي الكبرى انتسبت إلى جامعة خاصة هذا العام، والصغيرة بدأت دراستها الابتدائية أيضاً، وأقساط المنزل. ما الذي سيحلّ بي إن طُرِدت من العمل؟

– لن يتمّ طردك.

يمعن النظر في وجهي، لا بدّ أنني أبدو مُقنعاً.

– أرجو أن تكون محقاً، وأشكرك على ما تقوم به من أجلي.

– لا عليك، نحن نقف على الجهة نفسها، وإن لم نقم بحماية بعضنا لبعض، فمن سيفعل؟

– شكراً لك. – يكررها وهو يربت على كتفي، ربما يريد مواصلة الكلام، ولكن جرس الهاتف يوقفه. يرفع السماعة.

– ألو... يريد رؤيتي أنا؟ حسناً فليأتِ.

– لقد جاء صاحبنا.

– أتعني سنان؟

– أجل، ولكننا لم نقرر بعد ما الذي سنفعله.

– كما أخبرتك على الهاتف، أنت الشرطي السيئ، وأنا الجيد.

وبعد أن نسمع طرقتين قويتين على الباب، أجلس وراء الطاولة، فيما يتظاهر ناجي الانشغالَ بالملفات المصفوفة في الخزانة الحديدية خلفي.

يُفتح الباب بهدوء، ليدخل رجل أشقر قصير القامة. يرتدي معطفاً بنياً، حيث تضفي عليه نظارته ذات الإطار المعدني، ولحيته التي يخالطها بعض الشيب مظهراً نخبوياً لفناني اليسار. أختلس النظر إلى ناجي الذي يرمقه شزراً، وقد رفع أحد حاجبيه، فأتأكد أنه سيتقن الدور، لأنه لا يحب هذه النماذج مطلقاً. ولكن سنان لا يتأثر على الإطلاق، بل يقترب بخطى واثقة من الطاولة، ويقول بتهذيب:

– أتيت لمقابلة المحقق ناجي.

– وما الذي تريده مني؟ – يقولها ناجي محتداً.

ينظر إلينا متفاجئاً، فمن الواضح أنه اعتقد بأنني ناجي، لكنه يتدارك بسرعة:

– أنتم طلبتم مني المجيء. – يقولها بهدوء.

يقترب ناجي من الطاولة بهدوء حاملاً أحد الملفات.

– إننا نستدعي مئات الأشخاص يومياً، فكيف لي أن أعرف من تكون؟

– البارحة على الهاتف.

يلقي الملف على الطاولة، ويقاطع سنان دون أن يسمح له بمزيد من التوضيح:

– ما زال يحدثني عن الهاتف، ألا تعرف عن نفسك أولاً يا رجل؟

يسحب نفساً عميقاً، في محاولة كظم غيظه وهو يقول متبرماً:

– أنا سنان داليا.

يتصنع ناجي التذكر لبرهة، ومن ثم يهزّ رأسه ممعناً النظر فيه قبل أن يعلق:

– أجل سنان داليا، ومسألة النشر المحظور.

يسأله سنان مندهشاً:

– النشر المحظور؟

– أجل محظور، ألست صاحب المجلة غريبة الاسم تلك؟

– الحروفات.

– أجل، تلك هي.

يبتسم سنان ليقينه بوجود خلط ما وهو يوضح:

– لكن مجلتنا ليست محظورة، فلدينا موافقة نظامية، وتستطيع التأكد من الأوراق بنفسك.

– لا تتحاذق عليّ. – يزجره ناجي – أعلم أنها مرخّصة، ولكن ما تقوم بنشره ممنوع.

يحمر وجه سنان حنقاً.

– كيف لمجلة نظامية أن تنشر ما يخالف القانون؟

– أترى سيدي. – يقولها وهو يخاطبني – إنهم خبراء في الحذلقة والسفسطة. – يلتفت إلى سنان مجدداً – كان عليك أن ترسل لنا عشر نسخ من كل عدد تصدره، ولكنك لم تفعل. لأنك لا تريدنا أن نطّلع على ما تكتبه. ما الذي تنوي فعله من خلال هذه المجلة؟ حماية التنظيم مثلاً؟

– أنا لا أحاول حماية أحد. – يقولها ومن ثم يلتفت نحوي موضحاً – الحروفات مجلة ثقافية لا أكثر.

إنه الوقت الأنسب لكي أتدخل:

– لحظة، لحظة.. ما المشكلة على وجه التحديد؟

يرمق ناجي الرجل بازدراء، وكأنه أحد القتلة وهو يوضح:

– إنهم يصدرون مجلة، ولكنهم يحاولون إخفاءها عنا.

– كلا، نحن لا نخفي شيئاً عن أحد – يتدخل سنان – كما أنّ أرسال النسخ ليس من مهمتنا، بل مهمة المطبعة. لذا يتوجب عليكم التحدث مع العاملين هناك.

– وما رأيك أن أتتبّعك حتى معمل صناعة الورق أيضاً؟ فجنابك تصدر المجلة، ونحن نبتلي باللحاق بك، أليس كذلك؟

– أنا لم أقل شيئاً كهذا، كل ما أحاول شرحه أنّ الحروفات مجلة نظامية.

– حسناً ناجي، حسناً.. لقد فهمت.

وأتجه نحو سنان الذي ما زال واقفاً أمام الطاولة.

– تفضل بالجلوس – وفيما يجلس على الكرسي، أتابع بلهجة أبوية – عليك أن تحضر أعداد المجلة إلينا. قد تكون هذه مهمة المطبعة، ولكننا في حال عدم استلام شيء مجبرون على مطالبتك بالأمر. هل تفهم ما أعنيه؟

– إذاً علينا إبلاغ المطبعة بالأمر.

– بالطبع، وإلا فلن نتمكن من حل المسألة.

نصمت لبرهة، فيما يبدو سنان مستاء، فهو يدرك أنّ ما نقوم به مجرد إجراء روتيني لمضايقته ليس إلا، ولكنه عاجز عن الاعتراض. لذا يتوجب عليّ تهدئة الأجواء قليلاً:

– ما هي المواضيع التي تتناولها مجلتكم؟

– الأدب؛ تجارب في القصة والشعر. – يرد عليّ شارد الذهن.

ألتفت نحو ناجي وأنا أسأله في سذاجة:

– وما المشكلة في الأمر؟ أنا أيضاً مهتم بالأدب والشعر، حتى أنني نلت المرتبة الثانية في مسابقة الشعر في المرحلة الثانوية ذات مرة.

– ولكن يا سيدي، الشعر والأدب وسواهما مجرد مظاهر لتضليلنا، فما

يدور في الكواليس هو ما يهمنا.

– هل قرأتها؟ – أسأله.

– لا داعي لقراءتها، فالأمر واضح.

– لا يجوز يا رجل – أقولها بنبرة تضامنية مع الضحية –كيف لك أن تقرر أمراً حول شيء لم تطّلع عليه مسبقاً؟

– أنا متأكد. – يقولها في غيظ ويعود للانشغال بالملفات في الخزانة.

أحرك رأسي يميناً وشمالاً، ملمحاً أنني لا أتفق مع ناجي وأنا أسأل سنان:

– هل تنشرون أشعار لأورهان فِلي؟ أنا شديد الإعجاب به، خاصة «أنا أسمع إسطنبول».

يبدو أكثر ارتياحاً الآن.

– للأسف، فنحن لا ننشر الكثير من أشعار أورهان فِلي. لأننا نولي أهمية أكبر للشعر الحديث. ولكننا في العدد قبل السابق قمنا بنشر دراسة عن شعر «غريب».

– جيد. كما أخبرتك كانت لي في السابق بعض التجارب الشعرية، ولكنني توقفت الآن، لكنني أحب قراءة الشعر دوماً.

– كتابة الشعر أمر في غاية الصعوبة، لذا لم أحاول ذلك قبلاً.

– وما الذي تكتبه تحديداً؟

– أكتب القصة. والآن أنا بصدد كتابة رواية.

– أود قراءتها.

– بالطبع. سأرسل لك نسخة.

– من الأدباء الذين تتم قراءة أعمالهم في الوقت الحالي؟

– بعض الكتاب الغربيين المعاصرين. كما أنّ الكتابات التي تنتقد الحداثة تلقى رواجاً واسعاً. فهناك الكثير من الاهتمام بروايات ما بعد الحداثة.

في الحقيقة، لا فكرة لديّ على الإطلاق عن الحداثة وما بعد الحداثة وكل هذا الهراء الذي يتحدث عنه.

– لا بدّ أنك على اطلاع واسع على عالم الأدب.

– هذا من صميم عملي. فإضافة لأنني أكتب، أملك أيضاً مكتبة لبيع الكتب.

– حقاً؟ – أقولها متصنعاً الدهشة – إذاً فبإمكاني شراء ما أحتاجه من مكتبتك.

يصمت لبرهة دون تعليق، ومن ثم يحاول جاهداً رسم ابتسامة على وجهه.

– لِمَ لا؟ أستطيع تحضير قائمة من أجلك.

ربما هو مستاء لأنه يظنني سآخذ منه الكتب مجاناً. وهذا لصالحي، حيث يمكنني بسهولة إثارة دهشته.

– سيسعدني ذلك، ولكن أين تقع مكتبتك؟ – أسأله.

– في بيه أوغلو، شارع ميس، رقم سبعة وعشرين، دار حروفات للكتب.

يخرج بطاقة من جيب معطفه ويمدها إليّ.

– يمكنك الاتصال قبل ذهابك، وسأكون هناك.

– شكراً لك.

– وماذا عن المجلة؟

أتصنع التمهل مفكراً لوهلة قبل أن أجيب:

– جهّز الأعداد الناقصة، وسآخذها معي غداً.

يختفي القلق من عينيه السوداوين.

– شكراً لك. لقد ساعدتني كثيراً.

أختلس نظرة نحو ناجي، وكأنني لا أريده أن يسمع ما سأقوله همساً لسنان:

– في الحقيقة ما من ضرورة لكل هذه الأمور، ولكن ما العمل إزاء القوانين؟

يرمقني بإمعان ليتحقق من صدقي. ولكن من الصعب التكهن بما توصل إليه. ينهض بهدوء ويمدّ يده مصافحاً.

– عن إذنك.

أبادله المصافحة وأنا أؤكد:

– مع السلامة، أراك غداً.

– في انتظارك.

يتجه نحو الباب دون أن يقول كلمة واحدة لناجي. وما إن يخرج، يقهقه ناجي بمكر وهو يقترب مني.

– ما رأيك؟

– كنت رائعاً، أظنك تستطيع منافسة أفضل الممثلين براعة.

الفصل الثاني عشر

حين أصل إلى مبنى قوى الأمن، تبدأ الشمس سطوعها بشكل ملحوظ، فيما أقود على الطريق الأسفلتي الذي بدأ يجف، وقد بدأت ثلوج الحديقة تذوب بسرعة ملحوظة. أفتح نافذة السيارة، يبدو أن الهواء أصبح أكثر نقاء، المكان يضج بأصوات الطبيعة، حيث تلمع الأغصان المبتلة تحت وهج الشمس، وتتساقط كتل الثلج عن أغصان الصنوبرات.

وبعد أن أركن سيارتي، أتجه نحو المبنى، فألتقي أورهان واقفاً أمام الباب وهو يدخن سيجارته. وحين يراني، يخرج علبة سجائر الجمل من جيبه ليمدها نحوي.

– ما رأيك أن تشعل واحدة معي؟

يبدو قلقاً، ترى ما الذي يجول في خاطره من حماقات هذه المرة؟ آخذ سيجارة. وبعد أن يعيد العلبة إلى جيبه، ويشعل سيجارتي بولاعته الزيبّو الفضية، يهمس لي:

– الوضع بدأ يتشعب ويأخذ أبعاداً غير محمودة.

– أي وضع؟ – وأسحب نفساً عميقاً.

– الاستجواب. فقد استدعاني السيد عصمت بعد ذهابك البارحة. وطلب مني إعداد تقرير حول رأيي عن وضع قوى الأمن الحالي.

أتجاهل ما يعنيه.

– حسناً، عليك أن تكتبه إذاً.

تثير لامبالاتي حنقه، فيغلق غطاء الولاعة المعدنية بحدة.

– كفّ عن تصنّع اللامبالاة. ألا تلاحظ أنهم يحاولون الإيقاع بنا؟

– ولماذا يطلبون شيئاً كهذا؟ أهناك مستجدات ما؟

– لا أعلم. ولكنهم يواصلون الضغط علينا دون توقف..

– ألا يعقل أنهم يرغبون بالفعل في إحداث تغيير في قوى الأمن؟

– من خلال طلب رأي من قاموا بالتوقيع على البيان فقط؟

– ربما اقتنعوا بصواب رأينا.

يثير موقفي الاستهزائي سخطه.

– ما بالك قد تغيرت؟ هل أصبحت جزءاً من هذه اللعبة القذرة؟

– كفّ عن الحماقات. – وأضرب كتفه برفق – أنا فقط أحاول أن أوضح أنك تقلق دون مبرر، فليس هناك من تجمع معارض، وحتى لو وجد شيء من هذا القبيل، فلسنا ننتمي إليهم.

– ولكن السيد عصمت وثلته لا تفكر على هذا النحو. كما أنّ ترؤس شخص مدني قيادة الأمن قد أثار خوفهم من فقدان كراسيهم.

– وما شأنك إن كانوا خائفين أم لا؟ واصل عملك وكأن شيئاً لم يكن.

– ولكن بقية الرفاق أيضاً قلقون.

– بقية الرفاق؟ ما عدد الأشخاص الذين قاموا باستدعائهم.

– حتى الآن خمسة، ولكن من المتوقع استدعاء كل من قام بتوقيع البيان.

– وهل يسألونهم الأسئلة ذاتها؟

– تقريباً، ولكنهم سألوني عنك. – يهز برأسه وكأنه يقول لي هل أدركت ما جدية الأمر أيها الأحمق، ويواصل الحديث وهو يشدد على كل كلمة – سألوني عنك وعن يلدرم.

– أي نوع من الأسئلة؟

– إن كنت أرغب في مواصلة العمل معك، وأي نوع من العملاء كان يلدرم.

– وما الذي قلته؟

– أخبرتهم أنني أشعر بالفخر للعمل معك، لأنك زميل ناجح، كما أخبرتهم أن يلدرم كان عميلاً رائعاً، وموته كان خسارة لنا جميعاً.

يسود صمت قصير.

– هل أخطأت؟

– لا، فقد قمت بالصواب. عليك أن تجيب عن كل الأسئلة بهذا الوضوح، من أجل التقليل من مخاوفهم.

– أهي مجرد مخاوف برأيك؟

– هذا ما أظنه. ففي كل مرة يفتضح فيها أمر مسؤول رفيع الشأن، تدفع قوى الأمن برمتها الثمن.

– أتعني عمك؟

– لا تبالِ بمن أعنيه. ولكن أخبر البقية أن يحافظوا على هدوئهم قدر

المستطاع، وأن يتجنبوا التجمع هذه الفترة.

يظهر القلق عليه وهو يجول بنظراته على الزجاج العاكس الذي يغطي البناء برمته ويخفي من يقف وراء نوافذه، ومن ثم يحدثني شبه هامس:

– وما المشكلة في وجودنا معاً الآن؟ مجرد صديقين يدخنان سوية.

– معك حق – أقولها وأنا أسحق السيجارة التي بالكاد احترق نصفها، في المكان المخصص لها أمام الباب – إلى اللقاء.

– إنه إجحاف بحق السيجارة.

– لكنها تجعل الإنسان عصبياً، وقد طلب مني الطبيب التخفيف ما أمكن.

– سيكون من الجيد لي العثور على طبيب مماثل.

– سأعطيك العنوان – أقولها وأنا أبتعد عنه.

لم يكن المسكين جباناً إلى هذا الحد سابقاً، فقد بدأنا العمل سوية، وفي تلك السنوات التي كنا نتحلى فيها بالقناعة والإيمان بعملنا، كان يجترح الروائع. كان يتميز بذكاء تحليلي، بحيث كان يتمكن من كشف ملابسات الأمور في ظلّ أقل المعطيات. لذا فقد اكتسب لقب الرياضي بكل جدارة. لكن موت يلدرم ضاعف من مخاوفه، بحيث تحول من استخدام ذكائه في العمل، إلى استغلاله للبقاء في مربع آمن، والأسوأ أنه بدأ يفقد السيطرة على نفسه. فقد تقوقع ذلك الذكاء في دائرة الخوف، والآن هو لا يفكر سوى في التهديدات التي قد تشكل خطراً عليه. ولأنه سريع التفكير وقادر على ربط تفاصيل غير مرئية، فهو يتورط بعض الأحيان في خدعة تصديقها وكأنها أحداث واقعية بالفعل. لذا عليّ إيجاد سبيل لتهدئته، ذلك لأنّ حضرة السيد عمي سيتخلى عن هذه القضية بعد وقت قصير.

حين أدخل المبنى تقابلني مفاجأة، حيث أرى عمي قد أسند ظهره إلى طاولة السنترال وهو ينظر إليّ، إذاً فقد كان يراقبني. وبالمقابل ربما كانت مجرد صدفة. أبتسم في وجهه باحترام، متغافلاً عن كل ما سمعته، لكنه لا يبادلني الابتسامة، بل يكتفي بهزّ رأسه في حركة متوعدة، ومن ثم يلتفت نحو موظفة السنترال وهو يقول لها شيئاً. وحين أمر بالقرب منه، يخاطبني:

– انتظر، أريد التحدث إليك.

وفيما يعطيها بعض التعليمات الإضافية، أصلّي ألاّ يدخل أورهان فيراه، حتى لا يتفاقم ذعره.

ولحسن الحظ فإن عمي يقترب مني قبل انتهاء أورهان من سيجارته، وينظر إلى ساعته قائلاً:

– لقد تجاوز الوقت الظهيرة، دعنا نتناول الغداء معاً.

– حسناً، فأنا أيضاً أشعر بالجوع. – ونتجه نحو قاعة الطعام في الطابق السفلي.

– أكان أورهان معك في الخارج؟

– أجل، خرج ليدخن سيجارة؟

– بدا قلقاً.

– إنه متضايق من عدم السماح لهم بالتدخين في الداخل. ويقول بأننا سنمرض جميعاً إن استمر الحال على ما هو عليه.

يضحك عمي مبتهجاً.

– ألم تطالبونا بالتحديث؟ عليكم تكبّد بعض المشقات في سبيل غايتكم.

– وهذا كان رأيي، حتى أنني طلبت منه أن نتوقف جميعاً عن هذا السمّ.

حين ندخل باب القاعة أصادف اثنين من زملائي، فيلقيان التحية ببرود، أستغرب. لِمَ ذلك؟ ولكنني أتدارك على الفور، فهما أيضاً قاما بالتوقيع على البيان. ولا بدّ أنهما أساءا الفهم حين شاهداني أدخل مع عمي. أراقب عمي الذي يبدو منشرحاً. حينها أدرك سبب الرفقة المفاجئة التي أنعم بها عليّ، إنه يريد بلبلة أفكارهم، وزعزعتها، من خلال إيهامهم أنني متآمر معه في عملية الاستجواب هذه، متغافلاً عن الامتعاض الذي بدا عليّ.

الطاولات في القاعة مرصوفة بشكل متناظر، وفي المنتصف شجرة اصطناعية، يجلس عمي إلى الطاولة أمام الشجرة، بحيث يرانا الجميع.

– كيف يسير البحث؟ – يسألني.

– لا جديد يمكن التعويل عليه – أقولها في ضيق واضح.

– لقد قابلت والد الفتاة.

– ما أدراك؟ – أسأله بصوت مفعم بالتشكك.

– اتصلت البارحة بك في المنزل، فأخبرتني مليكة. أي نوع من الرجال هو؟

أفكر بوجوب تحذير مليكة حتى لا تفصح له عن كل شيء فيما أجيبه باقتضاب:

– شخص عادي.

– سمعت أنه يعمل في شركة أمنية في ألمانيا.

ما الذي يرمي إليه هذا الرجل؟ من منا يدير التحقيق في القضية، أنا أم

مكتبة

هو؟

– أهناك أحد آخر يهتم بالقضية؟

– لا، الأمر مجرد اهتمام شخصي لا أكثر.

أحاول البحث عن الحقيقة في عينيه الزرقاوين دون طائل. ولو لم أكن أعرفه حق المعرفة، لاعتقدت أنه مجرد شخص عادي يحاول تناول الطعام مع ابن أخيه لا أكثر.

– يبدو أنك أحسنت البحث والاهتمام، ولكن ما علاقة الأمر باختفاء مينة؟ – أسأله.

– إنك لا تحمل آرائي على محمل الجد أليس كذلك؟ برأيك هل هي مصادفة أن يعمل في وظيفة أمنية؟

– الوظيفة الأمنية التي تتحدث عنها، مجرد شركة أمنية صغيرة وخاصة.

– ولكن من يترأس هذه الشركة الصغيرة، رجل ألماني كان يعمل سابقاً لدى الاستخبارات الألمانية. ومع سقوط جدار برلين، اعتزل العمل ليفتتح شركته الخاصة.

– وما الذي يقودنا إليه كل هذه الكلام؟ فمع انتهاء الحرب الباردة انتهى عمل كثير من عناصر الاستخبارات، وهذا الرجل لا يختلف عنهم.

– هذا ما تعتقده أنت. أما إن أردت رأيي، فعليك التقصي عن والدها. ولكن أين هو حالياً؟

– عاد إلى ألمانيا.

– عاد إلى ألمانيا؟ غريب! رجل اختفت ابنته الوحيدة، ومن الممكن أنها

مكتبة

مقتولة، وهو يعود إلى ألمانيا وكأنّ شيئاً لم يكن.

– لقد انتهت إجازته، وكما تعلم فالألمان دقيقون في هذه الأمور، ولكنه سيعود مجدداً بعد أسبوع.

– أتظنه سيعود بالفعل؟ – يسألني وقد علت وجهه ابتسامة العارف ببواطن الأمور.

– متين ليس من عناصر الاستخبارات. – ولكن النادل الذي يقترب حاملاً أطباق الطعام يوقفني عن إتمام حديثي.

– أهلاً بكم سيدي، كيف حالكم؟

– شكراً لك، ما الذي سنتناوله اليوم؟ – يسأله عمي.

– حساء طماطم كفتة سلطة، وحلوى الأرز بالحليب.

– سأكتفي بصحن سلطة. – يقول عمي.

– ولكن الحساء شهي جداً.

يروق لعمي إصرار النادل.

– لقد بدأ وزني بالازدياد، لذا عليّ توخي الحذر. كما أنني قلّصت عدد السجائر التي أدخنها إلى خمس سجائر في اليوم.

وحين يدرك النادل أنه لن يتمكن من إقناع عمي، يلتفت نحوي.

– ولكنك تحتاج إلى أن تتغذى جيداً.

– حسناً – أقولها مبتسماً – أحضر كل ما لديك.

وبعد أن يرصف أطباق الطعام بمهارة، يسألنا:

– هل تودون طلب شيء آخر؟

نشكره فيبتعد مواصلاً عمله.

– إنه شاب ماهر وسريع في عمله. – يعلّق عمي.

أراقب وجهه فيبدو ممتناً، فهو يتصرف مع العاملين هنا بأبوة واهتمام، ويستمتع بتقديم المساعدة لهم أو توبيخهم حين الحاجة، فدور الأبوة الصارم يرضي هواه على الدوام. أيفعل ذلك ليكتسب سمعة حسنة؟ ربما. وقد يفعل ذلك للتغلب على المشاكل المضنية التي يعالجها في العمل، من خلال عقد روابط إنسانية مع أشخاص طبيعيين. وربما تكون رغبة منه في إظهار نفسي كإداري جيد. ولكنه لم يظهر لنا هذه الأبوة المزعومة بعد البيان الذي وقعنا عليه. فقد احتد وقابلنا بقسوة وكأننا أعداؤه، حتى إنه عامل يلدرم بأسلوب هجومي حاد، بل وقام بتهديدي أيضاً. ولكنني في بعض الأحيان أتفهم مخاوفه، فهو سيخسر كل ما بحوزته؛ ليس فقط ما يملكه اليوم، بل كل ما عمل على بنائه طوال مسيرته المهنية. ومن الصعب تقبل أمر مماثل بسهولة. فخسارة الجهد الذي أفنى سنوات العمر في ترسيخه، وتقييم كل ما قام به من قبل زملائه الأصغر سناً، والأقل تجربة، على أنه كان مجموعة من الأخطاء، والمطالبة بإحالته على التقاعد أمر في غاية الصعوبة بالطبع.

– فيمَ أنت شارد؟ – يسألني عمي.

– أفكر في والد مينة. – وأحرك صحن الحساء بملعقتي.

– عليك التفكير في هذا الرجل، فهو المفتاح الذي تبحث عنه.

– لا أظن. – أقولها وأنا أرفع الملعقة نحو فمي – فهو مجرد شخص عادي مثل النادل الذي كان هنا قبل قليل. رجل بائس لا أكثر.

– وهذا ما يجعله عرضة للاستغلال أكثر.

– لقد عمل لسنوات طويلة في منجم الفحم حتى تداعت صحته، كهلٌ، ضعيف ووحيد.

– ولكن معظم الناس الذين يتمّ تجنيدهم، هم من ذوي الشخصيات الضعيفة مثله. – يقاطعني مؤكداً على رأيه.

– على رسلك يا عمي. – وأعيد الملعقة إلى صحن الحساء مجدداً – نحن نتحدث عن عامل في منجم، برأيك هل يصلح ليكون عميلاً للاستخبارات الألمانية؟

– ولماذا تفكر في الرجل فقط؟ ماذا عن ابنته؟ فهي قضت طفولتها في ألمانيا. وكانت تعود إلى هناك في كل صيف لرؤية والدها. ومن المحتمل أنهم قاموا بتجنيدها قبله، ثم قامت بإقناع والدها.

– لا يبدو كلامك مقنعاً.

– صحة وعافية – يقولها مصطفى باحترام مقاطعاً كلامي – وهو ينتصب فوق رأسينا. وعيناه تلمعان، من الواضح أنه استطاع العثور على صاحب السيارة.

– تعالَ اجلسْ. – يقولها عمي وهو يشير إلى الكرسي بجانبه.

– لقد تمكنا من التعرف على الرجل. – يوضح مصطفى بفخر فيما يجلس – صاحب سوابق اسمه نجم الدين كارانفيل. ويعرف بلقب اللقيط نيجو. وقد ارتكب كثيراً من الجرائم، كخطف الأطفال والاعتداء المسلح وسواها.

– ومن هو صاحب السوابق هذا؟ – يسأله عمي في فضول.

– الرجل الذي حاول اختطاف ابنة المدام. – يوضح مصطفى، فيما يبدو الاستغراب على عمي الذي يسمع بالأمر للمرة الأولى.

– أتعني أنهم حاولوا خطف تلك الفتاة التي تعاني من قصور عقلي؟

– أجل، البارحة قبل الظهر.

– ولكن لِمَ؟

– هذا ما نحاول الوصول إليه. ربما يكون للأمر علاقة باختفاء مينة.

يرفع عمي حاجبيه وهو يسأل:

– وما الرابط بين الحادثتين؟

– ربما قاموا بخطف مينة ظناً منهم أنها ماريا.

– أهناك شبه كبير بينهما؟

– لا، ولكنهما تملكان المعطف ذاته، وربما لم يدقق هؤلاء في وجهها كثيراً بسبب القبعة وبقية ثياب الشتاء.

تختلط أفكاره، وتبدو عليه صعوبة ربط الأحداث ببعضها.

– لحظة، لحظة. لماذا كانوا يريدون خطف الفتاة؟

– من أجل التسوّل.

– وكم عمر هذه الفتاة؟

– في الخامسة والعشرين تقريباً.

– لكنها أكبر من أن يتم استغلالها في التسول.

– ربما أرادوا بيع أعضائها لبعض المستشفيات في إحدى الدول الغنية في أوروبا. – أعلق.

– تجارة أعضاء بشرية؟ – ويُغرق في التفكير قبل أن يضيف – ولكن في حال أنهم خطفوا الفتاة الأخرى فقد حققوا غايتهم، فلماذا يعودون مجدداً؟

– هذه هي النقطة التي لم أتمكن من حلها.

يترك عمي الشوكة من يده، ويفكر لبرهة قبل أن يعلق:

– أعتقد أنكم تسلكون الوجهة الخاطئة، فأنا لا أعلم السبب الذي دفعهم لمحاولة خطف ماريا، ولكنني لا أظن بوجود علاقة بين القضيتين.

يحمرّ وجه مصطفى، ففي الوقت الذي يظنّ نفسه قد تمكن من إحراز نجاح في القضية، ها هو رئيس رئيسه في العمل ينسف كل ما قام به. كما أشعر بالضيق من إصرار عمي على رأيه، وتمسكه بمخاوفه المَرَضية، ولكنني لا أريد الدخول في جدال معه أمام مصطفى.

– علينا التأكد من الأمر. – أقول.

ينظر إليّ، فأواجهه بنظرات حاسمة يتهرب منها.

– إذاً قوموا بالتأكد. – ويعيد الشوكة إلى صحن السلطة قبل أن يردف – ولكنني أعتقد بأنكم تضيعون وقتكم سدى.

يجد مصطفى نفسه في وضع حرج، فإن اعترض فتلك مصيبة، وإن وافقه الرأي فتلك مصيبة أكبر. لذا يظل صامتاً وسط حيرته.

– هل أطلب لك شيئاً تأكله يا مصطفى. – أقولها لتغيير مجرى المحادثة.

– لقد طلبت بعض الطعام حين دخولي. – يرد في استحياء – ولكن

النادل لا يعرف أنني سأجلس إلى هذه الطاولة.

– لا تقلق، سيعثر عليك. – يقولها عمي، وقد لاحظ مدى اضطرابه – وهل ألقيتم القبض على الرجل؟

– سنقوم بإلقاء القبض عليه اليوم مساء. – يجيبه مصطفى وهو يختلس النظر إليّ.

– حسناً قوموا بذلك. – يقولها بلا اقتناع ويردف – سترون أنكم لن تصلوا إلى أي شيء من هذه الخطوة.

الفصل الثالث عشر

أنتظر ومصطفى وشرطيتان باللباس المدني في السيارة المركونة أمام بناء من أبنية تارلا باشى المتهالكة، في زقاق شبه مظلم. تغطي وجه الشرطيتين طبقة كثيفة من مساحيق التجميل. تخبرني ميرال التي تجلس إلى جواري في المقعد الأمامي أنها تخرجت من الكلية هذا العام. وهي تخفي وراء تلك المساحيق وجهاً ودوداً، يكاد يكون طفولياً. لا بدّ أنها في مثل عمر مينة، ولكنها تتميز بغرابة أطوار لم أعهدها في بقية زملائها من الشرطة. تفيض منها حيوية الشباب، وتتصرف بعفوية وروح خالية من الهموم. لم تصقلها تجارب الحياة بعد، وتظن أنّ الطريق مفتوح على مصراعيه أمامها لكي تتقدم في مهنتها دون عوائق. ترتدي تنورة حمراء، وسترة جلدية مطرزة. ترتفع التنورة قليلاً وهي جالسة في السيارة، فتظهر ساقاها العاجيتان المتناسقتان. ولا أستطيع رفع نظراتي عنهما فيما تحدثني. ورغم أنها قد لاحظت الأمر، ولكنها لا تبدو مستاءة على الإطلاق. أما عائشة التي تجلس في المقعد الخلفي إلى جوار مصطفى، فقد ارتدت فستاناً أخضر مطرزاً يناسب السهرات، مفتوح الياقة يظهر معظم أجزاء صدرها، وقد ارتدت فوقه معطفاً قاتم اللون. لا تبدو مسترخية مثل زميلتها، فهي تحاول تغطية صدرها بياقة المعطف بين الحين والآخر. وبالمقابل لا يبدو مصطفى منزعجاً من جيرتها، فهو يقوم بمحاولة فتح حديث معها كلما سنحت له الفرصة، ولكن الفتاة لا تستطيع تجاوز توترها.

نحن الآن أمام أحد الملاهي الليلية التي يضيء مدخلها مصابيح حمر قاتمة تنعكس أضواؤها التي تضيء وتنطفئ في تناوب على السيارة. وفندق باندوروس الذي يشكل مكان تنفيذ العملية، يبعد عنا حوالى مئة متر. وفي الحانة المواجهة للفندق يجلس ثلاثة عناصر من الشرطة باللباس المدني، فهم من يعرف نيجو. كما

مكتبة

أنّ هناك شرطيين آخرين يراقبان مدخل الشارع السفلي. وبين الحين والآخر نتواصل بواسطة اللاسلكي، حيث يبديان احتراماً كبيراً في تعاملهما، ولكنني متأكد أنهما يصبان اللعنات علينا؛ فأجمل فتاتين في الشعبة الثانية جالستان بجوارنا. أما عميلتنا في الداخل، والتي تتحين فرصة مناسبة لتعطينا إشارة بدء العملية والقبض على الرجل متلبساً، فهي المرأة التي تنكرت في هيئة عاملة التنظيف.

ورغم أنّ الوقت قد تجاوز منتصف الليل، لكن الشارع يحافظ على ازدحامه. زمر من ثلاثة أو خمسة أشخاص يواصلون السير في كلا الاتجاهين، ومعظمهم من العاملين في الفنادق والملاهي ممن انتهت مناوباتهم الليلة، أو بدأت للتو، كما أنّ السيارات أيضاً تجتاز الزقاق بكثافة. والباندوروس هو أحد هذه الفنادق. ولكنه الوجهة المفضلة للشاذين الذين امتهنوا الدعارة. ولا يكتفي الفندق بتوفير المكان لهؤلاء، بل يعمل على توفير طلبات الزبائن منهم. ولديه خدمة خاصة بتوفير الأطفال ممن يتمّ استغلالهم في الدعارة. ونيجو اللقيط هو أحد الأشخاص الذين يديرون هذه الأعمال في الفندق.

رغم أنه لم يتجاوز العقد الثالث، فقد ارتكب سلسلة من الجرائم تثير الاستغراب بالفعل. وكما هو واضح من لقبه، فوالدته مومس. وقد تم إلقاء القبض عليه أول مرة بتهمة سرقة الدجاج من قنّ أحد جيرانه. وبعد سنة من إطلاق سراحه، عاد للسجن مجدداً بتهمة سرقة مسجلة إحدى السيارات. ولصغر سنه لم يكن يمكث في السجن كثيراً، ولكن بعد فترة أعيد إلقاء القبض عليه، لحيازته الهيروين. وبعد خروجه، بقي مدة ثلاث سنوات دون أي مشاكل. وفي نهاية هذه المدة عاد إلى السجن فيما كان يحاول سرقة محفظة أحد رجال الشرطة المتقاعدين. وقد تورط في حادثة قتل أحد مروجي الهيروين في السجن، ولعدم وجود الأدلة، استطاع التنصل من التهمة. إلا أنه لم يتوقف عن جرائمه بعد إطلاق سراحه، حيث ألقي القبض عليه مرة أخرى بتهمة السطو على أحد الملاهي. وسجن لسنتين قبل أن يخرج. ولكن حريته لم تستمر لمدة طويلة، ففي هذه المرة كانت تهمته طبع

مكتبة

دولارات مزيفة والتعامل بها. ولأنه لم يكن الزعيم في هذه العملية، فقد نال عقوبة مخفّفة. وبعد إطلاق سراحه أعلن توبته. حيث قام بذبح الأضاحي في جامع السلطان أيوب. حيث كان عمه مؤذن الجامع، والذي قام بإيوائه في السكن الخيري التابع للجامع. ولكنه وبعد مرور شهرين، اختفى مع ثلاث من أغلى سجادات الجامع. وبعد ستة أشهر تمّ إلقاء القبض عليه فيما كان يحاول التحرش بإحدى السائحات الألمانيات. وبعد خروجه هذه المرة، قام بالعمل في إحدى الحمامات العمومية في منطقة تقسيم. ومن المرجح أنه قام بالحصول على هذا العمل، إما من خلال التهديد، وإما بسبب علاقاته مع عصابات المافيا. وأثناء عمله هناك، التقى بالأطفال المشردين في الجوار، وأدرك أنه عمل سيجني منه الذهب. وانضم للعصابات المسؤولة عن استغلال الأطفال في التسول. ولكن تمّ إلقاء القبض عليه بعد سنتين، وهذه المرة نتيجة الشهادة التي أدلى بها طفل في السابعة من عمره بُترت ذراعه وإحدى ساقيه. حيث واجه تهماً بإخضاع الأطفال المشردين لعمليات جراحية تتعمد تشويههم، والاعتداء عليهم جنسياً، وتشغيلهم في التسول. وخلال مكوثه في السجن، نجا بجراح مثخنة من محاولة تصفيته من قبل بعض السجناء. حيث تمّ نقله إلى سجن انفرادي حتى انتهاء مدة عقوبته. وبعد خروجه من السجن عاد لممارسة مهنته السابقة. وبحسب معلومات مصطفى، فقد انتقل للعمل في بيع الأطفال المشردين لبعض الأغنياء بغرض الفاحشة.

ورغم أنّ الفتاتين الجالستين معنا، لا تملكان معلومات عن خلفية القضية، ولكنهما تخمنان أنها ليست مجرد عملية عادية لإلقاء القبض على أحد العاملين في الدعارة، وذلك بسبب تدخلنا في الأمر.

بعد مرور عشر دقائق يرتفع صوت الخشخشة القادمة من جهاز اللاسلكي، حيث يكلمنا أحد عناصر الشرطة الجالسين في الحانة.

– من صاحب الحانة إلى الحارس الليلي، هل تسمعني أيها الحارس الليلي؟

– أجل، الحارس الليلي يسمعك. – أقولها وأنا أحمل جهاز اللاسلكي.

– لقد جاء صاحبنا وبرفقته طفلين.

– عُلم يا صاحب الحانة. انتظروا تعليمات من عاملة التنظيف. عُلم؟

– هلا تعيد الأوامر أيها الحارس الليلي؟

– ليدخل ضيفنا المكان. وأبقوا أعينكم على الطابق الرابع. وحين تشاهدون إشارة عاملة التنظيف أعلمونا بالأمر. عُلم.

من المؤكد أنّ الشرطيين المراقبين لمدخل الشارع السفلي قد سمعا الأوامر، لأنني أمرتهما بإبقاء جهاز اللاسلكي مشّغلاً، ولكن الحذر يقتضي التأكد من وصول الأوامر إليهما أيضاً.

– الحارس الليلي يتصل مع مصباح الشارع.

لا يتأخر الردّ الذي أنتظره.

– نعم أيها الحارس الليلي، مصباح الشارع يسمعك.

– هل سمعتم صاحب الحانة يا مصباح الشارع؟

– أجل سمعنا أيها الحارس.

– كونا مستعدين للتحرك. عُلم؟

– عُلم أيها الحارس الليلي.

أضع اللاسلكي في حضني.

– دعونا نكمل تحضيراتنا. – وأخرج مسدسي الذي أحشوه بالرصاص –

مكتبة

لا أظن أن اشتباكاً سيقع، ولكن لتكن أسلحتنا في متناول اليد.

تخرج الفتاتان مسدسيهما من حقيبتيهما الصغيرتين وتحشوانهما بالرصاص، فيما أتلفت خلفاً نحو مصطفى:

– سندخل أنا وميرال في المقدمة، وعليكما اللحاق بنا على الفور.

– هل اتضح في أي الغرف سيكون الرجال؟ – يسألني مصطفى.

– بحسب معلومات عاملة التنظيف، سيكونون في الغرفتين رقم واحد وعشرين، وسبعة وعشرين. وأرجو ألاّ يطرأ تغيير ما في آخر لحظة. علينا إلقاء القبض عليهم حين يكون كل منهما في سرير واحد مع أحد الطفلين.

يظهر على وجه ميرال ما يشبه الاشمئزاز.

– متى بدأت هذه التجارة القذرة؟

– منذ افتتاح هذا الفندق. أي ما يقارب الخمس سنوات. – يوضح مصطفى.

– إن حدث أي خلل، فلا تنسوا أنّ هدفنا الأساسي هو نيجو. – أقول منهياً هذه المحادثة الغبية – لا يجب أن يفلت منا.

تستمعان إليّ بجدية بالغة، ومن الغريب أنّ عائشة تبدو أكثر راحة الآن. وكأنها أدركت للتو أننا نقوم بمهمة حقيقية. وحين تلحظ أنني أراقبها، تبادر بالقول:

– لا تقلق، فلن يتمكن من الإفلات منا.

– إذاً فنحن متفقون. – أقولها فيما أعيد مسدسي إلى جعبته.

– أرجو ألا يطول انتظارنا. – يتمتم مصطفى، فأخمن أنه ليس قوي

الإرادة بما يكفي، ويسوؤني أنه يتذمر أمام الفتاتين بشكل علني. فأشيح بنظراتي نحو الفندق.

– هل تستطيع رؤية الشاهين الأبيض؟ – أسأله.

يعدل جلسته، وينظر باتجاه الفندق وهو يجيب:

– هناك سيارة (BMW) سوداء، وسيارة أوبل سكرية اللون.

– ألا تستطيع رؤية الشاهين في الجوار؟

– ربما أخذوها للقيام بعمل آخر.

لا تنضم الفتاتان إلى حديثنا، حيث تمسكان حقيبتيهما على أهبة الاستعداد لبدء العملية.

ترتفع الخشخشة من اللاسلكي مجدداً، ومن ثم يصلني صوت صاحب الحانة:

– من صاحب الحانة إلى الحارس الليلي، هل تسمعني أيها الحارس؟ عُلم.

أجيبه على الفور:

– أجل يا صاحب الحانة أسمعك. عُلم.

– لقد قامت عاملة التنظيف بإشعال وإطفاء ضوء الغرفة في الطابق الرابع لثلاث مرات. عُلم.

– حسناً يا صاحب الحانة، سنتحرك على الفور، وما إن ندخل الفندق، الحقوا بنا دون تأخير. عُلم.

– حسناً أيها الحارس الليلي. عُلم.

مكتبة

– هل نذهب؟ – يسألني مصطفى.

– يجب إعلام الشرطيين أسفل الشارع أيضاً. – ولكنهما يسبقاننا في التصرف، ويتصلان بنا.

– مصباح الشارع يخاطب الحارس الليلي، عُلم.

– نحن نسمعك يا مصباح الشارع، نحن سنبدأ، جهزا نفسيكما للتدخل مع صاحب الحانة. عُلم.

– نحن مستعدان. عُلم.

حين نترجل من السيارة، لا نشعر بأي برد، فالرياح الجنوبية الدافئة قد بدأت تهب، وأذابت خلال ساعات، كل تلك الثلوج التي ظلت تهطل لمدة ثلاثة أيام. ولكن الشوارع ما زالت مبللة. تواجه ميرال صعوبة بالسير بواسطة حذائها عالي الكعب، فتتأبط ذراعي. وفيما نقترب من الفندق، أشعر بها تزداد اضطراباً. أنظر إليها فتوضح:

– أشعر بالبرد.

– أهي عمليتك الأولى؟ – أسألها.

– أجل – تجيب في صوت راعش، وكأنها تقدم على اعتراف خطير. إذاً فكل ذلك التماسك والهدوء كان مجرد تمثيل.

– هدئي من روعك – أخاطبها بنبرة أبوية – سترين أنه أمر أسهل مما تتخيّلين.

– شكراً لك – تقولها بامتنان.

نسير على الطريق المبلّل، على هدي الأضواء الخافتة التي تبعث من الأبنية.

فيما يصلني صوت أقدام مصطفى وعائشة اللذين يتعقبانا. حين نقترب من باب الفندق، نتمهل قليلاً بانتظار وصولهما. فيما ألقي نظرة على واجهة الحانة المقابلة، لأرى واحداً من رجالنا. نتبادل الإشارات. ومن ثم تتجه نظراتي نحو نهاية الشارع، لا بدّ أنّ مصباح الشارع وزميله يراقباننا من مكان قريب. وحين يصل مصطفى، أفتح باب الفندق، وأتنحى جانباً مفسحاً المجال لمرور الفتاتين، حيث نتبعهما في الدخول.

البهو الصغير فارغ تماماً، ولولا ورق الجدران المزين بمناظر طبيعية، والذي يغطي الحائط على اليمين، لبدا المكان موحشاً جداً. نتجه نحو طاولة الاستقبال، حيث يجلس رجل بدين خلف الطاولة، وقد أحنى رأسه لقراءة جريدة ما، أو تدقيق حسابات الفندق. وقد علقت خلفه لوحة ضخمة، بحروف مذهبة بهت لونها، كتب عليها بحروف عربية كبيرة «بسم الله الرحمن الرحيم». وحين يلحظنا الرجل، ينهض فجأة، وكأننا قمنا بمباغتته. حيث يوضح لنا حتى قبل أن نتفوه بكلمة وقد علا السأم وجهه:

– أعتذر يا سادة، ليس لدينا غرف شاغرة.

– على رسلك يا رجل، لا تُذهب بطيب مزاجنا على الفور.– أتحدث بطريقة سوقية وأنا أضيف – في الحقيقة نحن في وضع حرج بعض الشيء.

– أفهم ما تعنيه، ولكنني لا أملك أي غرف شاغرة يا سيدي.

– دعك من سيدك وسيدي، واذهب لتسأل مديرك. – أوبخه ممازحاً.

تتجه نظراته للحظة نحو اليسار، حيث الباب الخشبي المجاور للسلالم. إذاً فهناك غرفة المدير.

– لا جدوى، فهم لا يستطيعون مساعدتك. – يقولها في اقتضاب.

يخرج مصطفى من جيبه رزمة أوراق نقدية من فئة المئة، ويريها للرجل.

– دعك من المدير، فلنحل المسألة فيما بيننا. فربما تستطيع العثور على غرفتين شاغرتين.

تتعلق عيناه لوهلة بالرزمة، ولكنه يعاود النظر إلى الباب الخشبي مجدداً. وبعد تردد قصير يقول:

– النقود لن تفيد في شيء. – يبدو مكروباً لعدم قدرته على أخذ النقود، ومن الواضح أنه كان سيتدبر الأمر لو لم يكن رؤسائه في العمل موجودين، ويكرر من جديد – صدقني لا شواغر لدينا.

أختلس نظرة نحو الخارج، فأرى عناصر الحانة يقتربون من الفندق.

– ما باليد حيلة، دعونا نذهب. – أقولها وأنا أحدق إلى عيني مصطفى – هناك مئات الفنادق المنتشرة في أرجاء بيه أوغلو.

يعود مصطفى لمخاطبة البدين:

– شكراً على كل حال. – ويمد يده مصافحاً، فيبادله البدين المصافحة، وقد بدا عليه الارتياح لأنه سيتخلص منا، ولكن الحسرة على النقود التي ضاعت منه، واضحة في عينيه. يقبض مصطفى على كف الرجل، ويشده نحوه بكل ما يملك من قوة، فينحني جذع الرجل الذي أُخذ على حين غرة، على الطاولة الخشبية. وأسارع بالهجوم عليه، وأضغط رأسه على الطاولة بيدي اليسرى، فيما أضع فوهة المسدس بيدي الأخرى في فمه الفاغر دهشةً. وأنحني عليه، وأنا أهمس في أذنه مهدداً:

– نحن من الشرطة، وإن نبست بحرف واحد، لن أتردد في إفراغ هذا المسدس كله في فمك.

ولكن مصطفى يحتاط لكل الاحتمالات، حيث يتجه مسرعاً إلى وراء الطاولة، ويغلق فم الرجل بشريط لاصق، ويلقيه على بطنه أرضاً.

– قومي بتفتيشه. – أخاطب ميرال التي تخرج المسدس من حقيبتها، وتقوم بأخذ مكان مصطفى – وأنتِ قومي بحراسة الباب، ولا تسمحي لأي شخص بالخروج – أقول لآيشين.

يدخل بقية العناصر في هذه الأثناء، فأشير إليهم بعدم إحداث أي ضجة، فيما أطلب من الكهل الذي يعرف نيجو الاقتراب مني.

– سنقوم بالقبض على نيجو، لذا ستصعدون على شكل مجموعتين إلى الأعلى. تعرفون رقم الغرف أليس كذلك؟

يشيرون بصمت أنهم يعرفونها.

– سأمهلكم دقيقة واحدة، قبل أن نقتحم غرفة الإدارة.

وما إن أنهي كلامي، حتى يبدأون بالصعود في سرعة وصمت مطبقين. ألقي نظرة أخيرة على الفتاتين، حيث ميرال تبدو حازمة وهي تصوب مسدسها نحو الرجل الملقى أرضاً. بينما آيشين تمسك المسدس الذي أخفته تحت معطفها، واقفة أمام الباب بثبات وهدوء. تبدو الأمور على خير ما يرام، فأقرر التوجه لإلقاء القبض على نيجو.

نقترب من غرفة الإدارة، ولكن مهلة الدقيقة لم تنتهِ بعد. فيقف مصطفى على يمين الباب، فيما الأصلع على يساره. أقترب من الباب متنصتاً، فتصلني أصوات متداخلة، دون أن أفهم ما الذي يتحدثون حوله. كم شخصاً في الداخل يا ترى؟ أسمع صوت تحريك كرسي من الداخل، فأتساءل إن كانوا ينوون الخروج. أنظر إلى الساعة، ما زال هناك خمس عشرة ثانية متبقية. لا يجب علينا التسرع،

فكل ثانية لها قيمتها بالنسبة إلى من صعدوا. ولكن أصوات الأقدام تقترب. على الأغلب هناك من ينوي الخروج. أسمعه وهو يدنو من الباب، لكنه يقف ويقول شيئاً ما. فأميز ما الذي يقال.

– سأعود غداً لاصطحاب الأطفال. – إنه نيجو اللقيط. ورغم بقاء بضع ثوانٍ على انتهاء الوقت، ولكن لا أهمية لذلك الآن. أعطي إشارة البدء لرفيقي، ونقتحم الغرفة.

– لا تتحركوا. الشرطة.

يقف رجل – لا بدّ أنه اللقيط – في منتصف الغرفة مصعوقاً. إنه متوسط القامة، أشقر ذو ملامح ناعمة، ووجه مشرق، بل ويمكن اعتباره شخصاً وسيماً. في الحقيقة لم أتخيله بهذا الشكل، فلو رأيته مصادفة، من المحال أن يخطر لي تورطه في هذه الأعمال القذرة. وخلف الطاولة الضخمة المواجهة للباب، يجلس رجل في منتصف العمر، يميل للبدانة، له شاربان دقيقان، ويضع نظارة سميكة العدسات. لا بدّ أنه مالك الفندق. يسبقه اللقيط في تمالك نفسه، وهو يسألنا بصوت عال:

– ما الذي يجري هنا؟

– ارفع يديك إلى ما فوق رأسك. – آمره بإشارة من مسدسي.

ولكنه لا يضطرب، بل يسألني وهو يزمّ شفتيه في استياء:

– ما هي تهمتنا؟

يستمد المالك أيضاً بعض الجرأة من ثبات نيجو، ويعترض بأعلى صوت يستطيع استحضاره وهو يسألنا:

– ألديكم إذن بالتفتيش؟

مكتبة

تبدو عيناه خلف عدستي النظارة السميكتين، كحبتي عدس ضئيلتين. وهما يهدفان من هذا الصراخ تحذير رجالهما في الطابق العلوي، وإعلامهم بقدوم الشرطة.

– انهض. – يخاطب مصطفى الرجل.

– علينا أن نرى إذن التفتيش أولاً. – يواصل نيجو الاعتراض صارخاً.

– أصرخ كما تشاء أيها اللقيط. – أقولها وأنا أغرز فوهة مسدسي في بطنه – فربما يتمكن زبائنك من سماعك.

يضع نيجو يديه خلف رأسه، وتتجه نظراته رغماً عنه نحو الأعلى. تجتاح المكان هبة رياح صقيعية، وعلى الفور يتغير أسلوب الآخر أيضاً، وهو يقول:

– هذا فندق محترم، كما أنّ شرطة بيه أوغلو تعرفنا، وتعرف أننا لا نقوم بأي مشاكل أو مخالفات.

– أنا واثق أنه محترم جداً، ولكن انهض أولاً. – يقولها مصطفى وهو يرفع النظارة عن عينيه، فيحاول الرجل التمسك بها، ولكن مصطفى كان أسرع منه.

– أعد لي نظارتي. – يقول الرجل وهو يضيّق عينيه، لرؤية ما يجري وهو يردف – لا داعي للمشاكل، نستطيع التفاهم.

يلتفت مصطفى نحوي، ويهز رأسه وهو يرمقني، فيستمد الرجل أملاً حين يرى صمتنا.

– إنها ليست المرة الأولى التي نحل فيها المشكلة بالطريقة ذاتها.

– لا أظننا سنتمكن من التفاهم بعد الآن. – يجيبه مصطفى وهو يدفعه نحو الحائط بعنف.

– توقفوا عن التصرف بغباء، فلن يلحق بنا أي أذى. – يتدخل نيجو.

– ستدرك قريباً ما الذي سيلحق بك تماماً. – أقولها فيما أدفعه إلى الحائط المجاور.

يبدو نيجو متفاجئاً، وهو يحاول تدارك الموقف.

– من أي أقسام الشرطة أنتم؟ – يسألني.

– نحن من ال (FBİ). – يجيبه مصطفى هازئاً.

يضحك الأصلع، فيما أحافظ على صرامتي وأنا ألصق وجه نيجو بالحائط.

– أسند يديك على الحائط. – آمره.

وفيما ينفذ تعليماتي، يقول:

– اسخروا كما تشاؤون، فالسخرية من المساكين سهلة.

– وأنت هو هذا المسكين؟ – أقولها فيما أفتش جذعه بيدي – لو قاموا بنشر جرائمك في الصحف، ستستغرق عاماً كاملاً قبل أن تنتهي.

يخيم القلق على صوته وهو يقول:

– لا بدّ أنكم خلطتم بيني وبين شخص آخر.

– سنقوم بخلطك إلى أن تعجز عن ترتيب أعضائك مرة أخرى. – أجيبه.

– ما هذا؟ – يهتف مصطفى، فتتجه نظراتي نحوه فيما يسحب مسدساً من علامة باريتّا من حزام مالك الفندق ويلوّح به في حركة هزلية.

– إنه مرخص، إن فتحت الدرج ستجد ورقة الرخصة النظامية فيه. – يوضح الرجل جزعاً، قبل أن يردف – إنه من أجل حمايتي الشخصية لا أكثر.

– ممن؟ – يسأله مصطفى.

– من اللصوص والمجرمين. – يتلعثم وهو يجيب.

– وهل هناك مجرمون أقذر منكم؟

– إنكم تظلموننا. – يدافع الرجل عن نفسه.

– أهناك سلاح بحوزتك؟ – أسأل نيجو فيما أفتشه.

– أنا لا أسير على تلك الطرقات.

– أجل، فما من داعٍ للسلاح من أجل ترهيب الأطفال. – يتدخل الشرطي الأصلع.

يدير نيجو رأسه، ويوجّه نظرات متوعدة للشرطي.

– لا تحرك رأسك. – أحذره، ولكنه لا يطيعني محاولاً لعب دور الرجل القوي. فأشعر بالامتنان لأنه منحني هذه الفرصة من أجل دك معنوياته قبل الاستجواب، حيث أصفع عنقه بكفي اليمنى بقوة تجعل وجهه يلتصق بالجدار.

– آآآه.. لماذا تضربني. – يقولها متوجعاً، فيما تنهال عليه الصفعة الأخرى.

– توقف عن ضربي. – يصرخ بحدة وكأنه خمّن غايتي، لذا يحاول البقاء ثابتاً. ولكن الصفعة الثالثة تكون أقوى من سابقتيها، حيث يرتطم رأسه بالجدار في ضربة مدوّخة.

– كفّ عن ضربي يا هذا. – ينبح نيجو، فيما أسدد ركلة محكمة إلى كليته اليمنى بحيث تنقطع أنفاسه، ويخر على ركبتيه، وقد تغضن وجهه من الألم، وهو يحاول الالتفات نحوي.

– قلها مرة أخرى. – أخاطبه.

ولكنه يبدو أقوى مما كنت أظن، حيث يصرّ أسنانه وهو يشتمني فأبتعد عنه خطوتين، وأركله بكل ما أوتيت من قوة، فيتقوقع أرضاً، لأعقبها بركلة أخرى، ومن ثم أنحني على أذنه قائلاً:

– قلها مرة أخرى..

وحين يرى المالك انهيار نيجو، يتوسل إليّ صارخاً:

– أرجوك، توقف عن ضربه.

– لا تتدخل. – يزجره مصطفى وهو يدفعه نحو الحائط بعنف.

لا يجرؤ نيجو على الشتم مجدداً، ولكنني لا أستطيع السيطرة على نفسي، فأسدد ركلة أخرى نحو بطنه الذي يحميه بكلتا يديه، ليتلوى ألماً من شدة الركلة، قبل أن يتكور من جديد دون أن ينطق ببنت شفة. تصلنا ضوضاء من الخارج، فأترك مصطفى والأصلع مع المجرمين، وأتجه نحو البهو.

يهبط رجلان أنيقا الثياب ورأساهما منكّسان، أحدهما في حدود الخامسة والثلاثين والآخر قد تجاوز الخمسين، محاطين بعناصر الشرطة. فيما يلحق بهما صبيان صغيران يخلق شعرهما القصير تناقضاً غريباً مع ثياب الفتيات الملونة التي يرتديانها، ويجمعهما شبه واضح. أهما أخوان؟ ولكنني حين أدقق النظر إليهما، أدرك أنني مخطئ. فالمساحيق الكثيفة التي تغطي عيونهما وشفتيهما تخلق شبهاً زائفاً بينهما. ولكن الغريب عدم ظهور أدنى علامة من الخجل على وجهيهما. حتى أنهما

يضحكان بوقاحة ظاهرة، بل ويقومان بإخراج لسانيهما كممثلي الأفلام الإباحية، ويلعقان شفتيهما بإغواء واضح.

يشير قائد الفريق برأسه نحو الطفلين موضحاً:

– إنهما منتشيان، فقد تعاطيا بعض الحبوب.

يقترب الشاذ الكهل، وهو يقول:

– سيدي، لقد أسأتم فهم ما يجري.

أحدجه بنظرات اشمئزاز وأنا أسأله متقصّداً:

– هل هذان الطفلان ولداك؟

– لا ليسا كذلك.

– هل أنتم أقرباء؟

– لا. – يجيب ببرود.

– ما الذي كنت تفعله معهما في غرفة واحدة؟

ولكن الثلاثيني يتدخل:

– حسناً، لقد اقترفنا حماقة، ولكن إن سمعت عائلتانا أو معارفنا بالحادثة.

– لو كنت في مكانك، لفكرت في كيفية النجاة من الموت طعناً بالسكاكين في السجن، بدل التفكير في عائلتك ومعارفك. – أقاطعه منبهاً – عدا عن أنكما ستصبحان عرضة لاعتداءات جنسية شنيعة هناك.

يخيم خوف عميق على وجهيهما المحمّرين خزياً. أدير رأسي، فتقابلني

نظرات ميرال. ما زالت منتصبة فوق جسد البدين المنبطح أرضاً، ولكنها تجاوزت القلق، حيث تشعّ عيناها الشهلاوتان ابتهاجاً، خلف رموشها القاتمة.

الفصل الرابع عشر

يدبّ النشاط في قسم الشرطة لدى دخولنا. فتجذب توسلات الشاذين المستمرة، ومطالبة مالك الفندق المتواصلة بنظارته ومحاميه، وقهقهات الطفلين الهستيرية، عناصر الشرطة الفضوليين، ليتجمعوا حولنا. ولحسن الحظ أنّ رئيس الشرطة المناوب يجيد التصرف، حيث يبادر على الفور إلى تنظيم الأمور، فيرسل كلاًّ من الشاذين والمالك والطفلين إلى الطابق السفلي، ليسجنهم في غرف متفرقة. وبعد قليل من التذمر يوافق على منحنا غرفة التحقيق الصغيرة، عديمة النوافذ في الطابق الثاني، من أجل التحقيق مع نيجو.

يجلس نيجو بهدوء إلى الطاولة الموضوعة في منتصف الغرفة التي يثير جوها الضيق، منتظراً ما سيواجهه. فيما البقعة البنفسجية التي غطت جبينه نتيجة ارتطام رأسه بالحائط، تبدو كلطخة على وجهه الوسيم. وعلى خلاف الشراسة التي أبداها في الفندق، يظهر عليه قلق وخنوع جلي. ولكن من الغباء الانخداع بمظهره هذا، والظن أنه سيقدم لنا الأجوبة التي نبحث عنها بسهولة. فوحده الشيطان يعلم ما الذي يدور الآن في رأسه.

وبعد الانتهاء من إجراءات روتينية صغيرة بيننا وبين شعبة الأمن، نباشر عملية التحقيق مع نيجو. ينتصب مصطفى خلفه، فيما أجلس على الكرسي المواجه له. فيسحب يديه الموضوعتين على الطاولة في حركة دفاع آلية، ليضعهما على ركبتيه أغلب الظن.

اسمعني يا نيجو، لست متعطشاً لضرب أحد. وإن تجنبت الوقاحة التي أظهرتها في الفندق، فلن نؤذيك. ولكن إن حاولت التحاذق علينا.

تتحرك حدقتا عينيه العسليتين المرقّشتين ببقع خضر بسرعة.

– لا علاقة لي بالطفلين. – يقول مقاطعاً كلامي.

يضغط مصطفى بسبابته على عنق نيجو وهو يقول:

– لا تتواقح، فسيدي لم ينتهِ من كلامه بعد.

– أرجو أن تسامحني سيدي. – إذاً فقد بدأ يخاطبني بسيدي، وهي علامة جيدة على أنه بدأ يتماثل للخضوع. ولكنه مضطرب بسبب عدم قدرته على رؤية مصطفى، ويتوقع قِلقاً تلقيه ضربة في أي لحظة، لذا يحاول أن يدير رأسه.

ينقبض وجه مصطفى وهو يضغط بقوة على رقبة نيجو بسبابته.

– يبدو أن الركلات التي تلقيتها في الفندق لم تجدِ نفعاً. – يهدده ببرود.

يدير نيجو رأسه فتتواجه نظراتهما لكنه يشيح ببصره على الفور نحو سطح الطاولة الذي يلمع تحت الضوء. أقدم له سيجارة، ليتفاجأ بهذه المبادرة مني، حيث يقبلها متردداً. فأخرج ولاعتي وأشعل سيجارته. ويسحب نفساً عميقاً.

– في الحقيقة لا تهمنا قضية الطفلين. – أوضح له.

فتظهر علامات الاستفهام في عينيه، وهو يتساءل عن سبب اعتقالنا له. وبدل أن أجيب عن تساؤلاته، أفتح الملف أزرق الغلاف الموضوع على الطاولة. وأنا أتعمد التحرك ببطء. فهذا التباطؤ يثير حنقه. أخرج صورة ماريا من الملف وأمدها نحوه. ولكنه ورغم عدم فهمه لما يجري، يحمل الصورة بهدوء، فيما عيناه مركزتان عليّ. فأشير له بيدي نحو الصورة. يتأملها لفترة، دون أن تظهر على وجهه أي دلالة تشير لمعرفته المسبقة لماريا. وحين يرفع رأسه، أواجهه قائلاً:

– إياك أن تخبرني بأنك لا تعرفها. – أقول له.

يعود لتفحص الصورة من جديد.

– ولكنني حقاً لا أعرفها.

– بل تعرفها.

– كلا، لا أعرفها. – يقولها بحزم واضح.

– لقد أخبرتك منذ قليل ألاّ تتذاكى علينا.

تتسع عيناه دهشة، فيما يفغر فمه، قبل أن يسألني:

– ما الذي تحاولون توريطي فيه؟

أرفع نظراتي نحو مصطفى، مشيراً بوضوح لسأمي من سماع كلماته، وأنا أقول:

– لقد كنت محقاً، فهذا الوغد لا يفهم إلا بالضرب.

– تمهلوا تمهلوا – يقولها قلقاً – أنتم ترتكبون خطأً فادحاً.

أراقب يديه اللتين بدأتا بالارتعاش، وهو يعض شفتيه المكتنزتين بأسنانه التي اصفرّت بفعل التدخين. ورغم أنني لم ألحظ الأمر حين التقيته للمرة الأولى، لكن مع مواصلة مراقبة حركاته، وسماعه وهو يتحدث، بدأت أكتشف أنه يتحلى بطابع أنثوي. كما أنّ مصطفى أخبرني من قبل بأنّ نيجو شاذ. ولكن من غير المعلوم إن كان هذا الميل خياراً شخصياً نابعاً من أعماقه، أو أنها نتيجة إجباره خلال فترة مكوثه في السجن، على البقاء بمفرده لمدة طويلة مع أحد قبضايات الفئة الثالثة. وبحسب توقعات مصطفى فهو يقوم بممارسة الدعارة أيضاً. ولكنني لست مقتنعاً بذلك، فهو يحرص على إخفاء ميوله. وأستطيع القول إنه ناجح في هذا المجال. فطبقة صوته وحركاته لا تختلف عن أي رجل عادي. رغم أنه من الصعوبة

مكتبة

الحفاظ على شذوذه سراً، حيث الكل يعرفون بعضهم بعضاً في عالمه، وما أسرع انتشار الأخبار. ولكنه يواصل التستر على الأمر، لأنه يمس سلطته. فحتى أتعس الأطفال لا يخشون الشاذين في ذلك العالم.

يزداد قلقه، وهو تائه لا يعرف ما هي المصيبة التي حلّت عليه هذه المرة. حيث بدأت ثقته بنفسه التي حاول إظهارها حين إلقاء القبض عليه، بالتلاشي تدريجياً. وبعد انتهاء سيجارته يسحقها بضيق في المنفضة. يقرب يديه من جسده، ليضع يده اليسرى في قبضته اليمنى، ثم يبادل وضعهما. وهو ينتظر توضيحاً أو حتى اتهاماً مني، ولكن صمتي يكثف من مخاوفه.

– صدقوني أنا لا أعرف هذه الفتاة – يقولها في نبرة أشبه بالتوسل.

يخمن مصطفى ما يجول في ذهني، فينحني على أذنه، وهو يقول له بنعومة:

– لا تكذب.

– أنا لا أكذب – يردّ نيجو وهو يحاول الابتعاد قدر المستطاع عن مصطفى – ولم أرَ هذه الفتاة من قبل.

يسود صمت قصير، فيما تجول نظراته القلقة على وجهي قبل أن يسألني:

– هل ماتت؟

يسألني بنبرة صوت صادقة فيما يتكدر وجهه في قلق يبدو حقيقياً، حتى أنني أتساءل إن كنا قد قمنا بإلقاء القبض على الرجل الغلط. ولكن مصطفى يخالفني الرأي. فهو يسحب نيجو نحوه بيده اليسرى، فينتفض جسده في موجة ذعر، ولكنه لا يحاول الدفاع عن نفسه. ذلك أنه قد أدرك من تجاربه السابقة أنّ المقاومة لن تجديه نفعاً. يتكئ مصطفى على ظهر كرسيه وهو ينحي على أذنه اليمنى وهو يقول:

- إذاً فلنبدأ.

تجحظ عيناه ذعراً، وهو ينظر إليّ متوسلاً النجدة، ولكنني لا أبالي. أخرج علبة الدخان من جيبي، وأسحب سيجارة أضعها بين شفتي. وفيما أحمل الولاعة، يبدأ مصطفى بضرب القسم العلوي من أذنه في نقرات متلاحقة.

- آه.. آه.. توقفوا. لست من تبحثون عنه.

لا يظهر الغضب أو الغيظ على وجه مصطفى الذي يبدو شديد البرود، وهو يواصل ضرب أذنه بنقرات متتالية. بينما تهتز الإسورة الذهبية في معصمه مع كل نقرة جديدة كبندول الساعة. ومع ازدياد عدد النقرات، يتغضّن وجه نيجو ألماً.

- أنا لم أقم بقتلها. - يكرر متضرعاً. فأشير بيدي ليتوقف مصطفى حتى يسحب نيجو نفساً عميقاً.

- وكيف لك أن تعرف بأنها قد قتلت؟ - أسأله.

وبينما يحتضن بيده أذنه التي احمرت، يستفسر:

- وهل من احتمال آخر؟ - يقولها واثقاً من موت الفتاة - فكلما حصلت قذارة وعجزوا عن الإمساك بالمجرم، نكون أول من يُخوزَق.

- هناك شهود.

تغرق معالم الدهشة وجهه، فيما يلوح على فمه الفاغر شبح ابتسامة.

- لا بدّ أنكم تهزؤون بي - يعلّق.

- كفّ عن التغابي - يحذره مصطفى.

ينظر إليّ بعينين متوسلتين.

– لقد شاهدك أحدهم مع الفتاة – أوضح له.

– كذب – يتمتم عاجزاً – افتراء.

– أين كنت البارحة صباحاً؟

– البارحة صباحاً؟ – يفكر لوهلة.

فيما يواصل مصطفى اللهو بطريدته:

– ما الأمر، أهو خرف مبكر؟

– أحاول التذكر.. حسناً. أجل لقد تذكرت، البارحة صباحاً كنت في الحمام العمومي، وبقيت هناك حتى الظهيرة.

– أكنت تعاني من الإسهال؟

– أنا أعمل في حمام عمومي.

– كنا نظنك تعمل قوّاداً.

– تستطيعون التأكد من صاحب الكشك المجاور لي – يقول نيجو، متغاضياً عما قاله مصطفى.

– أهو أيضاً من أفراد العصابة؟ – يواصل مصطفى مضايقته.

– ليس هناك من عصابة. – يقولها في حدة واضحة – فالعم نوري رجل تقي، يواظب على صلاته.

– هل سيطرتم على المتدينين أيضاً؟

– لماذا لا تصدقونني؟ – يتضرع نيجو وسط عجزه، الذي سيتحول إلى

مكتبة

بكاء إن قمنا بالتضييق عليه أكثر – أنا لم أفعلها.. حسناً، أعترف بأنني لست رجلاً حسن السيرة، ولكنني لم أقتلها. ولا نية لي في التعفن في السجون من أجل أحد آخر.

– ولكن الشهود يقولون عكس ذلك. – أقولها ببرود.

يسيطر عليه الغضب.

– ومن هؤلاء الشهود؟ فليواجهوني إن كانوا صادقين.

– أين هي سيارتك؟ – يعود مصطفى للمشاركة في التحقيق.

تعلو الحيرة وجهه وهو يسأل:

– سيارتي؟

– أجل، الشاهين البيضاء، ما كان رقم لوحتها؟

– KZ 34 763 – يقول.

– أجل، هذا هو الرقم.

– ما الذي تحاولون الوصول إليه؟

– نحاول الوصول إليك أنت. أين هي السيارة؟

– لن توصلكم السيارة إلى أي شيء، فالأمر كان مجرد حادث. ولم أكن المذنب، بل سائق الشاحنة.

أتبادل ومصطفى نظرات الدهشة.

– ما الذي تهذي به؟ أي حادث هذا؟ – أسأله.

– أنتم تسألون عن السيارة، وها أنا أخبركم. فقبل ثلاث ليالٍ، اصطدمت بي شاحنة تحمل علب اللبن عند مدخل منطقة جاغلايان، فقد كانت الطرقات مبللة، وانحرفتُ عن الطريق، والخسائر كانت فادحة.

– اختلق ما تشاء. – يعلق مصطفى وهو يهز رأسه.

– أنا لا أختلق شيئاً، وإن أردتم، تستطيعون التأكد من قسم المرور في منطقة شيشلي. حيث جاء شرطي بدين، وكتب محضراً بالحادث.

– وأين هي السيارة الآن؟

– وأين ستكون؟ عند الميكانيكي.

– كم مضى على وجودها هناك؟

– جاءت الرافعة لأخذ السيارة بعد وقوع الحادث. ولن ينتهي إصلاحها قبل مرور أسبوع.

– نحن نتحدث عن الشاهين البيضاء، أليس كذلك؟

– لا أملك سيارة أخرى. – يبدو صادقاً جداً. فإن لم يكن ممثلاً بارعاً، فهو بالتأكيد يروي الحقيقة.

– اسمعني جيداً يا نيجو. – أقولها وأنا أصوب سبابتي نحو وجهه مهدداً – إن كنت تحاول التلاعب بنا، فأقسم بأنني سأقضي عليك.

– ولِمَ أفعل ذلك؟ كما أنكم تستطيعون التحقق مما أقول خلال أقل من نصف ساعة ثم يخرج بطاقة من جيب معطفه ويمدها إليّ وهو يردف – إنه رقم الميكانيكي، اتصلوا به لتتأكدوا، ومن الأفضل أن تذهبوا بأنفسكم لرؤية السيارة هناك.

أتناول البطاقة المصنوعة من كرتون سيئ النوعية، وقد طبع اسم «الميكانيكي عصمت» على خلفية خضراء داكنة، حيث تقع الورشة في المنطقة الصناعية في حي ليفينت الرابع. كما دوّن عليها هاتفا العمل والمنزل. فأتذكر شرف، وأتساءل عن السبب الذي دفعه ليكذب عليّ. فمن أين يعرف نيجو؟ وكيف تمكن من الحصول على رقم سيارته؟

تبدو الحيرة على وجه مصطفى أيضاً، والذي يتابعني بنظراته كمن يتوقع سماع توضيح ما. أعطيه البطاقة وأنا أقول:

– تحقق إن كانت الشاهين البيضاء هناك؟

يشير مصطفى إلى الساعة في معصمه وهو يسأل:

– في هذا الوقت؟

– أجل، لا وقت لدينا لتضييعه. واتصل بدائرة المرور أيضاً للتأكد من وقوع حادث قبل ثلاث ليالٍ في مدخل منطقة جاغلايان، ومعرفة الشرطي المناوب حينها.

يأخذ مصطفى البطاقة ويخرج من الغرفة، فيما يظهر الارتياح على نيجو. ورغم أنه لا يعرف ما الذي نريد الوصول إليه، لكنه يدرك بأنّ قضية السيارة أمر في غاية الأهمية. إلا أنه يجلس مطمئناً، لامتلاكه أدلة تثبت براءته.

– هل أستطيع أخذ سيجارة أخرى؟

وفيما أناوله العلبة والولاعة، أسأله:

– أين تقيم؟

– في منطقة دولاب ديرى. خلف المقهى الذي في بداية الطريق الصاعد

نحو إليما داغ. كان منزل المرحوم والدي. – ويشعل سيجارته.

– كنت أظنّك لا تملك أباً.

يمتقع وجهه، ولكنه يسايرني.

– وهل هناك شخص يولد دون أب؟ فالحمد لله أنا أيضاً كبقية الناس لدي عائلة وأب.

وما أن ينهي كلماته، حتى يسحب أنفاساً متلاحقة من السيجارة.

– هل يصدف أنك تتجه أحياناً نحو منطقة كورتولوش، وفيري كوي؟

– وما المانع آبى؟ فقد قضيت سنوات طفولتي هناك.

– وهل يعرفونك هناك؟

– هناك من يعرفني، ومن لا يعرفني. في السابق كان لدي الكثير من المعارف هناك، وكنا دوماً ما نقوم بملاحقة الفتيات.

– وما كان موقف شباب منطقة كورتولوش؟

– إنهم ثلّة من المخنثين، ولم نكن على وفاق معهم. فهم يعاملوننا باحتقار، ولا يكنون لنا أي احترام.

– ألأنكم من الغجر؟

– ربما، ولكنني لست من الرومان[11] آبى – يقولها مشدداً على كلمة رومان.

– من أين أنت؟

– ولدت ونشأت في إسطنبول آبي. ليس هناك شخص في ملاهي بيه أوغلو القديمة يجهل أبي. إنه رئيف الغرناطي الشهير. كان أسمر طويل القامة، وكل العاهرات حينها كنّ يتحرقن شوقاً للتقرب منه.

– وأمك؟

يعود لسحب نفس عميق من سيجارته، قبل أن يوضح:

– لم يتركوا أمي في حال سبيلها. – ينفث الدخان في شرود – كانت امرأة جميلة. وما زلت أذكر ما كانت ترده على الدوام «الجميلة تجلب الكثير من الأعداء يا بني» كما كانت تقول «إنّ الحسناء مبتلية بسوء الحظ» وهذا ما حصل بالفعل. فبعد أن تزوجت والدي، تخلت عن عملها القديم، وتحولت إلى ربة منزل. ولكنهم قاموا بخطفها في وضح النهار. فقد كانت جميع الأعين في دولاب ديرى عليها. ولم يبقَ مكان لم نبحث فيه عنها، وجال والدي على جميع المخافر، دون أن نعرف عنها شيئاً. وكان أصدقائي يرددون «أمك عاهرة، وقد هربت من المنزل برغبتها». ولكنني لم أصدق ذلك بالطبع. لأنها كانت مجرد افتراءات. وبعد خمس سنوات علمنا بخبر موتها طعناً بالسكين في ماخور مرعش.

– تبدو كقصة فيلم تركي. – أعلق.

– حقاً تشبه قصص الأفلام. – يكرر وهو يضحك بمرارة – بل إنها فيلم سينمائي.

يحني رأسه قليلاً، ولا أعرف إن كان يحاول إخفاء عينيه الدامعتين، أم أنه يحاول خداعي.

– هل أقدمت على ارتكاب أي مشكلة في منطقة كورتولوش؟

يحاول نيجو في ظلّ جهله بمقاصدي، اختيار أقل الأجوبة ضرراً.

– لن أخفي عنك شيئاً، فقد تمّ اتهامي بإحراق أحد المقاهي الواقعة في أحد الأزقة القريبة من نهاية الحي، والتي كانت وكراً للقمار أيضاً، ولكني أقسم لك إنني بريء من هذه التهمة. كما أنني لم أمكث طويلاً في السجن حينها.

يخطر لي لوهلة أن أسأله عن شرف، ولكنني أبعد الفكرة عن ذهني على الفور، فلو كان نيجو كاذباً، فهذا يعني أنني كشفت عن مصدر معلوماتي له.

أفتح الملف الأزرق من جديد، وأتصنّع قراءته.

– كما أنك متورط في جرائم خطف الأطفال أيضاً.

يعاوده قلقه السابق.

– لا يا آبي، الموضوع ليس كما تعتقد. إنهم أطفال فقراء، مشردون يعيشون في الشوارع، ويمتهنون التسول. ولكن أين سيجدون أمكنة للتسول بعد أن تمّ إشغال كل الزوايا والطرقات. لذا طلبوا مساعدتي، فوضعتهم تحت حمايتي.

– ولكن الطفل الذي اشتكى عليك، قال أشياء مغايرة تماماً، فقد ادعى أنك قمت بخطفه وكسر ذراعيه وإحدى ساقيه، وتعمدت تجبير عظامه بطريقة تبقيه مشوهاً، كما أنك قمت بالاعتداء عليه عشرات المرات، من أجل أن يعتاد عليك.

– محض أكاذيب. – يقولها جازماً وكأنه بريء بالفعل من هذه التهم التي تقشعر لها الأبدان – فقد تعرض إلى هذه الاعتداءات على يد عصابة أخرى ولكنهم ألصقوا التهمة بي، لأنني كنت أعمل جاهداً على مساعدة هؤلاء الأطفال. كما أنّه قام بتغيير أقواله فيما بعد.

– تعني أنك تقوم بمساعدة الأطفال، أليس كذلك؟

إما أنه لم يدرك أنني أتهكم، أو أنه يحاول التغافل.

– هذه هي الحقيقة آبي. – يجيب.

– وهل يقومون باستغلال الأطفال فقط في أعمال التسوّل؟

– لا علاقة لي بهذه الأمور على الإطلاق. – يحاول التنصل من أي اعتراف، ولكنه بالمقابل لا يريد أن يثير حنقي، فيضيف – ولكن بحسب ما سمعت، فهم يقومون باختيار الأطفال المشردين، والأيتام الذين لا يملكون أحداً يبحث عنهم، وبالذات ضئيلي الحجم، من ذوي العيون السود الواسعة.

– ذوي العيون السود الواسعة؟

– وجوه أولئك الأطفال. كيف لي أن أشرح لك؟ تحمل طابعاً حزيناً. وحين يراهم الناس يشفقون عليهم، ويشعرون بتأنيب الضمير، ولا يتورعون عن منحهم النقود.

– وهل يقومون باستغلال الشباب أيضاً؟

– لا آبي، فلا أحد يريد تشغيل شخص بالغ في التسول. بل قد يستغلونهم في أعمال السرقة مثلاً.

– وماذا عن المجانين، والمتخلفين عقلياً؟

– المجانين غير قادرين على استجرار شفقة المارة. بل يثيرون ضحكاتهم. كما أنهم مقتنعون بأنّهم لن يستفيدوا من النقود التي سيهبونها لهم.

– وماذا عن أعمال الخطف، والاتجار بالأعضاء البشرية؟

يسألني وكأنه لا يفهم ما أعنيه:

– ما الذي تعنيه بالاتجار بالأعضاء؟

– أعني عمليات الخطف التي تتم من أجل بيع أعضائهم للمستشفيات الأجنبية التي توفر لمرضاها من الأغنياء أعضاء بشرية كالقلب والكلى وما إليها.

– إنها المرة الأولى التي أسمع فيها بهذا الأمر. وإن وجدت تجارة مماثلة كما تقول، فأنا لا أعلم عنها شيئاً. إذاً فهم يقومون بتقطيع الناس، وبيعهم للكفرة؟ يا للأهوال التي تحصل من حولنا.

وفيما يهزّ رأسه مظهراً التأسف، مستنكراً ما سمعه للتو، يدخل مصطفى بوجه عابس.

– السيارة موجودة لدى الميكانيكي. – يقولها بامتعاض.

– وماذا عن دائرة المرور؟

– لقد أكدوا ما قاله نيجو. فالسيارة التي نبحث عنها تعرضت لحادث مروري منذ ثلاثة أيام.

– أخبرتك أنني صادق فيما أقوله آبي – ويضيف بابتهاج بعد أن تملّص من التهمة – لقد أخبرتك الحقيقة دون زيادة أو نقصان.

– اخرس – يزجره مصطفى – فلم ننتهِ منك بعد.

يطأطأ نيجو برأسه بعد أن قضى مصطفى على بهجته، فأعود للتفكير في شرف، والسبب الذي دفعه ليكذب علينا. ربما اختلق حادثة الخطف، للانتقام من نيجو الذي يكنّ له العداوة مثلاً. لا، لا يبدو لي تفسيراً مقنعاً. لا بدّ من وجود سبب آخر. ولكن أهو سبب متعلق بخطف مينة يا ترى؟

– أتعرف أحداً باسم شرف؟

– أهو قاطن في كورتولوش؟

– أجل، يعمل في البقالة.

– وأظنه يعمل في الأعمال العقارية أيضاً أليس كذلك؟ – يسألني نيجو.

– صحيح. أجل إنه يعمل في السمسرة.

– السمسرة؟ تعني أنه يعمل في النصب والاحتيال.

– أي أنك تعرف الرجل؟

– إنه قذر لا يتورع عن ارتكاب أي شيء.

– أهناك خلاف بينكما؟

– لاااا. فأنا لم أتورط معه، كما أنه لم يحاول الاقتراب مني.

– ولكنك لا تحبه.

– هل يمكنك أن تحبّ شخصاً يقوم بنبش قبر شخص ميت آبي؟

– يتحدث وكأنه ملاك طاهر لا ينقصه سوى جناحين ليحلق بهما فوق رؤوسنا؟ – يتهكّم مصطفى.

– هل يقوم بنبش القبور؟ – أسأل نيجو متجاهلاً سخرية مصطفى.

– بل يقوم بالأسوأ. فهو يقوم بترهيب العجائز الروم ممن هاجر أبناؤهم إلى اليونان خوفاً، وذلك من أجل شراء منازلهم بثمن بخس.

– هل لك أن توضح الأمر أكثر؟

– لنفترض أنك تنحدر من أصول رومية، وتملك منزلاً قديماً أو عمارة قديمة من طوابق عدة. سيبدأ هذا الوغد بمحاولة إقلاق راحتك، برمي الحجارة على

النوافذ ليلاً، وكتابة عبارات تهديد على الجدران، أو إرسال رسائل تهديد دون توقيع إلى منزلك وما إلى ذلك. ولكنه لا يكشف عن حقيقة نواياه، بل يحاول أن يظهر أمامك بمظهر الجار الودود الذي يقوم بحماية سكان الحي، وينصحك ببيع ممتلكاتك أو اللجوء إلى إحدى جمعيات الروم الخيرية للإقامة فيها، بل وينصحك بالسفر إلى اليونان إن كان لك أقرباء هناك. وإن انطلت عليك الحيلة، يقوم بشراء منزلك بثمن بخس. ويقوم بهدّ العمارة القديمة، ليبني بدلاً منها عمارة عصرية بطوابق مضاعفة مرات عدة.

– ولماذا لا يشتكي عليه الناس؟

– معظمهم لا يدركون حقيقة لعبته القذرة. وحتى لو قدمت الشكوى، فما الذي سيحصل حينها في ظلّ عدم وجود تهمة فعلية أو متهم؟ وكما تعلم فمعظم مواطنينا الروم معروفون بأنهم جبناء بعض الشيء.

أرفع رأسي عن الملف فأجد مصطفى يرمقني بنظرات توحي بالكثير، وأظنه يشاركني التفكير في الأمر ذاته.

– وهل تعرف إن كان متورطاً في أعمال أخرى؟ كالاعتداء المسلح أو الخطف والقتل؟

– لا يا رجل، فهو يتورّع عن التورط في أمور كهذه. إنه أجبن من أرنب. ولكن لماذا تسألون عنه؟

– لا لشيء، إنها قضية مختلفة. – أقولها بلامبالاة فيما يحدجني بنظرات مدققة.

– أهذا الوغد هو من افترى عليّ؟ – ومن ثم يخبط يده اليمنى باليسرى وهو يكمل – بالطبع، فذلك الوغد من أوقع بي بهذه الطريقة القذرة.

– توقف عن الشتم – يحذره مصطفى ولكنه لا يلقي إليه بالاً.

– هل ترى يا آبى، أنا لم أرتكب أي سوء، إنها مجرد افتراءات دنيئة من هذا القذر. – يكرر القول.

وقبل أن يكمل جملته يصفعه مصطفى صفعة طنانة على عنقه وهو يقول:

– لقد أخبرتك أن تتوقف عن الشتم.

يكاد وجه نيجو الغافل عن الضربة يلتصق بسطح الطاولة من شدة الضربة.

– لماذا تستمر بضربي آبى، بِمَ أسأت إليك؟

– اخرس أيها القذر. وماذا عن الطفلين اللذين عثرنا عليهما قبل قليل؟ هل ستدّعي أنّ شرف هو من كان يقوم بتشغيلهما في الدعارة؟

ويواصل مصطفى الذي استشاط غيظاً منه، صفع وجهه ذات اليمين وذات الشمال صفعات رنانة. فأنهض مسرعاً لإيقافه، وأحمد الله أنه لا يترأس هذا التحقيق، وإلا لتمّ إسعاف نيجو منذ الدقائق الأولى.

– اهدأ قليلاً. – وأمسك به بقوة، وبالكاد أتمكن من تهدئته.

– هذا الوغد يكذب علينا دون حرج أو خوف. – فيما يزفر بشدة. ولكني لا أريد أن أزجره أمام نيجو.

– عليك أن تهدأ أولاً. – أقول له.

يتراجع مصطفى حين يتكهن بالتهديد المبطن الذي تحمله كلماتي.

– حسناً – يقولها في صوت يرتعش غيظاً – أنا هادئ.

فيما يراقبنا نيجو بذعر، وهو يغطي وجهه بيديه المرتعشتين.

الفصل الخامس عشر

وأخيراً، استطعنا النجاة من هرج قسم الشرطة، وخرجنا إلى هدوء الشارع مجدداً. أقود السيارة فيما مصطفى يجلس إلى جواري يفكر بعمق، لا بدّ أنه يريد معرفة رأيي حول رد فعله مع نيجو أثناء التحقيق، ولكنه لا يجرؤ على سؤالي صراحة، وبدوري لا أرغب في أن أريحه. بل أخرج دفتر الملاحظات من جيبي وأعطيه له.

– انظر بالضبط أين هو عنوان هذا الوغد.

لكنه لا يستطع القراءة في العتمة، فأشعل ضوء السيارة العلوي، لينعكس على عينيه ولتأخذ الحروف شكلاً واضحاً.

– أظنه في الصفحات الأخيرة. – أقول.

– أجل، ها هو: شرف كورو، شارع جيفزلي، رقم ثلاثة. هل سنقوم باعتقاله؟

– بأي تهمة؟

– التهديد، والاستيلاء على منازل الناس بالغش والخداع.

– ولكن لا توجد ضده أي شكوى، كما أننا لا نمتلك أدلة تدينه.

– وماذا عما قاله نيجو؟

– لن يفيدنا الأمر في المحكمة.

– إذاً ما الحل؟

– سنقوم بإخافته.

– هل سنضربه؟

– بل سنفعل ما هو أفضل.

الشوارع خالية، لذا نصل إلى منزل شرف بسرعة. أضواء منازل العمارة مطفأة، لا بدّ أنهم غارقون في نوم عميق. أفكر في إرسال مصطفى، ولكنني أتخلى عن الفكرة، فقد يرفض النزول ما لم أكن موجوداً. يترجل كلانا من السيارة، لكن باب العمارة مغلق، فنبحث عن اسمه بين سكان البناء، ها هو؛ شرف كورو. أضغط الجرس ثلاث مرات متوالية. بعد لحظات يشعل ضوءٌ في الطابق، ونسمع صوت فتح إحدى النوافذ، حيث تطل عجوز بغطاء رأسها وهي تسألنا في صوت قلق:

– عمن تسألون؟

– نريد التحدث مع شرف.

– وما الذي تريدونه منه في مثل هذا الوقت؟ من أنتم؟

– نحن أصدقاؤه يا خالة، إن فتحت لنا الباب سأشرح لك الأمر.

تدخل المرأة، وبعد برهة يطل شرف بسحنته الناعسة.

– من أنتم؟

– هذا أنا – أقولها في نبرة تشي بالثقة وأنا أرفع يدي نحو الأعلى – المحقق سِدات، هل تذكرتني؟

مكتبة

– سِدات آبي! – يحلّ الفضول مكان الاستياء في صوته – ما الأمر، هل من خطب ما؟

– لا شيء مهم، ولكن هلاّ تفتح الباب لنتحدث؟

– حسناً، سأفتحه على الفور.

يفتح قفل الباب الآلي، وبعد صعود مقطعين من السلالم، نصل إلى الطابق الذي يقطن فيه، حيث نجده ينتظرنا أمام باب منزله.

– أعتذر لأننا قمنا بمضايقتك، ولكننا ألقينا القبض على ذلك الوغد، ونريدك أن تتحقق من شخصيته.

– أمسكتم به؟ – يسأل مندهشاً.

– بالطبع أمسكنا به، لِمَ أنت مندهش؟

– لاا.. لست مندهشاً، ولكنني لم أعتقد أنّ الأمر سيتم بهذه السرعة.

– إذاً فأنت تستهين بقدرة الشرطة التركية؟

– العفو سيدي، ليس هذا ما قصدته.

– من هؤلاء يا شرف؟

إنها السيدة العجوز وقد وقفت خلف شرف.

– الشرطة – يقولها في ضيق ولكنه يتدارك بسرعة – لا تخشي فهم أصدقاء، سأرافقهم إلى المخفر للإدلاء بشهادتي وأعود على الفور.

يفتح الباب أكثر لتظهر امرأة مسنة مغطاة الرأس، بوجه سمح يغشاه بعض القلق.

– هل ستأخذونه الآن؟

– العدالة لا يمكنها الانتظار يا خالة. – أجيبها.

– أي شهادة هذه؟ أهو أمر سيئ لا سمح الله؟

– لا على الإطلاق، ولكن شرف يقوم بمساعدتنا مشكوراً.

يراقبني شرف بدقة فيما أحدث والدته، لكن نبرتي المطمئنة تبث الراحة في نفسه أيضاً.

– سأبدل ملابسي ونذهب. – يقول وهو يدخل.

– تفضلوا يا بني، وإن كان لديكم وقت سأعدّ لكم فنجان قهوة. – تعرض علينا الأم.

– شكراً جزيلاً، ونعتذر لأننا أيقظناكم في مثل هذا الوقت وسببنا لكم الإزعاج.

– لقد كنت مستيقظة يا بني، من أجل صلاة الفجر.

– ليتقبّل الله. – أقول.

تبتسم المرأة العجوز.

– جمعاً. – ومن ثم تردف – هل تقضون الليل كله في الشوارع هكذا؟

– إن اقتضت ظروف العمل.

– فليلهم الله أمهاتكم وزوجاتكم الصبر يا بني، فمهنتكم في غاية الصعوبة.

وحين يعود شرف، ترتسم الخشية على وجهها مجدداً.

– لا تتأخر. – تقول له محذرة.

ينظر إليّ شرف بعينين يلوح فيهما القلق فيما أجيبها:

– لا تقلقي، سيعود في غضون ساعات.

وحين نخرج من العمارة، أعطي مفتاح السيارة لمصطفى وأنا أقول:

– ستقود أنت.

يجلس مصطفى خلف المقود، فيما أفتح الباب الخلفي وأشير لشرف بالصعود، لأجلس إلى جانبه. تراقبنا والدته من النافذة وهي تلوح بيدها، لكن مخاوف شرف تمنعه من رؤيتها.

– إلى أين نحن ذاهبون؟

أضع سبابتي على شفتي مشيراً له أن يصمت، فيصيبه الذعر عندما يرى التغير الذي طرأ عليّ، ولكنه لا يجرؤ على السؤال، في حين نحافظ أنا ومصطفى على صمتنا. وحين تخرج السيارة من الحي، ينفد صبره، ولكنه يلجأ للمراوغة لفهم ما يجري.

– إنك سريع في عملك سيدي. – يقول محاولاً تملقي – لقد عثرتم عليه في لمح البصر.

– لقد ساعدتنا الأرواح. – أعلق.

– الأرواح؟

– أجل، أرواح الأشخاص الذين سطوت على منازلهم.

حينها يدرك أنّ ما يخشاه قد وقع بالفعل.

– لا أفهم عما تتحدث. – يقول.

– ستفهم بعد قليل. – أقولها بحزم واقتضاب.

– إلى أين نحن ذاهبون؟ – يعيد السؤال.

– هل ودعتك أمك كما يجب؟ – أقول وكأنني لم أسمع سؤاله.

– ما الذي تعنيه سيدي؟

– كف عن ذلك يا رجل، فلست بذلك الغباء الذي تدّعيه.

– لكنني لم أفعل شيئاً سيدي، أقسم لك إنني لم أفعل شيئاً، لقد كذب عليكم اللقيط نيجو.

– اللقيط نيجو؟ ومن يكون؟ – أسأله، ومن ثم ألامس كتف مصطفى وأنا أسأله – هل تعرف أحداً بهذا الاسم؟

– لا، لم أسمع به من قبل. – يجيبني من دون أن يرفع نظره عن الطريق.

– لم تسمع به؟ – يسأل شرف يائساً.

– ولكن إن أخبرتنا بما لديك فقد تفيدنا. – أقول.

– صدقني لا ذنب لي سيدي. – يكرر متغافلاً عما قلته – هو من حاول خطف الفتاة.

– ولكن ليس هذا ما أخبرتنا به ماريا.

– إنها لا تعي ما تقول، فالكل يعلم أنها مجنونة.

– كفّ عن الثرثرة، وأخبرني إن كنت تملك حزاماً.

– ماذا؟ ما الذي تعنيه؟ – يدمدم في ذعر.

– ألديك حزام؟

يتفقد خصره، وكأنه يريد التحقق.

– أجل، ها هو.

– اخلعه. – آمره في برود جليدي.

– حزامي؟

– أجل، اخلعه على الفور.

– ما الذي تنوي فعله؟

– لا تجعلني أكرر ما أقوله، اخلع الحزام.

فيسرع لتنفيذ الأمر، ويعطيني الحزام.

– والآن هات يديك. أحسنت، قرّبهما.

– صدقني أنت ترتكب خطأ كبيراً حضرة المحقق. – يقولها فيما أوثّق يديه.

– أنت من ترتكب خطأً، فأنا لست محققاً.

يسألني وقد ذهبت الصدمة بعقله:

– من تكون إذاً؟

– دعك مني وأخبرني الحقيقة، منذ متى وأنت تعمل لصالح الـ (KYP)؟

– ومن هؤلاء؟

– المنظمة التي تقوم بدعمك، لا تخبرني بأنك لا تعرفها؟

– لا أعلم ما الذي تتحدث عنه آبي، أقسم لك إنني لا أعمل مع أي منظمة إرهابية.

– أتعني أنك لا تعرف الـ (KYP)؛ قوى الاستخبارات اليونانية؟

يكاد يقفز من مكانه هلعاً.

– ما الذي تقوله آبي؟ حمداً لله فنحن مسلمون، كيف لي أن أعمل مع اليونانيين أو سواهم؟

– لكنهم أعطوك الكثير من النقود.

– كذب آبي! فلتنزل عليّ صاعقة للتو إن كنت أكذب.

– لقد طلبوا منك ترويع المواطنين الروم، لكي يتجهوا للعمل معهم.

– إنهم يفترون عليّ آبي، أيعقل أن أرتكب قذارة كهذه؟

أخاطب مصطفى قائلاً:

– كنت محقاً، فهذا الوغد لن يعترف بسهولة.

– لقد أخبرتك بذلك. – يقول مصطفى في هدوء – فأنا أعرف أمثاله، لذا علينا حلّ المشكلة من جذورها، فالتحقيق والمحاكم لن توصلنا لأي نتيجة.

– أرجوكم تمهلوا، فأنتم ترتكبون خطأً فادحاً. فأنا لا أعمل مع اليونانيين.

– إنه مصرّ على الإنكار والكذب.

– أقسم إنني لا أكذب آبي. – ويردف بصوت مرتجف – أرجوك آبي. فأنا لست قذراً إلى هذا الحد – ويجهش في البكاء دون خجل.

– كفّ عن النواح، وكن شجاعاً، ومُت كما يموت الرجال.

حين يسمع كلمة الموت يصيبه الهلع.

– أشفق عليّ آبي – ويهمّ بتقبيل يدي، فأدفعه بكل قوتي ليرتطم بنافذة السيارة، ولكنه يواصل التوسل – سأفعل كل ما تطلبونه مني، ولكن لا تقتلوني. سأصبح عميلاً لديكم طوال حياتي.

– أنت لا تصلح سوى لعمالة اليونانيين. –أقول.

– لماذا لا تصدقني آبي؟ أنا لا أعمل مع اليونانيين أو سواهم. حسناً، أعترف أنّني كنت أنوي ترويع المدام، واختلقت القصة وحاولت توريط نيجو، ولكن لا علاقة لي مطلقاً باليونانيين.

– ما عدد الأشخاص الذين استوليت على منازلهم بهذه الطريقة، وإياك أن تكذب.

– حسناً آبي – ويمسح أنفه – لن أكذب. كانوا ثلاثة. لا لا أربعة، أحد الأرمن، وثلاثة من الروم – يصمت لبرهة قبل أن يردف – أعترف أنه عمل دنيء، ولكن أقسم لك إنني لا أعمل لصالح اليونانيين.

– ولكنهم يستفيدون مما تقوم به، حيث يقنعون الروم بأنّ الأتراك قوم سيئون، وبالتالي يجندونهم للعمل لصالحهم.

– أقسم إنني لم أكن أعرف آبي. من المحال أن أقدم على أمر مماثل لو

كنت أعلم ما تقول.

– أحقاً ما كنت لتقدم على الأمر؟ – أسأله.

– بالطبع لا آبى – يقولها بثقة – أقسم لك بشرفي إنني ما كنت لأفعل، فأنا مستعد للتضحية بنفسي من أجل بلادي.

بالكاد أستطيع كبح ضحكتي، وأنا أتجه نحو مصطفى.

– ما رأيك بما يقوله؟

– لست مقتنعاً سيدي. – يواصل لعب دوره – فحتى لو لم تكن له علاقة باليونانيين، فهذا القذر لن يتوقف عن هذه الممارسات.

– سأتوقف آبى، أقسم إنني سأفعل ذلك، وإن شئت تعال غداً، وسترى أنني أزلت كل الإعلانات العقارية من واجهة الدكان. سأكتفي بالبقالة.. فقط البقالة، وبيع الخبز والبيض ومسحوق الغسيل.

أطرق في صمت، بينما يراقبني شرف وقد جحظت عيناه خوفاً، بانتظار ما سأقرره.

– سأعطيك فرصة ثانية، ولكن عليك أن تقسم لي قسم الموت. – أقول.

– أي قسم؟

– قسم الموت، هل أنت موافق؟

– موافق آبى، سأقسم لك أي قسم تريد.

– على رسلك، ولا تقل لي سأقسم وسأفعل، فقسم الموت قانون حقيقي. فإن أخلفت بقسمك سيكون ذلك بمثابة تصديقك وثيقة موتك.

– موافق، وسأقسم على أي شيء آخر تريدونه.

– يكفي أن تقسم بحياتك.

– حسناً، إن عدت لهذا العمل القذر مجدداً، فيحق لكم أن تقوموا بقتلي.

– أرجو ألاّ نضطر لفعل ذلك. – أعلق.

– لا آبى، لن تضطر لفعل شيء، فمن الآن وصاعداً لا علاقة لي بهذه الأمور على الإطلاق.

– سنرى. – يقول مصطفى.

– سترون أنني سأصبح رجلاً باستقامة الصراط – يؤكد شرف.

– إذاً هات يديك.

أفك الحزام عن يديه، فيسحب نفساً عميقاً.

– فليحفظكم الله سيدي، وصدقني بأنك لن تندم.

– هناك أمر آخر. لا يجب أن تخبر أحداً بما حدث بيننا، ولا تحاول تقديم أي تفسير للمدام، أنا سأتحدث إليها.

– كما تشاء سِدات آبى، فأنا اشعر بالخجل من النظر إلى عيني المسكينة.

أعود لألامس كتف مصطفى مجدداً.

– دعنا نعيده إلى المنزل، حتى لا تقلق والدته.

– العفو آبى، لا تكلف نفسك هذه المشقة، سأنزل هنا. يكفي ما سببته لكم من متاعب حتى الآن.

– هل ستجد سيارة تقلك؟

– سأتدبر أمري آبى، أنزلني هنا في زاوية الشارع.

– حسناً، كما تشاء.

يركن مصطفى السيارة يميناً، فيرمي شرف بنفسه خارجاً.

– لا تنسَ ما أقسمت عليه – اذكره.

– أيعقل أن أنسى آبى؟ جزاكم الله كل خير لأنكم قمتم بإرشادي إلى الصواب.

يغلق الباب بهدوء ويسير مسرعاً في الاتجاه الذي أتينا منه.

يراقبه مصطفى بابتسامة ماكرة وهو يبتعد عنا. فأترجل من السيارة وأراقبه بدوري وهو يسير بخفة وسرعة وكأنه تخلص من حمل ثقيل. وأفتح الباب الأمامي وأنا أقول لمصطفى:

– إن شئت دعنا نغير أماكننا. لأنك ستنزل قبلي.

ينزل مصطفى لنتبادل الأماكن، وفيما أبدأ بالقيادة يعلّق قائلاً:

– يا له من جبان.

فأبتسم وأنا أغمزه ليبادلني الابتسامة. ثم يسألني في فضول:

– أحقاً هناك قسم للموت؟

– ما رأيك؟

يفكر لبرهة قبل أن يضحك.

- بالطبع لا. ولكن هل سيعاود ما كان يقوم به؟

- سيتوقف لمدة عام على أقل تقدير. لكنني لست متأكداً مما سيحصل بعد ذلك.

يسكت كلانا بعض الوقت قبل أن يتحدث مصطفى وكأنه تذكر أمراً مهماً:

- سيدي. أريد أن أعتذر منك.

ألتفت نحوه وأنا أسأله:

- لِمَ؟

- لأنني أخطأت التصرف أثناء التحقيق مع نيجو.

لم أعرف إن كان يريدني أن أسامحه، أم يودّ معرفة رأيي حول طريقة تصرفه.

- إنه شخص قذر بالفعل، أليس كذلك؟

وأعود لمراقبة الطريق.

- بالفعل هو كذلك. والأسوأ أنه كان يحدثنا عن الأخلاق بكل وقاحة.

فأدرك أنّ هدفه ليس الاعتذار، وإن حاولت مجاراته أكثر سيستمر في تبرير تصرفه.

- في بعض الأحيان تختلط مشاعرنا مع سير العمل، فنحن نظل بشراً في النهاية.

- أجل، كما أنّ منظر الطفلين قد أثّر فيّ كثيراً.

أختلس النظر إليه، فأجده عاد لمراقبة الطريق وقد بدت الراحة عليه بعد اقتناعه بصواب ما قام به.

– سأخبرك بشيء، ولكن عدني ألاّ تستاء من كلامي.

– العفو سيدي، تفضل.

– في الحقيقة لم يكن استياؤك بسبب الطفلين.

في البداية يهمّ بالدفاع عن نفسه، ولكن يتمهل مفكراً ليدرك ما أرمي إليه.

– وهل هناك من سبب آخر يدفعني للاستياء؟

– لقد استأت لأننا أخطأنا.

– لأننا أخطأنا؟

– أجل. لقد بنيت جميع حساباتنا على افتراض أن نيجو هو المذنب. ولكن عندما تبينت براءته من تهمة خطف مينة، بدأتَ بالاعتقاد أنّ كل جهودنا كانت عبثاً، وهذا ما أثار حنقك الذي أفرغته في الاعتداء عليه.

– ولكن جميع الدلائل كانت تشير إليه.

– صحيح. فمن الصعب العثور على متهم تجتمع فيه كل الأدلّة مثل نيجو، وهذا ما دفع شرف ليرمي به أمامنا، وقد ابتلعنا هذا الطعم المزيف، وإن شئت الحق فقد تمّ خداعنا. ولكن لن تصل إلى شيء إن أفرغت جام غضبك على نيجو. ومن جهة أخرى، فتقليل الاحتمالات يعني الاقتراب من الحقيقة أكثر. لذا لا يمكن اعتبار كل ما قمنا به مجرد خطوة فاشلة.

يسمعني مصطفى في صمت، ودون أي اعتراض.

– أنت محق.

يوافقني الرأي رغم الضيق البادي على وجه، وفيما أفكر بضرورة مناقشته وإقناعه، تظهر سيارة (BMW) سوداء من أحد الشوارع الجانبية بسرعة جنونية، فأضغط المكابح بقوة تجعل العجلات تصدر صفيراً حاداً، لكننا نتوقف قاب قوسين أو أدنى من السيارة ونتفادى الاصطدام. أما الثلاثة الذين داخل السيارة الأخرى فيبدون غير مبالين بما حصل تماماً.

أطلق بوق السيارة بتلاحق وحِدة لكنهم ينطلقون مسرعين بلامبالاة مزعجة. لا بدّ أنهم من محدثي النعمة الذين ظهروا فجأة بعد ازدهار أعمالهم في البورصة والصرافة.

– دعنا نمسك بهم سيدي – يقول مصطفى غاضباً.

– دعك منهم. لا نريد إضاعة الوقت في ملاحقتهم، يجب أن نعود إلى منازلنا وننال قسطاً من النوم.

كما أنّ السيارة تختفي عن ناظرينا بسرعة، بحيث يتعذر اللحاق بها.

يخيّم علينا الصمت حتى نبلغ منطقة تشفيكية حيث منزل مصطفى، الذي يقبع في مقعده عابس الوجه، وأغلب الظنّ أنه مستاء من حديثي.

حين نصل أمام البناء الذي يقطنه، أركن السيارة وألتفت نحوه قائلاً:

– اسمعني جيداً يا مصطفى. ما أخبرتك به منذ قليل ليس بهدف اتهامك، كما أنني لست مستاء من ضربك لذلك الوغد القذر. لكنني أنا لست مسؤولاً أمام رؤسائي، بل أمام مرؤوسيّ أيضاً. ومن واجبي أن أذكرك بقواعد عملنا، ورفض أو قبول ما أقول هو شأن يعنيك وحدك.

– على العكس سيدي، فإرشاداتك تفيدني على الدوام. – ولكنني لا أعرف إن كان مقتنعاً بما يقوله، أم أنه يحاول مجاراتي والتملّص مما قام به.

– إذاً أراك غداً. – أقول.

– مع السلامة. – وينزل من السيارة. ربما كل ما في الأمر هو أنه يشعر بالفشل، وأنّ أي غلطة يرتكبها في العمل، تعني نهاية عالمه.

يسير بخطوات رشيقة نحو باب البناء ويلتفت ملوحاً بيده، حين أنطلق باتجاه نيشان تاشى.

يقطن مصطفى مع والدته العجوز في الطابق الثالث من أحد الأبنية القديمة. وقد ورث المنزل عن والده الذي كان مدير أحد البنوك، ولكن المسكين توفي إثر نوبة قلبية قبل تقاعده. كما أنه مثلي وحيد عائلته، درس في ثانوية إسطنبول للذكور، وتلقى تعليماً ألمانياً صارماً هناك، وأظنها من أكسبته الانضباط. ثم درس الحقوق، وانضم لقوى الأمن من خلال الإعلان الذي ورد في الجريدة، ولكن المصيبة أنّ القدماء والجدد ينفرون من هؤلاء الشباب، ويعتبرونهم أقل شأناً، بل لا يعتبرونهم جزءاً منا. والسبب أنّ معظمهم قد بدأ العمل معنا نتيجة مغامرة أو سيرة مهنية لامعة.

أما بالنسبة إلينا وإلى الجيل السابق، فقد كانت مشاعرنا القومية أقوى. وهذا ما يجب أن يكون عليه الأمر، فمهنتنا ليست مجرد عمل يدرّ عليك دخلاً جيداً. فمفهوم الوطن والأمة يحمل طابعاً خاصاً بالنسبة إلينا. بالطبع لديهم مشاعر وطنية، ولكنني لا أرى لدى مصطفى مثلاً، ذلك الحماس الذي كان يغمرني حين انتسبت إلى عملي. أكان عمي يلحظ هذا الحماس والاندفاع لديّ؟ أغلب الظن أنه كان يفعل، وإلا لما أصرّ كثيراً من أجل إقناعي بالعمل معهم. ورغم الاختلاف في وجهات النظر، لكننا كنا نشعر أننا أكثر قرباً من الجيل القديم. إلا أنّ الحياة

مكتبة

تغيرت بسرعة هائلة، وهذا ما يعجز عمي عن إدراكه. كما تغيرت مفاهيم الوطنية ومصالح الأمة، وبالتالي آلية عمل قوى الاستخبارات. لكننا بالكاد استطعنا أن نطلق قمرنا الصناعي الخاص منذ عام، على خلاف الأمريكيين مثلاً، والذين يتنصّتون على العالم عبر هذه الوسيلة منذ سنوات طويلة. وقد تكون هذه التطورات سبيلاً لتغيير قوى الاستخبارات ومواءمتها مع متطلبات الجيل الحديث. فهؤلاء لا يديرون العمل ولا حتى البلاد وكأنها أملاكهم الخاصة، بل يتحلون بمهنية أكثر تجعلهم أقرب إلى موظفين عاديين، ولكن ألسنا جميعاً موظفين في هذه الدولة نتقاضى رواتبنا منها؟

الفرق الوحيد بيننا وبين الآخرين هو طبيعة عملنا التي تتطلب دقة عالية، وتحتم علينا أن نكون أكثر معرفة وإخلاصاً ونتصرف بذكاء أكبر مع ما يعترضنا من مواقف. هذا كل ما في الأمر. ولكن ألن ينقاد هؤلاء الشباب الجدد نحو مطامحهم الخاصة، ويتأثروا بالسلطة التي أصبحت في متناول يدهم؟ أظنهم يفضلون المال والنجاح المهني على هذه الأمور. وفي المقابل تجعلهم هذه الدوافع أقل حماسة منا؛ نحن الجيل الذي سبقهم، حيث كنا نعمل من أجل مصلحة البلاد باندفاع وغيرية أكبر، رغم أنني بدأت مؤخراً أبحث عن محفزات الحماس وبتّ لا أجدها.

والأسوأ هو اتساع الهوة بين الأجيال في وسطنا. فهناك فروقات إدارية ونفسية تباعد بيننا. ومع مرور الوقت سيختفي التواصل بين الطرفين، وسنضطر جميعاً أن نتعامل وفق أسلوب غريب لا يشبه أيّاً منا. وقد كان التقرير الذي قمت بإعداده مع يلدرم يتطرق إلى هذه المشاكل، بحيث أدرجنا فيه كل آرائنا بشفافية عالية. ولكننا كنا سذجاً بالفعل. أتساءل إن كان أحدهم سيقدم على ارتكاب هذه الحماقة بعد سنين من الآن؟ واحد من هؤلاء الشباب الذي انضموا إلى العمل من خلال إعلان في جريدة مثلاً؟ أمر صعب. إلا أنني لن أجزم بشيء، فهم جيل مختلف يعرف واجباته كما يعرف حقوقه بصورة واضحة. في الحقيقة هم يتمسكون بحقوقهم أكثر من الواجبات الملقاة على عاتقهم. وآمل أن يظهر بينهم من يتحلى

بالشجاعة الكافية للإقدام على خطوة مماثلة.

ابتسم وأنا أتخيل مصطفى يكمل المهمة التي بدأناها، ويحارب من أجل المشروع الذي لم يُكتب له النجاح، محال. ولكن ما المانع؟ هو شاب متطلب، يتحلى بالنشاط والديناميكية، ولكن قد يكون هذا هو العائق الأكبر. فعليه في البداية أن يدرك أنه ما من أحد كامل، وإلا فدعكم من إعادة تنظيم قوى الاستخبارات، فهو سيصبح عاجزاً عن تنظيم حياته الشخصية أيضاً. وهناك خطيبته المحامية والتي تعمل لدى إحدى الشركات الكبرى، حيث التقينا في إحدى المرات، وهي شابة على قدر كبير من الجمال، لكن الدهاء يشعّ من عينيها، ومنذ اللحظة الأولى أدركت كم أنّ مصطفى متعلق بها حدّ الوله، حيث يحيط بها وكأن أحداً سيخطفها منه في أي لحظة، وهي على دراية تامة بالأمر، ولا تتورع عن استغلال الوضع لصالحها قدر المستطاع. ومن المرجح أنها لا تحبه بالدرجة ذاتها، ولكن هل هناك مساواة في الحب؟ ففي بعض الأحيان تكون إحدى كفتي الميزان أكثر ثقلاً، وهذا ما يسحق صاحبها تحت ثقل مشاعره حين وقوع الفاجعة.

أما بالنسبة إليّ أنا ومينة فقد كان الوضع مختلفاً بعض الشيء. ففي البدايات كانت هي شديدة التعلق بي، وكنت أنا من يعاملها ببعض البرود، ولكن الآية انقلبت فيما بعد، واشتدّ تعلقي بها وباتت هي تعاملني ببرود وجفاء. ربما لو لم تقابل فخري لاختلف الوضع. ولكنني لا أظنّ ذلك. فهو كان مجرد نتيجة لتغير مشاعرها نحوي. وكان عليّ أن أدرك ما تعنيه حين قالت لي مرة «حتى الحب ينتهي يوماً ما»..

حين تقترب سيارتي من مفرق منطقة عثمان بيه، أدرك أنني لا أرغب في العودة إلى المنزل مطلقاً، كما أنني لا أشعر بالنعاس. وكأن الشارع المقفر أمامي يناديني للتوجه إلى منطقة كورتولوش مجدداً. أنصاع لمشاعري، وأوجه المقود نحو الطريق الذي يودي بي إلى منزل مينة. ولكن ماذا لو رآني أحدهم أدخل المنزل؟ لا

أبالي. فهي لم تعد هناك، ولم يعد ظلها يلوح من النوافذ يقف منتظراً وصولي، ولا جسدها الذي يعانقني برغبة جامحة لدى دخولي، وربما لن ألتقي بها مرة أخرى. أتناول علبة السجائر وأشعر أنّ الأمر بات حقيقة لا مهرب منها بعد اليوم. وفيما أخرج سيجارة من العلبة وأشعلها، أتساءل عن السبب الذي منعني من الوصول إلى هذه النتيجة من قبل. أهي رغبتي في التمسك بأمل ما؟ أم أنني أخدع نفسي؟ أسحب نفساً عميقاً من سيجارتي وأنفث الدخان على الأفكار التي تختلط وسط ضباب مشاعري.

الفصل السادس عشر

أركن السيارة بهدوء عند مدخل الزقاق الذي بدأت معالمه بالظهور مع انبلاج الفجر، وقد غطته طبقة رقيقة من الجليد، التي تطقطق تحت قدمي، وحين أدخل الزقاق تتجه عيناي تلقائياً نحو منزل مينة، الذي تغيب عنه دلائل الحياة. يلوح لي ظلّ يتحرك في نافذة صالون المدام، ولكنني حين أدقق النظر أكتشف أنها ظلال الستائر التي تغطي النافذة القديمة. أخرج المفتاح من جيبي لفتح باب العمارة، فأجده مفتوحاً. غريب! أيعقل أنّ ماريا هي من نسيته مفتوحاً؟ لو علمت المدام أنّ الباب قد ترك مفتوحاً، سيصيبها قلق عظيم بكل تأكيد. أدفعه بيدي، ليصدر صريراً. أشعل الضوء وفيما أصعد الطابق الأول تتناهى إليّ ضجة ما، أصيخ السمع. أجل إنها ضجة قادمة من مكان ما، وكأنه صوت محرك. أتلفت حولي من دون أن أميز الوجهة التي يأتي منها الصوت. فأتجه نحو السلالم النازلة إلى القبو ليتسنى لي السماع بوضوح أكبر. فأدرك أنّ الصوت قادم من الباب الذي بجانبي وليس من القبو. ولكن ما من أحد يقطن هنا، فبعد أن أغلق مسيو كوجو حانته، لم يرغب في بيع أثاث الحانة، بل وضعها في هذه الشقة. أقترب من الباب وأصيخ السمع بانتباه، فأتأكد أنّ صوت محرك ما قادم من الداخل. ولكن ما هو؟ وأتذكر حينها ما أخبرتني به المدام من تخزين بعض المؤن في الثلاجة الكبيرة بعد أن سافرت المرأة التي تقوم بتنظيف العمارة إلى القرية إثر ولاد ابنتها. لا بدّ أنه صوت محرك الثلاجة.

أصعد السلالم الحجرية المتآكلة من جديد، والتي تشعّ نظافة. يبدو أنّ ماريا ماهرة في التنظيف حقاً. ولكن رائحة العفن تبدو أقوى من ذي قبل، لأنّ نوافذ فتحات التهوية مغلقة منذ فترة طويلة. مسكينة هي المدام، فيكف لها أن تقوم بالاعتناء بهذا المكان على كرسيها المتحرك؟ متى ستعود عاملة التنظيف يا ترى؟

حين أقترب من باب المدام، أسير بحذر أكبر، فنوم المسنين خفيف، وقد يوقظهم أدنى صوت. ولا رغبة بي للقاء المدام في مثل هذا الوقت.

ما زالت شقة مينة هادئة على حالها، أغلق الباب خلفي وأتجه نحو غرفة النوم. حتى لو لم أعترف بالأمر، فما زالت تراودني رغبة ساذجة بالعثور عليها نائمة في سريرها وكأن شيئاً لم يحدث. ورغم أن الظلمة تلفّ المكان، ولكن لا يصعب عليّ تمييز خلوه من أحد. ليست هنا، ويبدو أنها لن تظهر مجدداً، أتجه نحو الصالون وألاحظ طبقة الغبار وقد بدأت تغطي الأثاث واللوحات الغارقة في سكون الظلام، وهذا ما يبعث في نفسي شعوراً موجعاً بوحشة مخيفة. أسير نحو الأريكة المخملية، هناك لوحة زيتية لمنظر طبيعي معلقة على حاملها بالقرب من النافذة. ألمسها برؤوس أصابعي التي أقربها من أنفي، لكنني لا أشمّ رائحة الألوان، لأنها جفّت منذ زمن طويل. أتجه نحو الحمام، وأتجول في بقية الأرجاء وكأن مينة تمارس معي لعبة الاستغماء، وستظهر في أي لحظة، أعود إلى غرفة النوم مجدداً، وأفتح الستائر، فتستعيد الأشياء شكلها المعتاد نتيجة الضوء الشاحب الذي يغمر الغرفة برمتها.

ملاءات السرير التي تزينها حبات فريز حمر ما زالت مبعثرة على حالها، وقد انسدلت حوافها نحو الأرض. فيما المخدات مسندة إلى حافة السرير، فقد كانت تحب القراءة وهي في السرير كثيراً. ولم أشاهدها تقرأ أي شيء وراء الطاولة. كنت أمازحها أحيانا بالقول:

– لو كان بإمكانك، لقمت بالرسم أيضاً وأنت مستلقية على السرير.

لتقابلني بضحكة وهي ترد:

– الأمر ليس بيدي، فأنا مغرمة بالكسل.

أجلس على حافة السرير، فتطلق النوابض صريراً خافتاً. كنا نقرر على الدوام ضرورة تغيير هذا السرير دون أن نفعل ذلك، فقد كنا نخشى أن تسمع المدام

صريره حين كنا نمارس الحب. في بعض الأحيان كنا نضع الفرشة على الأرض لنمارس الحب دون خشية، أو على الأريكة القديمة في الصالون. لقد كان الأمر محض جنون. ولكنني لن أنكر أنّ ممارسة الحب مع زوجتي تشبعني أكثر، ربما لأنّ جسدينا بات يعرف أحدهما الآخر. أما مينة فقد كان تقبيل شفتيها الممتلئتين، وملامسة بشرتها الناعمة تجعل جسدي برمته يرتعش، ولكن هذه الرغبة الجامحة لم تكن تصل بي حدّ الإشباع في الكثير من الأحيان، قد يكون السبب هو الشعور الخفي بالذنب الذي كان يمنعنا من الوصول إلى الذروة، وربما بسبب اختلاف لغة جسدينا. ورغم ذلك فقد كنت أشعر برغبة لا تقاوم نحوها، حيث كانت بشرتها التي لم أتمكن من كشف كافة أسرارها تناديني برغبة عارمة. وفي بعض الأحيان حين كنت أمارس الحب مع زوجتي كنت أتخيلني أمارس الحب مع مينة. وفي تلك اللحظات كنت أشعر بنفسي أصعد نحو أعلى مراتب النشوة.

أشعر بدوار خفيف، فهذه أكثر الساعات الذي يظهر فيها النوم سطوته. أخلع المعطف وأرخي عقدة ربطة العنق، وفيما أخلع حذائي أرى خفّ مينة المنزلي إلى جانب السرير. أحمله برفق وأتنشق رائحته، ومن ثم أتمدد على السرير تحت اللحاف، فتصيبني برودة السرير بالقشعريرة، أسحب اللحاف ليغطي رأسي بحثاً عن بعض الدفء، لتداعب أنفي رائحة خفيفة، أغمض عيني فيما أشتمّ هذه الرائحة الأليفة. أجل كما توقعت؛ إنها رائحة الياسمين.

أستطيع التعرف إلى هذه الرائحة أينما كنت، فهي أخفّ من رائحة مليكة، وتتلاشى بسرعة أكبر. ولكن الغريب أنها لا تزال عالقة بالمخدة. أدفن رأسي فيها أكثر مغمضاً عينيّ متنشقاً المزيد والمزيد، متى كانت آخر مرة شممت هذه الرائحة يا ترى؟ أظنه في آخر لقاء بيننا. كانت يوم أربعاء على ما أذكر حيث التقيت بها في الكافيتريا، وعبقت رائحتها في أنفي حين قبلتها. في ذلك اليوم كانت مينة شديدة القسوة عليّ، وظلت متمسكة برأيها رغم إلحاحي الشديد الذي بلغ حدّ التوسل دون طائل. وقد كان ردّها:

مكتبة

– لا أريد أن أجرح مشاعرك ولكننا لا نستطيع الاستمرار أكثر. – قالت.

– أحتاج لمزيد من الوقت للتفكير في مصير علاقتنا. – لكنها لم توافق، فثرت غاضباً في وجهها وأنا أردف – إنه ذلك المأفون خريج السجون أليس كذلك؟

ولكنها أجابتني ببرود موجع:

– الموضوع لا يتعلق به، ولكننا انتهينا، عليك أن تدرك ذلك.

لكن ما أثار جنوني ليس كلماتها بل لامبالاتها.

– ما تقومين به هو العهر بعينه. – عدت للصراخ بحنق، لكنها ظلت صامتة وقد أحنت رأسها، بينما أواصل بغضب – هلاّ أخبرتني كيف تستطيعين التوفيق بيننا نحن الاثنين؟

رفعت رأسها وقد امتلأت عيناها بالدموع لكنها لم تبكِ.

– لا يحق لك أن تحدثني بهذه الطريقة – قالتها بصوت راعش – لا يحق لك مطلقاً أن تحدثني هكذا، فأنت قد سبقتني إلى الأمر حين كنت توفق بيني وبين زوجتك.

بالكاد استطعت السيطرة على رغبتي في ضربها، فخرجت مسرعاً من الكافيتريا، وبقيت أياماً عدّة أتقلب وسط حنقي ولكنني في النهاية أدركت أنها محقة في ما قالته. فلا يحق لي أن أثور في وجهها، وقد كنت أعيش حياة مزدوجة معها ومع زوجتي. وفكرت في وجود أمل ما، وأنها تقوم بذلك عامدة من أجل إثارة غيرتي. وأدركت بأنه حان الوقت للاختيار بين الاثنتين، إزاء معرفتي بأنني غير قادر على التخلي عن مينة. لذا اتصلت بها دون أن ترد، فعاودت الاتصال مساء دون طائل. وحاولت أن أحصل على بعض المعلومات من مليكة وسؤالها عن السيدة

سيفيم، فقد خطر لي أنّ مينة جاءت لزيارة والدتها. وقد أخبرتني حينها:

– لقد زارتني اليوم وشربنا القهوة سوياً، كانت قلقة، فقد اختفت ابنتها منذ يومين دون أن تخبرها أو تخبر أي أحد إلى أين سوف تذهب.

وقد خطر لي حينها أنها ذهبت في عطلة للترويح عن نفسها، بعد الشجار الذي نشب بيننا. ولكن حين فكّرت باحتمال ذهابها رفقة فخري كاد الدم يغلي في عروقي، فعاودت الاتصال بها دون أن تلاحظ مليكة، ولكن من دون طائل. ولم يبقَ أمامي من سبيل سوى الانتظار. وبقيت لمدة أسبوع أتقلب وسط نيران غيرتي، دون أن يصلني أي خبر عنها. وقد زارتنا السيدة سيفيم التي تفاقمت مخاوفها، فحاولت استغلال الفرصة للبحث عنها علناً، فقمنا بالاتصال بفخري الذي لم يكن في منزله، بل أخبرونا أنه ذهب إلى أنطاليا لزيارة عائلته منذ أسبوع تقريباً، وحين اتصلنا بمنزل عائلته أخبرتنا والدته أنه جاء لوحده دون أن ترافقه أي فتاة. وقد كان أكثر خبر أسعدني في ذلك الأسبوع. إذاً فهي ليست مع فخري، وأغلب الظنّ أنها سافرت إلى صديقتها سيلين في إيطاليا. حيث دعتها هذا العام كما في العام المنصرم أيضاً، لكن مينة اعتذرت عن دعوتها لكي تظل معي. وفكرت أنها ذهبت الآن لزيارتها بعد الخلاف الذي نشب بيننا. ولكنني حين اتصلت بسلين وأخبرتني أنّ مينة ليست برفقتها انتابني خوف كبير، وكان أول من خطر لي هو فخري. وحال عودته من أنطاليا قمنا بإلقاء القبض عليه، ولكنه كان محظوظاً، فقد سافر قبل يوم من اختفاء مينة، أي في ذات اليوم الذي تشاجرنا فيه. وكان يملك قرائن تثبت صحة ما يقول، ويقابل أسئلتنا بأجوبة مقنعة ومنطقية. وقد بدا منهاراً أثناء التحقيق، مما أثار حيرتي حتى بدأت أشكّ بأنه حزين بالفعل بسبب اختفائها. وخطر لي أنها أرادت الابتعاد عنا جميعاً لفترة من الوقت. وهو تصرف يليق بها، خاصة وأنها فتاة تفتقر إلى حسّ المسؤولية بصورة واضحة. فلن تفكر كثيراً في العاشقين الأحمقين اللذين خلفتهما وراءها يتقلبان على جمر الخوف والحيرة. وما أثار شفقتي على فخري هو الدموع التي ترقرقت في عينيه للحظة أثناء التحقيق،

حتى شعرت بأنه يجمعنا رابط خفي، قد يكون الكارثة التي ابتلينا بها.

ولكن مع شروع فخري في محاولة قتلي، اتضحت خيوط اللعبة. رغم أنّ هناك شيئاً لم أجد له تفسيراً حتى الآن. فهل يرغب التنظيم أن يكون طرفاً في أمر شخصي؟ أظنه تمكن من خداعهم، وأقنعهم بعد الكثير من الإصرار بأنه سينفذ الاعتداء معتمداً على إمكاناته الخاصة، ولهذا السبب قام باستخدام مسدس والده. ورغم أنّ التنظيم قد تخلى عنه، لكنه استطاع إقناعهم بحجم العملية وأهميتها التي ستلفت الأنظار كلها نحوهم، وتصبح محط اهتمام الجميع، تبدو الأمور إلى هنا منطقية جداً، ولكن لماذا لم يتبنَّ التنظيم العملية؟ ربما بسبب اكتشافهم لدوافعه الشخصية التي دفعته للقيام بالأمر، وهذا يتنافى مع مبادئهم ومع أخلاقيات ثورتهم.

أتقلّب أرقاً فتقابلني مكتبتها الصغيرة التي اصطفت فيها الكتب بعضها إلى جانب بعض وهي تراقبني بوقار. وبالكاد أتبين عناوينها التي أحاول التسلي بقراءتها؛ كتاب تاريخ الفن لأرنست غومبريتش[12]، علم الجمال لكروس، ذهنية الفن لفاسيلي كاندينسكي[13]، الأعمال الشعرية الكاملة لبول إيلوار[14] وسلسلة موسوعية عن الرمزية، الحركة الرومانسية، الحركة الواقعية. بالإضافة لمسجلة موسيقى إلى جوارها. فقد كانت الموسيقى تعنيها بقدر الرسم، وكانت تردد «لو لم أكن رسامة لدرست الموسيقى بكل تأكيد..» وفي كل مرة كنت آتي فيها إلى هذا المنزل، كانت الموسيقى تصدح فيه، وكانت تفضل الجاز. أنهض جالساً وأضغط زر التسجيل، في البداية يبدأ البيانو بعزف لحن هادئ ومن ثم تبدأ امرأة الغناء بصوت رقيق باللغة الإنكليزية. أذكر هذه الأغنية التي مارسنا الحب على أنغامها ذات مرة.

في الحقيقة لست من هواة الجاز، لكنني أحب هذه الأغنية، أعود للاستلقاء وأغمض عيني، لتأخذني الموسيقى إلى مكان آخر.

يسقط عليّ ضوء عسلي اللون من النافذة، فقد مضى على شروق الشمس وقت طويل. أنهض ببطء من السرير وأنا أفرك عيني متجهاً نحو الحمام.

أغسل وجهي بالكثير من المياه الباردة، لا توجد منشفة فأنشف وجهي بورق الحمام، وأشعل سيجارة فيما أتجه نحو الصالون. هناك بعض المجلات متناثرة على الطاولة قرب الأريكة القديمة، لوهلة تبدو لي إحداها مألوفة، أجل إنها أحد أعداد مجلة الحروفات. أليست تلك المجلة التي يقوم سنان بإصدارها؟ لم أقرأها من قبل، لذا أفتح المجلة بفضول وأقلب صفحاتها، لا تبدو كالمجلات الفنية العادية، حتى شكلها مختلف، فهي ذات صفحات طويلة قليلة العدد. وفي كل صفحة هناك صورة ما، ليست ملونة، ولكنها ليست مطبوعة بالأسود بل باللون البني، وهذا ما يمنحها مظهراً قديماً، ويجعل الصور أكثر تأثيراً. كما أنّ أسماء الكتاب لا تبدو لي معروفة على الإطلاق. يطالعني اسم سنان تحت قصة عنوانها «الليل دائماً الليل». أقلب الصفحة لتطالعني صورة لمينة. لا بدّ أنها تعود إلى ما قبل ستة أشهر حين قامت بقصّ شعرها، حيث ترتسم على وجهها ابتسامة بالكاد تظهر، وقد بدت عيناها قاتمتي اللون، وهي تنظر في دعة ولطف إلى الكاميرا. وتحت الصورة هناك قصيدة قصيرة، عنوانها «صورة».

قطرتا مطر تتدليان من أذنك كقرطين

الرياح تتماوج في خصلات شعرك ثملة

رموشك تزين سماء الليل المظلمة

بشرتك حقول قمح تستجم تحت شمس الصباح

ورغبة عميقة تتلوى في عينيك الناعستين

ينحني جسدك عليّ في تحية صباحية آسرة

إنها صورة مثالية تحت ضوء الشمس

تتيه رمال شطآني تحت قدميك العاريتين

مكتبة

تنتشي بخطوطها الدقيقة وانحناءاتها الملتوية

ويطير سرب من العصافير في جهات حائرة.

نامي أو استيقظي فأنا أحبك أكثر في الحالتين.

وحين أرى اسم فخري إرتورك تحت القصيدة، أشعر بحرقة في مكان ما من روحي. أرمي المجلة على الطاولة. فدعكم من الشعر، فأنا لا أذكر أنني كنت أغازلها بكلمات رقيقة كما يفعل العشاق، رغم أنّ النساء مغرمات بالكلمات الجميلة. لا بدّ أنه كتب لها الكثير من تلك القصائد، التي ذهبت بعقلها. وهذا ما يوضح سبب رغبتها المفاجئة في إنهاء علاقتنا. أتهالك على الأريكة القديمة وأسحب أنفاساً عميقة متواصلة من سيجارتي، وأنا أسترجع المبررات الغبية التي كنت أحاول إقناع نفسي بها؛ غيرتها من زوجتي، حبها الكبير لي. رغم أنها قد أوضحت الأمر أكثر من مرة «حاول أن تفهم، لقد انتهى كل شيء». يا لحماقتي، ولكن من يستحق الرثاء أكثر مني هي مينة، فقد قام الشخص الذي تحبه بخطفها، وربما قتلها أيضاً. ما الذي كانت تفكر فيه حين قام فخري بخطفها عنوة؟ لا بدّ أنني أول من خطر في بالها. هل أحست بالندم حينها؟ ما الذي ستقوله لي عندما أتمكن من العثور عليها؟ – إن كانت لا تزال حية – هل ستتمكن من النظر إليّ ومواجهتي؟ حسناً، طالما أنها استطاعت اتخاذ القرار بتركي، فهذا يعني أنّ علاقتنا قد انتهت. هل سنتمكن من إحيائها مجدداً؟ ونعود كما كنا سابقاً؟ وماذا إن بقيت تحب فخري رغم كل شيء؟ فالبشر يمتازون بالقدرة على حب من يسيء إليهم في كثير من الأحيان. وقد لاحظت هذا الأمر عند مينة، التي كانت تميل للأشخاص الذين يقومون بالإساءة إليها أو الحط من شأنها. فهي كانت شبه مولعة بأحد أساتذتها الذي كان ينتقد أعمالها ويبدي استياءه من أسلوبها في الرسم.

أسحب نفساً آخر من السيجارة التي بات طعمها لاذعاً، فأسحقها في المنفضة وأنهض مجدداً وأتجه نحو النافذة. لا يظهر أحد في الزقاق الذي تزيده الظلال

وحشة وعتمة، أنظر إلى الساعة التي تجاوزت الثانية عشرة وعشرين دقيقة بقليل، وأتذكر ضرورة ذهابي إلى سنان، لأرى إن كنت سأعثر على أي معلومات لديه. ولكن عليّ أولاً أن أذهب لرؤية المدام.

تفتح لي الباب بعد أول جرس.

– آه، أهذا أنت سيد سِدات؟ – تقول المدام.

– هل أخفتك؟

– حين سمعت الضجة فوق انتابني بعض القلق.

تنظر إلى السلالم وهي تدعوني إلى الداخل:

– لقد ذهبت هذه الفتاة دون رجعة.

– إلى أين ذهبت؟

– الطابق السفلي – تقولها وهي تغلق الباب – طلبت منها إحضار بعض الجبن من الثلاجة، لا بدّ أنها شردت في أمر ما هناك كعادتها – وفيما نتجه نحو الصالون تواصل حديثها – تفضل بالجلوس، تبدو متعباً بعض الشيء.

أوضح لها فيما أجلس على الأريكة:

– لم أنمْ طوال الليل، فقد تمكنا من العثور على الشخص الذي حاول خطف ماريا.

تسألني بفضول وارتياح ظاهر:

– حقاً؟ إذاً فقد تمكنتم من الإمساك بهم؟ يا للسرعة! أهنئك.

– صحيح أننا أمسكنا بهم، ولكن الأمر ليس كما تتوقعين.

مكتبة

– ما الذي تعنيه؟

– لم تكن محاولة خطف كما كنا نعتقد. مجرد تحرش لا أكثر.

يعود القلق ليعمق من تجاعيد وجهها.

– ولكن شرف يقول عكس ذلك.

– لقد بالغ بعض الشيء، وبدا الأمر له من بعيد أنها محاولة خطف.

– ألا يحتمل أنهم يكذبون للتنصل من التهمة؟

– لا، فقد حققنا معهم وحصلنا على كل المعلومات المتعلقة بهم، وأخبرونا بالحقيقة كلها، كما أنّ شرف أيضاً أكدّ على ما قالوه.

تحدجني المدام بنظرات خائفة وهي تسألني:

– وهل أطلقتم سراحهم؟

– بالطبع لا، سيمكثون في السجن فترة لا بأس بها، حتى يعود إليهم رشدهم.

– ولن يقوموا بإيذائنا بعد الخروج من السجن أليس كذلك؟

– لا أظنهم سيجرؤون على الاقتراب من هذا الحي كله مرة أخرى، فقد قمنا بإخافتهم كثيراً.

تشعر بالراحة وهي تقول:

– آه، شكراً لك سيد سِدات، كيف سأردّ لك هذا الجميل؟

– لقد قمت بواجبي ليس إلا.

– لا تقل ذلك، فقد قدمت لنا مساعدة كبيرة. أتود أن تشرب شيئاً، لقد حضّرت شراب الزيزفون منذ قليل، ما زال ساخناً.

– لن أرفض كوباً ساخناً إن قدمته لي.

– سأحضره على الفور – وتتجه بكرسيها المدولب نحو المطبخ، فأحرك ظهري المتشنج قليلاً، قبل أن أسمع صوتها القادم من المطبخ:

– سيد سِدات أستميحك عذراً، ولكن هل لك أن تأتي إلى هنا؟

أنهض متجهاً نحو المطبخ.

– أرجو العفو – تقولها وهي تشير إلى علبة السكر الفارغة في يدها – لقد نفد السكر، هناك علبة فوق الثلاجة، هل لك أن تعطيني إياها؟

– بالطبع – ولكن الثلاجة القديمة سكرية اللون عالية جداً، بحيث لا أرى ما الذي يوجد فوقها. فأجول بيدي باحثاً عن علبة السكر.

– لقد كان كوجو يحب الثلاجات كبيرة الحجم. – توضح لي المدام – ليتمكن من وضع كل ما يحتاج إليه هناك. رفّ للحوم وآخر للخُضَر وآخر للمقبلات. وقد أحضر أربعة برادات معه أثناء عودته من أميركا. عليك أن ترى الثلاجة التي في الأسفل.

وأخيراً تصطدم يدي بعلبة كرتونية، أظنها ما أبحث عنه، وحين أنزلها أدرك أنني لم أكن مخطئاً، وفي هذه الأثناء أسمع صوت الباب.

– إنها ماريا – تقول المدام.

أعطيها العلبة وأنا أقول:

– سأفتح الباب.

– أستميحك عذراً سيد سِدات، فبدل استضافتك ها أنت تتعب نفسك معنا. – وتواصل حديثها فيما أتجه نحو الباب – لقد سافرت السيدة فاطمة في وقت سيئ جداً، وأظنها ستتأخر في العودة بانتظار انتهاء أربعين الولادة.

– أهلاً ماريا. – أقول.

تحرك رأسها في انحناءة طفولية لا تناسب جسدها الضخم، وأظنها ستبقى واقفة أمام الباب إن لم أطلب منها الدخول.

– هيا ادخلي.

تظهر على وجهها ابتسامة محبّبة وهي تنظر إليّ حين تدخل، وعندما تمرّ بجانبي تهمس لي:

– سيد سِدات – وترمقني بنظرات غريبة.

فتظهر المدام على باب المطبخ وهي تقول:

– لقد تعرفت إليك، رغم أنها لا تتذكر معظم من يزورنا.

تمدّ الطبق الذي في يدها نحو والدتها وتنحني عليها لتهمس لها ببضع كلمات لا يصلني منها سوى كلمة «أرنب». فتبتسم المدام وهي تنظر إليّ.

أستجمع جرأتي وأنا أسألها مستوضحاً:

– أي أرنب؟

– قصة طويلة – تقول متنهدة قبل أن تضيف – تفضل بالجلوس وسأخبرك بالقصة حين أحضر لك نقيع الزيزفون.

فنتجه أنا وماريا سوية نحو الصالون.

– أتحبين الأرانب كثيراً؟ – أسألها وأنا أستقر في مقعدي من جديد، ولكنها لا تسمعني، حيث تحمل دميتها وتنزوي في زاويتها المعتادة وكأنها لا تلحظ وجودي. وفيما أراقبها تدخل المدام مع الصينية التي وضعت عليها الكوب.

– لا فائدة من ذلك، فلن تخبرك بشيء.

– لماذا؟

فتوضح لي وهي تمدّ الصينية نحوي:

– كان هناك اتفاق سري بينها وبين والدها. لقد وضعت قطعتي سكر في الكوب، ولكن لا أدري إن كان ذلك كافياً.

– أجل، سلمت يداك. – أقولها وأنا أرتشف من الكوب.

– فكما تعلم، لقد كان مسيو كوجو صياداً، وكان يحضر كل ما يقوم باصطياده من أرانب وطيور السمان والحجل إلى المنزل. ولكيلا تخاف مارياً، فقد كان يخبرها بأن تلك الحيوانات نائمة وليست ميتة، ويضيف قائلاً: «وهي تفضل أن تكمل نومها داخل الثلاجة». وكانت تحمل تلك الحيوانات وتضعها في الثلاجة، وهي تظنها نائمة بالفعل ومع مرور الوقت تولت هذه المهمة، حيث كان والدها يترك الحيوانات التي يحضرها في الطابق السفلي لتقوم هي بوضعها في الثلاجة بنفسها.

– ألم تكن تسأل ما الذي يحدث لهذه الحيوانات فيما بعد؟

– لا، فقد كانت تنسى أمرها بعد مرور عشر دقائق، ولكنها تتذكرها إن تحدثنا في الأمر أمامها بعد مدة، لتسأل عنها. وكنا نخبرها أنها عادت إلى أعشاشها في الغابة بعد استيقاظها، فيبدو عليها الحزن لوهلة، إلا أنها تنسى كعادتها بعد لحظات.

– وماذا عن الاتفاق السري بينها وبين والدها؟

– أجل الاتفاق. ذات مرة حين كانت تلعب مع أصدقائها في الحي، أخبرتهم عن أمر الحيوانات التي تنام في الثلاجة، لكنهم صارحوها قائلين: «إنهم مقتولون وليسوا نائمين، كما أنّ والدك من يقوم باصطيادهم وقتلهم...» فعادت إلى المنزل في حالة بالغة السوء، وحين علم والدها بالأمر طلب منها ألا تخبر أحداً أنّ هناك حيوانات نائمة في ثلاجتنا، وإلا فإنهم لن يعودوا إلينا مجدداً. ومن ذلك اليوم توقفت ماريا عن التحدث حول الموضوع.

– ألا تعلم أنّ والدها قد توفي؟

– لا تعلم، فهي تظنه ذهب للصيد كعادته، وتسألني بين الحين والآخر: «متي سيعود والدي؟» ولكنها تنسى أمره بعد لحظات.

أراقب ماريا فيما أشرب على مهل من الزيزفون، تبدو لي وكأنها خائفة من سماع الحقيقة، لذا تجلس بعيداً عنا، وهي تقص لدميتها حكاية ما عن الأرانب.

الفصل السابع عشر

أسير في قلب شارع الاستقلال إلى جانب أمٍّ تحمل ابنها الصغير في حضنها. إلى جانب القنصلية الفرنسية تتسكع فتاتان بشعر قصير متشابه وكأنهما قامتا بقصه لدى الحلاق ذاته، مع شابين ملتحيين، في لامبالاة واضحة تجاه كل ما يحيط بهما. أما مكتب الصرافة الذي يقع قبالة القنصلية، فقد تجمهر حوله حشد متنوع من الناس؛ نساء مسنات، طلبة مدارس، رجال ونساء بمختلف الهيئات. يبدو أنّ شائعة جديدة قد انتشرت بقرب انخفاض سعر الليرة كما هو معتاد، فعاودوا الازدحام على محلات الصرافة وتحويل ما بحوزتهم من مدخرات إلى العملات الأجنبية. فيما يراقبهم طفل مشرد رثّ الثياب بحبور، وهو يضحك بين الفينة والأخرى، من الواضح أنه مستمتع بما يجول من حوله. أدير رأسي، فأرى شابتين تسيران بغنج أمامي بتنورتين قصيرتين، ولا أنكر أنني أحاول أن أسرع قليلاً لأظلّ قريباً منهما أستمتع بمرأى هذا الجمال الذي يقودني. وفيما أنا مستغرق في مراقبتهما، يفاجئني صوت جرس يجلجل خلفي بشدة، وبالكاد أتمكن من التنحي جانباً، حيث يمر الترامواي من جانبي بسرعة، وقد امتلأت مقطورتاه بالركاب. بينما الأطفال الثلاثة الذين تعلقوا بمؤخرته، يؤدون حركات بهلوانية خطرة بنجاح لاعبي السيرك، ويختمونها بالتلويح لي ضاحكين. حين أصل إلى زاوية أحد الشوارع التي تتقاطع مع الاستقلال، تغمرني رائحة خزامى منعشة لا أعلم مصدرها، وبعد خطوات قليلة، وأمام البنك، أرى امرأة ناحلة سمراء، متربعة في الزاوية، وقد رصفت سلال الخزامى أمامها، وهي تدرك أنّ النسيم الذي يهب من خلفها ينشر رائحة بضاعتها في الأرجاء، لتجذب إليها الزبائن. وإلى الأمام قليلاً، يعتلي رجل بزي مهرج الكرسي الذي وضعه في منتصف الطريق، وهو يشير إلى أحد المتاجر على يمينه هاتفاً:

مكتبة

– اشتري ما تريده بمئة وخمسين ليرة.

وحين يلحظ مجموعة السواح اليابانيين الذين يراقبونه، يواصل الصراخ بكل ما لديه من طاقة وحماس:

– تعالوا تعالوا. اشتروا كل ما تشاؤون فقط بمئة وخمسيييين. ما يثير ضحكات النساء اليابانيات.

أواصل النزول إلى عمق الشارع، حيث سينما التوليب تليها المتاجر الفاخرة التي تحرص على تزيين واجهاتها بأناقة بالغة، بينما ثلة من الأطفال المشردين الذين افترشوا الرصيف أمامها جالسون وقد وضعوا بضاعتهم من المناديل الورقية على صناديق من الورق المقوى. إنهم بالكاد في الخامسة أو السادسة من العمر، وأظنهم أبناء بعض بوابي الفنادق أو النّدل الذين يعملون في الأزقة الفرعية القريبة، ممن زجوا بصغارهم منذ الآن في صراع الحياة القاسي. ولكن إلى أين سيفضي بهم هذا الصراع حين يبلغون مراتب الشباب؟ هل سيصبحون رجالاً أشداء يتغلبون على مصاعب الحياة، أم ينضمون إلى قافلة الأفاقين الذين يمهدون السبيل لتوريط الأجيال التي تليهم في المعمعة ذاتها؟

تقترب مني طفلة نحيلة ضئيلة الحجم وهي تجفف خيط المخاط الذي يصل حتى شفتها العليا، لتمدّ نحوي علبة المناديل التي تحملها بيديها الصغيرتين.

– استفتاحية يا عمي.

أشير بحركة من رأسي أنني لا أرغب في الشراء، ولكنها تأبى أن تتركني.

– أنا أدخر النقود من أجل مدرستي يا عم. سبعة آلاف وخمسمئة ليرة فقط.

– لا أريد. – أجيبها.

تحني قامتها النحيلة وقد علت وجهها خيبة واضحة، ولكنني أواصل السير دون أن أبالي. ليلحق بي هذه المرة صبي لطيف الملامح، يعتمر قبعة صوفية زرقاء يدوية الحياكة.

– يا عم – يناديني وهو يحاول منافسة زميلته السابقة – سأبيعك علبتين باثني عشر ألفاً ومئتين وخمسين.

ابتسم في وجهه فيزداد جرأة:

– كما أنها معطرة.

– شكراً لك، لا أريد. – أقول له فيما أغذّ السير، فيعود إلى بسطته بعد أن يدرك أنني لا أنوي شراء شيء.

أخرج البطاقة التي دوّنت عليها العنوان من جيبي للتأكد؛ مكتبة حروفات، شارع ميس رقم سبعة وعشرين، وأتجه نحو بائع اليانصيب الواقف على الزاوية لأسأله.

– من هناك – يجيبني وهو يشير بيده يساراً – إلى الأمام قليلاً.

فأتجه نحو الشارع الذي دلني عليه الرجل، ولا أجد صعوبة في العثور على مكتبة سنان. فبعد حوالي العشرين متراً تقريباً، تقابلني لوحة صفراء كتب عليها بحروف بنية اللون «مكتبة وكافيتريا حروفات» إذاً فهو يملك كافيتريا أيضاً.

حين أقترب من المكتبة تصلني موسيقى ظريفة، أظنها إحدى الأغاني الغجرية التي سمعتها من قبل، ولكن لا أذكر أين. أدخل من البوابة الواسعة، حيث المكتبة عبارة عن ردهة طولية تحيطها الرفوف المليئة بالكتب حتى السقف. وعلى اليسار هناك سلم دائري يقود نحو الكافيتريا في الطابق العلوي. تجول نظراتي على الكتب فيما أدخل المكتبة، فتقبل نحوي فتاة دميمة الوجه ترمقني بنظراتها وهي

تسألني:

– كيف لي أن أساعدك؟

– هل السيد سنان موجود؟ – أسألها.

تشير بيدها نحو الزاوية وهي تقول:

– إنه هناك.

أنظر نحو الاتجاه الذي تشير إليه، فأرى سنان جالساً وراء طاولة الحساب يستمع إلى شابة ترتدي سترة جلدية، ورغم جمالها الواضح، لكن الضجر بادي الوضوح على ملامح وجهه.

– مرحباً. – ألقي التحية وأنا أقف قريباً منهما، فيرمقني سنان بإمعان وهو ينهض.

– أهلاً بك، تفضّل.

لا أدري إن سرّ لظهوري أم لا، ولكن الفتاة ترمقني بازدراء وكأنها تقول: من أين خرجت أنت الآخر؟

– ليتك اتصلت قبل أن تأتي، فقد جهزت لك الكتب، ولكنني لم أعثر على كل أعداد المجلة، أياً يكن الأمر سأرسل أحدهم إلى المستودع لإكمال النقص. – يوضح لي سنان.

– لا عليك، أستطيع الانتظار – أجيبه.

– من الواضح أنّ لديك فائضاً من الوقت – يقول لي بنبرة ملغزة وهو يحدجني، لكنني أتغاضى عن مقصده.

– أرجو أن تتابع عملك، سأتجول بين الكتب حتى تنتهي – أقول له.

– لا يجوز ذلك. – وينادي على الفتاة التي قابلتني لدى دخولي – سونا.. سونا، هلاّ أتيتِ؟

ويخرج دفتراً صغيراً من درج طاولة الحساب، فيما تقبل سونا نحونا.

– المستودع في الشارع الخلفي، لن يتأخروا في إحضار الكتب. – ويمزق إحدى صفحات الدفتر ليعطيها لسونا التي تقف بالقرب منا – خذي هذه القائمة لمحمود، واطلبي منه أن يحضر عشر نسخ لكل عدد من أعداد مجلة الحروفات التي دونتها هنا، ومن ثم عودي إليّ.

– حسناً – تقول وتتجه نحو الشاب الأسمر طويل القامة الذي يقف أمام الباب، فيما يلتفت سنان نحوي قائلاً:

– ما رأيك بشرب فنجان من القهوة فيما ننتظر؟ – يسألني في لباقة دون أن يتلاشى الضيق عن ملامح وجهه.

– بالطبع أود ذلك – أجيبه بامتنان.

فيلتفت نحو الشابة قصيرة الشعر موضحاً:

– أستميحك عذراً يا جالة، عليّ الاهتمام بضيفي، سنتحدث فيما بعد، ما رأيك؟

يحتقن وجهها غضباً، وتنهض من كرسيها منتفضة وهي تقول:

– كما تشاء – وتحمل حقيبتها الجلدية التي علقتها على مسند الكرسي، ودون أن تتنازل في النظر إليّ تردف بحدة – إلى اللقاء – وتخرج بخطوات صاحبة غاضبة..

– يبدو أنني أغضبت صديقتك – أقول مبتسماً.

يلوّح بيده في الهواء بلامبالاة وهو يوضح:

– إنها عديمة الموهبة، ولكنها تظن نفسها من أهم الشعراء، وأننا ملزمون بنشر قصائدها في كل عدد من مجلة حروفات.

– لا بد أنّ العلاقة مع الطبقة الفنية معقّدة بعض الشيء. – أقول.

– المشكلة ليست هنا.. أياً يكن الأمر، ها هي الكتب التي حضّرتها من أجلك هنا.

ويخرج ظرفاً صغيراً من تحت الطاولة ليعطيني إياه.

– شكراً جزيلاً. كم ثمنها؟

– اعتبرها هدية. – يجيبني باقتضاب وقد علا وجهه احتقار مبطن، ظناً أنني أدّعي ما أقول، ولن أدفع له بأي حال.

– لن أقبل بذلك مطلقاً. لن آخذ شيئاً ما لم تقبل النقود.

ينظر إليّ في دهشة ولكنه يتدارك على الفور:

– كما تشاء. – ويطالع دفتر الحسابات الموضوع أمامه – ثمانمائة وسبعون ألف ليرة.

وفيما أخرج النقود من محفظتي وأعطيها لسنان، تعود إلينا سونا.

– لقد أرسلت محمود إلى المستودع.

يضع سنان النقود في الدرج ويتوجه نحو سونا قائلاً:

– لدينا بعض الأمور لنتباحث حولها، انتبهي للصندوق حتى أعود.

وينهض ليفسح المجال للفتاة بالدخول وهو يمدّ لي فاتورة الحساب التي يسحبها من الآلة.

– تفضّل، سنصعد إلى الطابق العلوي، فلن يزعجنا أحد هناك.

– لا أريد أن أعيقك عن عملك، أستطيع الانتظار بمفردي حتى الانتهاء.

يرمقني مبتسماً، وهو يدرك أنني لا أعني ما أقوله.

– لا عمل مهم لدي الآن، كما أنني أرغب في التحدث إليك بدوري. تفضل من هنا – ويشير إلى السلم الذي يتجه نحو الكافيتريا، فأصعد وهو يتبعني.

الطابق العلوي أكثر اتساعاً ورحابة من المكتبة، ولكن المكان هادئ وشبه خال، من الواضح أنه ليس الوقت المناسب لقدوم الزبائن. فالمقاعد الخمسة عشر المصنوعة من المعدن والزجاج وفق تصميم عصري، خالية عدا اثنين منها. يسرع إلينا نادل شاب حين يرانا ندخل الكافيتريا ويستقبلنا قائلاً:

– تفضّل سنان آبى، أين تودّ الجلوس؟

– سنجلس أمام النافذة هناك.

فيسرع ليمسح الطاولة التي على يسار النافذة بخفة، وفيما نسحب الكراسي للجلوس عليها، يسألنا:

– ماذا تودان أن تشربا؟

– قهوة تركية؟ – يسألني سنان.

– أجل، مع قليل من السكر لو سمحت.

– إذاً فنجانا قهوة وسط. – ويغمز الشاب مبتسماً. من الواضح أنّ علاقته مع موظفيه جيدة.

يظهر سطح البناء المجاور من النافذة، ويبدو المشهد عادياً لولا شجرة التين العملاقة التي تتوسط السطح، لا بدّ أنّ صاحب هذا البناء متعلق بها كثيراً، حتى امتنع عن قطعها. ولكن كيف استطاعت البقاء هكذا دون أن تجف. يزقزق عصفوران على فروعها الملتوية بصخب وهما يتقافزان صعوداً وهبوطاً.

– غريب، شجرة بهذا الحجم الهائل داخل المنزل؟

– ليس منزلاً، بل ورشة لصنع الأحذية، وصاحبها ليس محبوباً في الحي، فلم يبقَ أحد هنا لم يتشاجر معه، ولكنه ولسبب ما يحب هذه الشجرة كثيراً. ويدّعي عمال ورشته أنه يتكلم مع الشجرة كل صباح.

– في الحقيقة لم أتوقع مطلقاً رؤية شجرة بهذه الروعة خلف هذه الأبنية المتهالكة.

– عليك أن تشاهد خضرتها المتفجرة في الربيع، منظر لا يوصف. وقد اعتدت الجلوس أمام هذه النافذة على الدوام، فالجلوس في مكان آخر يسبب لي ضيقاً ويثقل على صدري.

– معك حق، فهو موقع سيفضله الجميع.

– لديّ أسباب تختلف عن الجميع.

– وما هي؟

– من يمكث في الداخل لسنوات طويلة، لا يفضل الجلوس أمام جدار مغلق بعد خروجه.

– في الداخل؟ – أسأله مستغرباً.

– كفّ عن ذلك، فلا يعقل أنك لم تقرأ ملفي الخاص.

تلتقي نظراتنا لوهلة، فأشعر بعينيه السوداوين تخترقان أعماقي، وتقرآن ما يجول في ذهني من أفكار. لذا أتوقف عن محاولة الإنكار لأنها تبدو غير مجدية معه.

– ها. تعني قصة السجن تلك.

– أجل تلك القصة التي استمرت لاثني عشر عاماً. – يردد في سخرية مريرة.

– ولكنكم قمتم باعتداء مسلح على أحد مراكز الشرطة.

يحدجني للحظات بنظرات حادة، ليسألني بعدها فجأة:

– ما الذي تريده مني؟

– هذا كل ما أريده – وأشير إلى الكتب الموضوعة على الطاولة – وقد حصلت عليه.

– أتمنى أن تكون صريحاً معي. لقد خضعت للتحقيق مرتين، استمر التحقيق الأول اثنين وخمسين يوماً، أما الثاني فقد استمر لسبعة وثمانين يوماً متواصلاً. وقد مرّ عليّ الكثير من المحققين الذين يتبادلون أدوار الشرطي الجيد والشرطي السيئ. حيث قضيت برفقتهم أياماً متتالية، وبدأت أخمن تصرفاتهم. فحين يعاملني شرطي ما بصورة جيدة، فمن المؤكد أنّ له غاية ما من وراء ذلك.

– وهل أنت مقتنع بوجود عناصر جيدة من الشرطة؟

– بالطبع لا.

– أنت مخطئ، فالشرطة أيضاً أناس مثلكم لديهم عائلات وأطفال، وهم يقومون بأداء عملهم هذا من أجل تأمين قوت عائلاتهم.

– نشرات الأخبار المسائية تظهر لنا بوضوح كيف يقومون بتأدية واجباتهم، بتعذيب الناس وترهيبهم واقتحام المنازل للقبض على الإرهابيين.

– وماذا عن أفراد الشرطة الذين يُقتلون؟

– المسألة فعل وردّ فعل. – يقول ساخطاً، ويسكت لوهلة قبل أن يحدجني بنظراته القاسية كعادته وهو يوضح – لا تسئ فهمي، فأنا ضد الإرهاب بكل أنواعه. فإرهاب المواطنين يعطي مبرراً لإرهاب الدولة لينفلت من عقاله. وقد لا تصدق ذلك، لكنني أشعر بالحزن حين أسمع عن موت أحد من أفراد الشرطة.

– ليس هناك من سبب كي لا أصدقك، فنحن شخصان على قدر كبير من الوعي، نتناقش في أمر يعنينا، بكل هدوء.

لكنه يرمقني لوهلة، وكأنه يريد تخمين ما أريده.

– ولكن صديقك لا يفكر مثلك.

– أتعني ناجي؟ – أقولها مبتسماً – في الحقيقة هو شخص طيب القلب، ولكنه خسر أحد أصدقائه في اعتداء وقع قبل يومين. وأراد أن يصبّ جام غضبه عليك.

– أنا أيضاً خسرت أحد أعز أصدقائي – يقولها بصوت مشحون بالحقد – ولكنني لم أقم بالإساءة لصديقك انتقاماً.

– أنا آسف. – وأردف بعد أن تيقنت من اقتراب الفرصة التي كنت أبحث عنها – وكيف مات؟

– كان من الممكن أن يصبح شاعراً بارعاً – وكأنه لم يسمع سؤالي – رغم أن ظهور شاعر حقيقي هو آخر اهتمامات الناس في هذه الأيام.

– من قتله؟

– من؟ – يحدجني بنظرات تتطاير شرراً، حتى أنني أتخيله سيوجه أصابع الاتهام إليّ، ولكنه يشيح بنظره – ومن سيكون سوى الشرطة؟

– وهل كان صديقك إرهابياً؟

يعود للتحديق فيّ كعادته.

– أعني هل كان منتسباً إلى أحد المنظمات السرية؟

– لا، لم يكن – ويبتسم بمرارة – والمؤلم أنه تمّ تخويننا من قبل المنظمة حين كنا في السجن.

– إذاً لا بدّ من وجود سوء تفاهم، ما هو اسمه؟

ينظر إليّ هذه المرة وقد رقت ملامحه وهو يجيب:

– فخري – ويردف بصوت مكسور – فخري إرتورك – ويشير بيده نحو الجدار الواقع خلفي وهو يوضح – انظر، تلك هي صورته.

ألتفت بفضول إلى حيث يشير، فأرى صورة ملونة لفخري وهو ينظر مبتسماً، يحيط بها إطار أسود. وقد دوّن تحت اللوحة التاريخ (1958– 1995) وتحت الصورة أربعة أبيات:

وجه منحوت من الغضب

قسوة تخفي وراءها ألم الهزيمة

لا تغرنك شتائمه القذرة

فخلف تلك العيون طفولة أليمة..

وقد أحيط الإطار بزهور قديمة طالها اليباس منذ بعض الوقت. وفوق الصورة وعلى يسارها ويمينها عُلقت ثلاث صور فوتوغرافية أخرى، تضم مجموعة من الشبان، لكن من الصعب تبين ملامح الوجوه من مكاني.

– هل لي بإلقاء نظرة قريبة على الصور؟ – أسأله بتهذيب وأنا أنهض متجهاً نحو الصور. ورغم أنه يعجز عن إدراك ما أرمي إليه، لكنه لا يمسك نفسه عن النهوض واللحاق بي.

– بالطبع، فقد قمنا بتعليق هذه الصور حتى يتمكن الناس من رؤيتها. – يتمتم وهو يتبعني.

تسترعي الصور المعلقة فوق صورة فخري انتباهي، وهي صورة قديمة غير ملونة، تضم مجموعة من الشبان. وحين التدقيق فيها، يتبين أنها صورة لحوالى ثلاثين من طلبة المدرسة بوجوه شابة مشرقة تعلوها ابتسامات مفعمة بالأمل. لا بدّ أنها تعود إلى ما قبل عشرين عاماً أو أكثر. ودعكم من العثور على البائع الجوال، فمن الصعب العثور فيها حتى على فخري وسنان.

– عمن تبحث؟

حين أدير رأسي، أجده واقفاً خلفي تماماً.

– أحاول أن أميز وجهيكما.

فيشير دون اهتمام إلى أحد الشبان الواقفين.

– أجل، هذا أنت. – ومن ثم يشير إلى شاب آخر مقرفص أمامه – ولا

بدّ أنّ هذا صديقك. — أقول.

— كنا في الخامسة عشرة من العمر.

تتجه نظراتي نحو الصورة الأخرى، والتي ظهر فيها ثلاثة أشخاص فقط. وهي صورة ملونة، لا تبدو أنها بالغة القدم كسابقتها، حيث أتعرف إلى فخري وسنان على الفور. وقد توسطهما رجل يعتمر قبعة. أقترب منها أكثر، فيبدو رجل طويل القامة بشارب كث، لكن ظل واقية القبعة الذي يسقط على وجهه يمنع ظهور ملامحه بوضوح، دون أن يخفي فكه القوي. وقد حمل في يده اليمنى مسبحة، ولكنه يقف باحترام بالغ رفقة الشابين. أيعقل أن يكون البائع الذي أبحث عنه. أحاول استحضار هيئة الرجل في ذاكرتي، فيبدو لي صاحب القبعة مألوفاً.

— هذا الرجل.

فيقاطعني سنان قبل أن أكمل سؤالي.

— لا أعلم ما الذي تبحث عنه على وجه التحديد، ولكنني أجزم لك بأن من تنظر إليه لن يفيدك في شيء

ألتفت نحوه مجدداً وأنا أسأله:

— لِمَ تقول ذلك؟

— إنه جندي كان يخدم تحت إمرة والد فخري، الذي وقف إلى جانبه وساعده كثيراً، لذا بقي الرجل وفياً لرئيسه، معترفاً بفضله. وحين تمّ تحويله إلى سجننا، قمنا بضمه إلى مجموعتنا، حيث كنا خير عونٍ بعضنا لبعض في ذلك المكان الرهيب.

يبدو أنني عثرت على ضالتي.

– يلوح لي أنني رأيته من قبل – أقول في محاولة للحصول على معلومات أكثر – ولكنه أصيب بالصلع أليس كذلك؟

– أجل – يجيب سنان مستغرباً –كيف عرفت؟

– ما اسمه؟

يرتاب من أسئلتي ولكنه لا يستطيع تخمين ما أريد الوصول إليه. وبعد أن يرمقني لبرهة يبتسم بثقة وهو يجيب:

– جمعة – ويردف بسخرية – جمعة داغلي، ولكنه لن يوصلك إلى أي مكان، فالمسكين حُكِم بالسجن المؤبد، وهو لا يزال في السجن حتى الآن.

– في أي سجن؟

– أنت لا تصدقني أليس كذلك؟

– إنه مجرد فضول لا أكثر.

– سجن غوكجى أدا.

أعود للتمعن في الصورة، إنه هو بكل تأكيد. ورغم أنني لا أعرف كيف خرج من السجن، لكنني واثق بأنه من أبحث عنه.

ألقي نظرة عابرة على الصورة الثالثة، والتي التقطت في قاعة المحكمة أثناء محاكمة مجموعة منهم، دون أن يظهر جمعة فيها. أحقاً سأتمكن من العثور عليه في السجن؟

أنظر إلى صورة فخري للمرة الأخيرة وأنا أقول:

– أمر محزن، لقد كان وسيماً.

– أجل، كان كذلك – ويعود باتجاه الطاولة وهو يردف – كان مثل الأبطال الذين نشاهدهم في الأفلام السينمائية؛ وسيماً ذكياً شجاعاً،ومضحياً.

– موته خسارة بالفعل. – أعلق.

– أجل، خسارة كبيرة. – ويواصل مدح صديقه في جمل متقطعة، وبتأثر بالغ يشير إلى مدى تعلقه به. فليس من السهل خسارة صديق ظلّ يرافقك منذ أيام الدراسة. نعود للجلوس فيما يستمر في المديح حتى وصول القهوة. حيث يضع النادل الفنجانين وكأسي الماء على الطاولة ليتركنا وشأننا من جديد.

– على ما أذكر فقد قام صديق باعتداء مسلح على أحد عناصر الشرطة، وقُتِل نتيجة إطلاق النار عليه.

ينظر إليّ بجدية بالغة وهو يقول:

– ما زلت تراوغ، لقد طلبت منك أن تكون واضحاً، وأن تسألني عما تريده صراحة، فليس لديّ ما أخفيه عنك. أنا لا أقوم بأي عمل مخالف للقانون، ولست منتسباً لأي منظمة سرية.

أحافظ على هدوئي فيما أرتشف من فنجاني، بينما يراقبني سنان بدقة، دون أن يضيع أي حركة أو تعبير يبدو على وجهي. إنه شاب ذكي، فقد أدرك ما أرمي إليه منذ البداية. أعيد الفنجان إلى مكانه قبل أن أعلّق:

– كثيفة الرغوة، وتوافق ذوقي تماماً.

– صحة وعافية – ويضيف في صوت يخالطه القلق والضيق – ما الذي تريده مني، هلاّ أوضحت لي؟

– لا شيء. فكما لاحظت، لم أقم بطرح أي سؤال عليك، بل أنت من

بدأ الحديث. ويمكنني الذهاب الآن دون أن أضايقك أكثر.

– لا أظنك ستفعل ذلك. وإن شئت الصدق، فقد كنت أنتظر قدومكم قبل الآن؛ منذ أن قُتِل فخري.

أشرب رشفة أخرى من قهوتي، وأسأله متصنعاً الاستغراب:

– ولماذا كنت تنتظرنا؟

– لأنكم ستبحثون عن وجود منظمة ما خلف الحادثة. وأنا أول شخص ستطرقون بابه حين بدءِ التحقيقات. فقد كنا أصدقاء منذ الطفولة، وانتسبنا للتنظيم ذاته، وسجنا معاً، فهل من أحد يعرف أسراره أكثر مني؟ وإن شئت الحق فتأخركم حتى هذه اللحظة قد أثار دهشتي. خاصة أنني تلقيت خبر مقتل أوزِر؛ أحد رفقانا القدامى فيالتنظيم.

أحاول تذكر من يكون أوزِر هذا، ولكنني أعجز، فيبادر سنان بالتوضيح حين يلحظ ترددي:

– أوزِر يلكى، الشاب الذي رفضتم تسليم جثته لعائلته، واحتفظتم بها لفترة طويلة في المشرحة، للتحقق من شخصيته.

فتتراءى أمام ناظري صورة جسد مسجى على طاولة المشرحة.

– أجل، لقد تمّ قتله قبل خمسة عشر يوماً في اشتباك مسلح.

– لا أعرف إن كان اشتباكاً أم شيئاً آخر. أياً يكن الأمر، حين سمعت بالحادثة، بتّ واثقاً من أنكم ستطرقون بابي. ولكنكم لم تفعلوا وهو ما زادني استغراباً. حتى أنني بدأت أعتقد لوهلة بأنّ شرطتنا تخلت عن أساليبها القديمة البالية، إلى أن اتصلوا بي في الأول من شهر شباط متذرعين بعدم استلامهم أعداد

مجلتي. أي مصادفة تلك التي جعلتهم يتذكرون المجلة بعد موت فخري، رغم أنني انقطعت عن إرسالها منذ فترة طويلة. وحين أتيت إلى قسم الشرطة ولعبت دور الشرطي الجيد معي، وأطلعتني على اهتمامكم بالكتب فوق ذلك، خمّنت – ولو بصورة مبهمة – ما الذي سيلي هذه الخطوة.

أراقبه بإعجاب تشوبه سخرية وأنا أعلّق:

– لديك مخيلة رائعة. أظنك أخبرتني أنك تعمل على كتابة رواية أليس كذلك؟ صدقني ستكون رواية ناجحة.

– هذا ما أرجوه. ولكن عليّ في البداية معرفة حقيقة نواياك. ما الذي تريد معرفته عن فخري؟

– لم أكن أعلم أنك صديق فخري إرتورك حتى البارحة. ولكن ما تقوله لي الآن غريب بالفعل. والسؤال الوحيد الذي يشغل ذهني؛ لماذا يقدم شخص غير منتسب إلى منظمة إرهابية، على محاولة قتل أحد أفراد الشرطة؟

– ربما بسبب الحب.

أبتسم.

– هيا يا رجل. وهل من عاشق يقوم بمحاولة قتل أحدهم من أجل الحب في وقتنا الحالي؟ خاصة إن كان شرطياً.

– لو أنك عرفت فخري كما عرفته أنا، لأدركت ما أعنيه، فهو إن تعلق بأمر ما، سيفعل المستحيل من أجله.

– كما تعلق بالتنظيم مثلا؟

– أنت محق، ففي فترة ما، كان التنظيم يشكّل محور حياته.

– وماذا عنك؟

يرمقني بنظرات ملؤها الشك لوهلة، ومن ثم يوضح في لامبالاةصريحة:

– لقد كنت مثله، لكنه كان أكثر اندفاعاً وحماساً مني. وكان يرفض الإذعان للقوة والتهديد، ويتمسك بمبادئه حتى النهاية، دون التنصل من أي تضحية مهما كانت كبيرة. فقد رباه والده بهذه الطريقة، وقد كان حاد الطباع شديد الصراحة، لذا لم يقوموا بترقيته في العمل بحسب ما كان يحدثنا فخري، بل كان دائم الاختلاف مع رؤسائه. وحين كان فخري يتشاجر مع بقية أولاد الحي ويعود باكياً إلى المنزل، كان والده يقوم بضربه وتعنيفه قائلاً: «لا تعد إليّ باكياً». وقد تعلم بهذه الطريقة مواجهة من يسيء إليه دون خوف.

– أظنك لا تفضّل الشجار والمشاكل؟

– الأمر لا يتعلق بتفضيلك لهذه المسائل. فأنا كنت مثلاً أميل للكتابة والقراءة أكثر، بينما فخري كان عاطفياً في تعلقه بموضوع معين، وأكثر اندفاعاً وجرأة مني.

– ولكنها صفات جيدة بالنسبة إلى شخص ثوري.

– أحياناً. – يفكر للحظات قبل أن يواصل – وفي أحيان أخرى تحتاج إلى الاعتماد على حدسك وما يمليه عليك المنطق. ففي تلك الأزمنة، كنا بحاجة ماسة إلى معرفة فنون القتال، لأنها كانت من صميم حياتنا اليومية. ولا أنكر أنه كان وضعاً يروق لنا حينها. لقد كان كل ما يحيط بنا يحمل زخماً قوياً وخاصاً. فلم أكن أشعر بالفراغ كما الآن، ولا أضيع متخبطاً بين عقبات الحقيقة، فكل ما كنت أحياه كان يعزز مُثلي، وهذه المشاعر كانت أكثر قوة لدى فخري. فالمدرسة والعائلة والعمل لم تكن تعني لنا شيئاً. كانت الأيام تمضي مسرعة في نشاط محموم، ومن ثم بدأوا بإلقاء القبض علينا. وتلك المنظمة التي كانت تعني لنا العالم برمته،

انفرط عقدها خلال بضعة أسابيع، وأصبحت جميع المخافر تحت سيطرة الشرطة. وخلال التعذيب المتواصل أثناء التحقيقات، أصبح أكثر من ثلثي أعضاء التنظيم خلف القضبان. وبعد تجاوز صدمة السجن، بدأنا نحاول الاعتياد على سير الحياة في الداخل. فالثوري يجب أن يواصل الكفاح والصمود تحت كل الظروف. وقد شكّل السجن امتحاناً قوياً بالنسبة إلى رفاقنا الثوريين.

حينها ظهرت أمور كثيرة أثارت استغرابي أنا وفخري، فقد كنا نشارك بعضاً من أهم قادة التنظيم المهجع ذاته، ونتواصل معهم. وبدل كل تلك الشعارات الرنانة والخطب النارية، كنا نراهم يصرفون جلّ وقتهم في مناقشة توافه الحياة اليومية، من غسل الثياب والطبخ والتنظيف. قد كانت الحياة هناك بالغة القسوة، شديدة الواقعية، تسقط خلالها كل الأقنعة لتظهر الحقيقة عارية بكل بشاعتها. حينها بدأنا ندرك الاختلافات الجوهرية التي تفصلنا عنهم. وبدأت المشاكل تطلّ برأسها بين قادة التنظيم. كان ذلك أمراً طبيعياً إلى حدود معينة، فالمشاركة الإجبارية للمساحة المقتضبة ذاتها مع كثير من الناس، خلال ساعات وأيام لا تنتهي، لا بدّ أن يثير بعض القلاقل. ولكن الأهم هو ذلك الاختلاف الكبير بيننا وبين الكومونة بشكل عام. ربما كان هذا الاختلاف موجوداً منذ البداية لكنه كان يضيع وسط زخم نشاطاتنا واندفاعنا المحموم قبل السجن.

– أي نوع من الاختلاف؟

– بدأ أول جدال بيننا حول الكفاح المسلح. حيث قمنا أنا وفخري بتحضير تقرير حول الأمر. فمن وجهة نظر التنظيم، أنّ النشاطات المسلحة ستضعف الدولة، وهذا سيسهل قيام ثورة الجماهير، ولن أبالغ إن قلت إنّ سياسة التنظيم برمتها كانت تعتمد على هذه الاستراتيجية. ولكن الوقائع كانت تشير إلى حدوث العكس تماماً. فبدل إضعاف الدولة المزعوم، باتت أكثر قوة من ذي قبل، وأخذت تعتبر كل نشاط نقوم به أعمالاً إرهابية، وأخذت تعزز من أساليب

مكتبة

مكافحتنا، باعتماد أسلحة أكثر تطوراً، وأساليب أكثر فاعلية، مع زج المزيد من عناصر الشرطة في المواجهات، لتلصق بنا صفة الإرهاب. وإزاء كل ما يجري كان من العبث التمسك بسياسة الكفاح المسلح. وهذا ما حرصنا على توضيحه في التقرير الذي قمنا بإعداده، مقترحين أن يقوم التنظيم باتباع سياسة مغايرة. ولكنه أثار زوبعة هائلة بين البقية، وتم اتهامنا بالخيانة، ومحاولة زعزعة أركان التنظيم، والانقلاب على مبادئه، وبالتالي استبعادنا. بالطبع لم نقبل بهذه التهم، موضحين أنّ هذه المناقشات هي من أبسط حقوقنا، لكنهم لم يوافقوا على وجهة نظرنا. والأسوأ أنهم اتهمونا بالجحود ومناهضة مبادئ الماركسية وثورة البروليتاريا.

– ومن ثم قاموا بطردكما من التنظيم.

– هذا ما حصل.

– ألم تحاولا الاعتراض؟

– وما فائدة الاعتراض؟ فمعظم قادة الكومونة كانوا يؤيدون هذه الفكرة. ولا يمكنك إقناع الناس بالقوة. فلم نجد أمامنا من سبيل سوى الابتعاد عن التنظيم.

– أنتما الاثنان فقط؟

– نحن الاثنان. ربما كان ما حدث لصالحنا، حيث بات بإمكاننا التصرف على هوانا، واختيار منهج التعليم الخاص بنا. ولكنني لا أنكر أننا كنا نحس بفراغ ما في أعماقنا، حيث افترقنا عن أصدقائنا الذين حاربنا معهم لسنوات طويلة جنباً إلى جنب، وتقاسمنا الكثير من الذكريات المؤلمة والمفرحة.

– ألم تفكرا في الانضمام إلى تنظيم آخر؟

– فكرنا في ذلك بالطبع، ولكننا لم نعثر على تنظيم يشاركنا الآراء ذاتها. فأحزابنا اليسارية للأسف عاجزة عن تجديد نفسها وتقبل معطيات الواقع بسهولة.

مكتبة

– ألم تحاولا إنشاء تنظيم خاص؟

– توقف عن رهاب التنظيمات لو سمحت – يقاطعني بحزم – لماذا لا تحاول فهم ما أقول؟

– هون عليك قليلاً، ولا تنفعل بهذه السرعة. قهوتك ما زالت على حالها، من دون أن تشرب منها شيئاً.

– دعنا من القهوة الآن، فقد قتل أعزّ أصدقائي، فيما أكاد أواجه تهمة الانتساب إلى تنظيم إرهابي.

– ليس هناك من يتهمك بشيء، وبالنسبة إلى صديقك فقد قضى نحبه في اعتداء مسلح. ولكن أيعقل أنّ فخري عاد للتنظيم من دون أن يطلعك على الأمر؟

– محال – يؤكد وهو يزفر في ضيق – لأننا كنا على تواصل في الشهور الأخيرة، فبعد أن ابتعدنا عن التنظيم، وجهنا جلّ اهتمامنا نحو الأدب. في الداخل يصبح المرء أكثر حساسية وأكاد أجزم أنّ معظم السجناء السياسيين كانت لديهم محاولات شعرية، أما اهتمامنا الأدبي فيعود إلى ما قبل ذلك بكثير، إلى مرحلة الدراسة الثانوية، فقد كنا نعمل في النادي الأدبي، أما في السجن فأصبح لدينا فائض من الوقت للاهتمام بالأدب والشعر. حيث اتجهت نحو كتابة القصة فيما كان فخري يكتب الشعر، وقد راسلنا بعض المجلات الأدبية من داخل السجن، لنشر مؤلفاتنا. حيث نشرت إحدى المجلات ذات الميول اليسارية قصيدتين لفخري، وقصة لي. ولكن بعد أن تمّ طردنا من التنظيم، لم تعد هناك جهة ترغب في نشر أعمالنا. فالمجلة التي كانت موالية للتنظيم، رفضت نشر أعمالنا بعد اتهامنا بالخيانة، أما بقية المجلات والدوريات، فكانت تصنف أعمالنا في خانة «أدب السجون»، وترفض حتى إلقاء نظرة على محتواها أو تقييمها. ورغم كل هذه العوائق كنا نواصل

الكتابة، بل وبحمية أكبر في محاولة لكسر هذا الحصار المحيط بنا من كل الجوانب. وبعد سنوات عدة، أصبحت السياسة بالنسبة إلينا خياراً ثانوياً، وانصب جلّ اهتمامنا على الأدب. في البداية كانت أعمالنا تحمل طابعاً تعليمياً، ومع مرور الوقت أخذنا نكتسب خبرة أكبر، وبات ما نكتبه يتصف بمسحة أدبية أكثر نضوجاً واختماراً. وقد اتضح لنا الأمر من خلال آراء المحيطين بنا.

– وكان أحد المحيطين بكم هو جمعة أليس كذلك؟

– أجل، وقد كان يبذل كل جهده في الاعتناء بنا، لأنه وعد والد فخري بذلك.

– ألم يكن هناك أحد آخر يشارككم توجهاتكم الأدبية؟

– كان هناك بعض المتحمسين – ويبتسم – فقد حاولوا مجاراة نشاطنا المحموم، وترجمة مشاعرهم في قصائد متفرقة لنيل إعجاب رفاقهم، ولكنهم كانوا يتخلون عن الأمر بعد مرور أشهر قليلة، كما أنّ موجة الاهتمام بأدب السجون قد بدأت بالتلاشي مع مرور الوقت، ولكننا لم نتمكن من التخلص من تأثير تلك الموجة. وبعد خروجنا من السجن لم نستطع أن ننفي عن أنفسنا صفة أدباء السجون. وهذا ما دفعنا لإصدار مجلة «روفات»، إلا أنّ فخري كانت لديه وجهة نظرة مغايرة، فقد فضّل الصبغة الأكاديمية، لذا قام بالانتساب للجامعة، رغبة منه في الاطلاع على كل المدارس والنظريات الأدبية، بحثاً عن أفق أوسع يتيح له تقييماً مغايراً.

وفيما يواصل سنان الحديث، بدأت أدرك أنني لن أصل إلى أي نتيجة تهمني، والأسوأ أن يكون قد أعدّ لهذا السيناريو مسبقاً، محاولاً بذلك التملص من الإدلاء بما أريده.

– حسناً، ولكن لماذا تسرد لي كل هذه التفاصيل؟ – أسأله بتبرّم واضح.

– أنت سألتني، وها أنا أجيبك.

– عمّ سألتك؟

– إن كان باستطاعة شخص ثوري القيام بجريمة قتل في سبيل الحب.

– ولكنك حتى الآن لم تحدثني عن الحب – أجيبه بسخرية.

– كدنا نصل إلى ذلك الجزء من الحكاية، فبعد خروجنا استطاع فخري اجتياز امتحانات القبول الجامعي بنجاح، وانتسب لجامعة «المعمار سنان» قسم الآداب. في البداية كان متحمساً كثيراً، ولكنه مع مرور الوقت فقد هذه الحماسة، لأنّ معظم المناهج التي تدرّس في الجامعة معروفة لديه مسبقاً، عدا عن كونها مقولبة في أطر فكرية ضيقة، كما بدأ يشعر بالملل وسط الطلاب الذين يصغرونه بسنوات، ويختلفون عنه في طراز التفكير والحياة، ولكنه كان يهدف لإنهاء الجامعة والانتقال للماجستير. وكان يلاحظ تصرفات الأساتذة الجامعيين ومساعديهم، ولم يكن راضياً عما يراه؛ حيث يعتمد التقييم على المحسوبيات والتذلل والمحاباة، بدل الالتزام بالمعايير الموضوعية والعلمية. وفي كل لقاء كانت شكواه وتذمره في ازدياد. وفي آخر مرة صارحني برغبته في ترك الجامعة، ولكن الأمور أخذت مساراً فاجأنا جميعاً فيما بعد.

ففي بداية افتتاح المكتبة، جاء لزيارتي وقد سررت كثيراً بسبب طول غيابه عني.

وأذكر أنني قلت له مؤنباً:

– أين أنت يا رجل؟

فأجابني قائلاً:

– منشغل بالجامعة كالمعتاد. – ولكنني لاحظت تغيراً طرأ عليه، فقد بدا أكثر تفاؤلاً وكان وجهه يفيض ببريق يختلف عن الملل والسأم اللذين كان يقابلني بهما كل مرة. فسألته في فضول:

– ما سرّ هذه البهجة؟

– لا شيء. – ولكنه لم يكن قادراً على إخفاء فرحته.

– كيف لا شيء وعيناك تفيضان حبوراً؟

– تعرفت على فتاة – وابتسم في خجل.

– إيه؟

– هذا كل ما في الأمر.

– لا يبدو لي الأمر كما تقول.

وحين رفع رأسه لينظر إليّ، بدا لي أكثر شباباً، وأدركت حينها أنّ تلك الفتاة تمكّنت من إبهاره بطريقة ما. فقد تغيرت ابتسامته وحركاته وبات مفعماًبالنشاط.

– لن تنجو بهذه البساطة، أخبرني بما جرى معك، وبالتفصيل.

– اسمها مينة – لقد كان مجرد اسمها يجعل عينيه تفيضان ببريق لم ألحظه منذ سنوات طويلة. كان يردد اسمها بشغف وكأنه طلسم سحري مقدس يزيده ولهاً. في تلك اللحظة أدركت كم هو مغرم بها. ولن أخفيك أنني شعرت بحسد خفي حينها، ولكن فرحتي كانت أكبر بما لا يُقارن.

أخبرني أنها طالبة في كلية الفنون الجميلة، وقد تعرف إليها أثناء محاضرة عن علم الجمال، حيث وقع جدال بين فخري والبروفيسور الذي يلقي المحاضرة،

وقد وجدت مينة آراءه ملفتة فلحقت به حين الانتهاء لمناقشته، وبعد جولة لشراء بعض الكتب سوية، كان المسكين قد وقع وانتهى أمره.

– وماذا عنها؟ هل تبادلك المشاعر ذاتها؟ – سألته.

شعرت حينها أنّ ظلاّ ما يخيم على وجهه وهو يجيب:

– أظنها تبادلني الإعجاب، ولكنها تتصرف بغرابة في بعض الأحيان. أشعر بوجود حاجز خفي يمنعنا من الاقتراب أحدنا من الآخرأكثر.

– أتعني أنك لم تصارحها بالأمر؟

– لم أصارحها بعد، مارسنا الحب دون أن نتحدث في الأمر كثيراً.

نظرت إليه مستغرباً، وأنا أسأله:

– ما الذي تعنيه؟

– أجل، لقد مارسنا الحب دون أن نتحدث صراحة حول أمر علاقتنا، وما ستؤول إليه مستقبلاً. مينة فتاة غريبة الأطوار، ذات طبيعة متحررة جداً. ليست غير مبالية، فهي تستمع إلي حين أحدثها عن أمر ما، ولكنها لا تطرح أي أسئلة، أو تفضي لي بشيء حولها.

لم أستغرب حينها ما يقوله فخري، واعتبرتها إحدى حيل النساء لجذب اهتمامه والإيقاع به، ولكنه عاد إليّ بعد أسبوعين في حال يرثى لها.

– ما الأمر؟ لِمَ كل هذا الوجوم؟ – سألته.

– الفتاة على علاقة بشخص آخر. – أوضح لي.

– أحقاً؟ – سألته مندهشاً.

– وقد أخبرتني أنها تريد الانفصال عنه.

– إذاً الأمور بخير، وما من مشكلة.

– ولكنه يعمل في سلك الشرطة.

– الشرطة؟ – خفت أن تكون هي أيضاً من الشرطة، وكما تعلم فنحن أصحاب سوابق، وقد يكون الأمر فخاً لمراقبتنا، ولكن فخري الذي بدا وكأنه يقرأ أفكاري، بادر بالتوضيح:

– لقد أخبرتني أنّ ما يجمعها به مجرد علاقة عاطفية لا أكثر، فهي من أحبته في البداية، وحين بدأ الرجل مبادلتها الحب، ومع مرور الوقت بدأت مشاعرها تخف، ولكنه لا يتقبل هذه الحقيقة، وقد عرض عليها أن يطلق زوجته.

– أهو متزوج؟ – استفسرت مذهولاً مما أسمع.

– ولديه طفلان. ولكنني شعرت باستياء كبير لأنها لم تخبرني بالأمر منذ البداية، وتشاجرنا وساءت الأمور بيننا كثيراً.

في الحقيقة كان يريد نصيحتي، ولو كان الأمر مجرد لهو وعلاقة عابرة لطلبت منه أن يتركها على الفور، ولكنه كان قد سار في الطريق إلى الحد الذي يصبح معه الرجوع شبه محال، وتورط حتى قمة رأسه في معمعة مشاعره تجاهها. بالإضافة إلى احتمال أن تكون الفتاة صادقة فيما تقول. فقد أحبت أحدهم ولكن مشاعرها بدأت بالخفوت مع مرور الزمن، وهذا أكثر الأمور اعتيادية، أليست كل قصص الحب تبدأ قوية وتخبو مع الوقت؟

كان ينظر إليّ وهو يطرح هذا السؤال بانتظار تعليق ما.

– في الحقيقة لا أستطيع أن أجزم بشيء، فمعلوماتي وتجاربي حول موضوع

الحب أقل من أن يُعتمد عليها.

– لا عليك، فقد كان مجرد سؤال عادي. – يوضح لي.

وفيما تراودني الشكوك إن كان مطلعاً على الحقيقة، يواصل حديثه:

– حاولت حينها أن أسدي له النصيحة قائلاً:

– لن تتمكن من حلّ مشكلتك مع مينة بالشجار، حاول أن تهدأ قليلاً، ومن ثم اذهب وتحدث معها بهدوء وروية.

– إن وافقت على التحدث معي مرة أخرى.

– ربما ستتمنع في البداية، ولكنها ستوافق في النهاية فهي أيضاً متعلقة بك على ما يبدو.

وقد حدث ما توقعته، فقد وافقت الفتاة على لقائه، وأخبرته أنا ستقطع علاقتها بالآخر بشكل نهائي. فعاد فخري إلى حالته السابقة من البهجة والتفاؤل. ولكن الرجل لم يكن ينوي أن يترك الفتاة وشأنها، ورغم ذلك فقد أظهرت التزامها بما قررته، وتوقفت عن لقائه. وبعد شهر التقيت بفخري حيث بدا منهاراً، لأنّ الفتاة كانت حاملاً.

– ماذا كانت؟ – أسأله بصوت عالٍ.

ولكن سنان لا يلحظ صدمتي إزاء هذا الخبر، بل يواصل بنبرة عادية:

– كانت حاملاً.

– وممن كانت حاملاً؟

– لماذا أنت مهتم بالأمر إلى هذه الدرجة؟

– مجرد فضول.

– حسناً، سأشبع فضولك – يقولها في نبرة عابثة – لقد ظنها فخري حاملاً منه، لذا عرض عليها الزواج، لكنها لم توافق.

– ولماذا لم توافق؟

– لأنها اعتبرت الوقت مبكراً على إنجاب طفل سيعيقها عن إتمام دراستها.

– وهل حاولت الإجهاض؟

– هذا ما كانت تريده، على عكس فخري الذي كان راغباً في أن تنجب الطفل.

أتظاهر بالابتسام حتى لا تغلبني مشاعري التي تكاد تعصف بقلبي وأنا أسأله:

– إذاً فقد كان يحب العائلة وتكوين أسرة؟

– المسألة لا تتعلق بتكوين أسرة، ولكنه كانت متعلقاً بها كثيراً، وكان مقتنعاً أنّ إنجابها لهذا الطفل سيخلق رابطاً قوياً بينهما يصعب فصم عراه مدى الحياة.

– إذاً فهو لم يكن واثقاً من مشاعرها تجاهه كثيراً؟

– أظنه حال جميع من يحبون، فهناك دائماً خوف من أن يتركك الشخص الذي تحبه لسبب ما.

– وهل أجرت الفتاة عملية الإجهاض؟

– هذا ما لا أعلمه. فقبل ذهاب فخري إلى أنطاليا، حدثت مناقشة حادة بينهما، وسافر على إثرها إلى أنطاليا، حيث اختفت المسكينة بعد يومين.

– كيف اختفت؟ – أسأله وأنا أراقب كل خلجة في وجهه إزاء هذا السؤال.

– لا أحد يعلم حقيقة الأمر – يجيبني في هدوء واضح – فبعد يومين من سفره إلى أنطاليا اتصل بها دون أن تجيب، وعاود الاتصال أياماً عدة ولكنه افترض أنّ هاتفها معطل، ولم يخطر بباله أي احتمال سيئ. وبعد أسبوع تتصل الشرطة بمنزل عائلته في أنطاليا لتسأله عن الفتاة، وعن تاريخ سفره وما إلى ذلك، فيخمن فخري وقوع خطب ما، ويسرع بالعودة إلى إسطنبول. ولا يجدها في المنزل، فتخبره المدام صاحبة المنزل أنها مختفية منذ ما يقارب الأسبوع، وأنّ والدتها قلقة جداً عليها، وعلى إثر ذلك يأتي إلي في حالة يرثى لها ليخبرني:

– لقد قام الرجل بقتلها، وهو يحاول الآن أن يلبسني التهمة.

– ولماذا سيقدم على قتلها؟ – سألته.

– ربما كانت حاملاً منه – أجابني منهاراً وهو يكمل – وإلا فما سبب إصرارها على التخلص من الجنين؟ ربما كان رافضاً لفكرة الإجهاض، ويريد الاحتفاظ بالطفل لكي تعود إليه، لكنها بقيت مصرة على رأيها. ربما حدث بينهما شجار انتهى بمقتل مينة دون قصد منه، وربما تعمد قتلها، واختفى بعد ذلك، وها هو يحاول أن يوجه أصابع الاتهام نحوي لينجو بفعلته.

– على رسلك. لا تستلم لهذه الأفكار على الفور، فربما أجرت عملية الإجهاض وانزوت في مكان ما حتى تستعيد عافيتها.

– لا أظن، فهي لم تكن تنوي إجراء العملية هنا. فقد قررت السفر إلى

والدها في ألمانيا بعد عشرة أيام وإجراء العملية هناك.

– وربما تكون هناك، هل اتصلت بوالدها؟

– اتصلت والدتها، لكنها ليست هناك. لقد بتّ متيقناً أنّ هذا الوغد قد قام بقتلها أو إيذائها.

– إذاً دعنا نخبر الشرطة بكل ما لدينا.

رمقني للحظات، وكأنني تفوهت بأكثر الأشياء حماقة قبل أن يجبني:

– وهل سيصدقون اثنين من ثوريي اليسار السابقين؟ لا تكن سخيفاً. وحتى إن صدقوا، فهل سيجرؤون على مواصلة التحقيق؟ فبحسب مينة كان الرجل في منصب رفيع جداً، وإن لم تخبرني ما هو.

– ولكن لا بدّ من القيام بشيء ما. – علقت.

– الحل الوحيد هو التخلص منه، فقبل أن يقدم على قتلي، سأقوم أنا بذلك.

– إياك أن تفعل. فالأمور ستزداد سوءاً، بل وسيتم اتهامك بكل ما جرى..

– إن كان قد أقدم على قتلها بالفعل، فلم يعد يعنيني إن تمّ اتهامي بالجريمة أم لا.

– توقف عن الحماقات. عليك الانتظار، فقد تكون في مكان لا يخطر على بال أي منا.

وضع رأسه بين يديه وأخذ يفكر في عمق.

– حسناً، سأنتظر لبعض الوقت، ونرى ما الذي سيحدث.

وفي تلك الليلة قامت الشرطة بإلقاء القبض عليه، والتحقيق معه، وقد تعرض لبعض التعذيب هناك، ولكنهم وإزاء عدم التوصل إلى أي نتيجة، قاموا بإطلاق سراحه صباحاً، حيث جاء إليّ لعدم وجود أحد آخر يلجأ إليه.

– لماذا لم تخبرهم عن حبيبها السابق؟ – سألت فخري.

– كيف سأخبرهم وقد قاموا بتغطية عيني أثناء التحقيق؟ ولا أستبعد أن يكون ذلك الوغد من كان يحقق معي.

– هل تعرفه؟ – سألته.

– لقد شاهدته في إحدى المرات برفقة مينة. – وأضاف بعد لحظات – هذا المجرم لن يتركني وشأني.

– لا تقلق، فلديك قرائن حقيقية تبعد عنك الاتهامات. وإن شئت لا تعد إلى منزلك، بل تعالَ للبقاء عندي لبضعة أيام.

– سأتجه غداً إلى غوكجى أدا، من أجل زيارة جمعة في السجن. وسأعود بعد يومين أو أكثر ربما، وسأتصل بك حال عودتي.

ولكنه لم يعاود الاتصال بي، فشعرت بالقلق عليه، وحين اتصلت به فيما بعد ردّ عليّ بالقول:

– أنا بخير لا تقلق عليّ.

ولكنه كان يخطط لقتل الرجل في تلك الأثناء.

– أراك قريباً. – قلت له.

– حسناً، سآتي إليك قريباً. – ولكنه لم يفعل.

فيما يواصل الحديث، كنت أفكّر في مينة، ولماذا أخفت عني موضوع حملها؟ أحقاً كان الطفل مني أنا؟ فقد مارسنا الحب قبل شهر من إنهاء علاقتها بي. حيث تمنعت في البداية وقاومتني، ولكنها بدأت تلين مع محاولاتي، ومارسنا الحب باهتياج بالغ وكأنها المرة الأخيرة. لا بدّ أنها أصبحت حاملاً بعد تلك المرة، ولكن لِمَ لم تخبرني، لِمَ أخفت عني شيئاً كهذا؟ فهو طفلي ومن حقي أن أعرف..

– ولكن ما رأيك أنت؟

ينتشلني سؤاله من معمعة الأفكار التي عصفت بي.

– حول أي شيء؟

– أظنها أصيبت بمكروه ما أثناء عملية الإجهاض – يوضح وهو يحدق إليّ.

– لو أنها ماتت أثناء العملية، لتمكنوا من العثور عليها منذ مدة طويلة. فحين يختفي أحد ما، تقوم الشرطة بالبحث بداية في المشارح والمستشفيات.

– وماذا لو خاف الطبيب الذي أجرى العمل، وقام بإخفاء جثتها؟

– احتمال ضعيف، ففي هذه الحالات سيضطرب الطبيب، ويرتكب حماقة تكشفه أمره، أما الأكثر ذكاء بينهم، فيقومون بوضع الجثة في مكان يسهل العثور عليه. وحتى الآن لم نسمع عن حادثة توافق الاحتمال الذي ذكرته. كما أنها كانت قد قررت إجراء العملية في ألمانيا، فلِمَ ستخاطر بإجرائها هنا؟ ولكن لا بأس من إعادة البحث عنها مرة أخرى، إلا أنّ ما يثير دهشتي، هو عدم لجوء فخري إليك طلباً للمساعدة.

– حول أي موضوع؟ – يسألني دون أن يخمن ما أعنيه.

– التخلص من الشرطي.

– لأنه كان واثقاً من رفضي للفكرة. وربما حاول إبعادي عن المشكلة حتى لا تطالني تبعاتها. لذا قرر القيام بالأمر دون توريط أي شخص يعنيه أمره. وبحسب ما قرأته في الجريدة فقد كان بمفرده.

– أجل، كان كذلك. – أؤكد له.

لقد تعمدنا الإدلاءِ بمعلومات ناقصة للجرائد، حتى يطمأن المتهم الآخر، ويتصرف دون خوف أو حرص من الشرطة.

– ولا بد أنّ كل هذه الأحداث تسبب في إثارة مخاوفك؟ – أسأله.

– لو كنت في مكاني، ألن تشعر بالخوف؟

– أنت محق، ولكن لا يوجد أي دليل يشير إلى تورطك في الأمر مع فخري، ولا أحد يستطيع توجيه التهمة إليك.

– لقد تمّ إعدام كثير من الناس دون دلائل أو قرائن في هذه البلاد. – يقول في نبرة يائسة.

– لا يجوز التعميم، فمعظم تلك الحوادث مجرد مصادفات. كما أنّ قوى الأمن لا تتبع هذا الأسلوب مع المواطنين. بالإضافة إلى أنني سأعاود البحث عنها بناء على ما أعلمتني به – وأنظر إلى ساعتي – أوووف لقد تأخر الوقت كثيراً، ويجب عليّ الذهاب. ألم يحضروا المجلات حتى الآن؟

– أظنها قد وصلت.

– إذاً عليّ أن أغادر. – أقولها وأنا أنهض عن الكرسي – وإن تعرضت

مكتبة

لأي مضايقة بخصوص المجلة، تستطيع القدوم إليّ – أوضح له فيما أهبط السلم.

– شكراً لك.

ألتفت إليه فأرى قلقاً عميقاً يرتسم على وجهه، لا بدّ أنه يخشى أن يتمّ توريطه في الحادثة. ولكن ما يشغل ذهني الآن، هو صورة جمعة التي شاهدتها، ومسألة حمل مينة التي اطلعت عليها للتو.

الفصل التاسع عشر

يرتدي عمي البدلة الكحلية التي يحبها كثيراً، وقد جلس خلف الطاولة الضخمة المصنوعة من خشب الجوز، والتي لا تناسب فخامتها بساطة أثاث مكتبه. يبدو وكأنه يحاول الاستعداد منذ الآن للاجتماع المزمع عقده غداً، وبدء الخطوات الاحترازية إزاء أي قرار مفاجئ قد يتخذه المستشار. ولكن لِمَ كل هذه الضيق البادي على وجهه؟

يحمل بين أصابعه قلم حبر أسود اللون أنيق الشكل، وهو هدية من المستشار السابق بسبب نجاحاته في العمل. وبدل النظر إليّ فيما أتحدث يختار الاهتمام بقلمه. هناك قلق يبدو جلياً في حركة يديه، ونظراته التي لا تستقر على نقطة واحدة لأكثر من ثانية، وطريقته وهو يرمقني بين الفينة والأخرى. على عكس آخر لقاء بيننا، حيث كان يفيض ثقة بنفسه، وقد شمّر عن ساعديه على جري عادته حين يستعد لإحدى العمليات المهمة، فيما يسدي إليّ النصائح والتعليمات بنبرة العارف الواثق. أهناك تطورات جديدة يا ترى؟ يبدو وكأنه يتعمد تجنبي، فقد استوى جالساً مسنداً ظهره إلى الكرسي، مبتعداً عني قدر المستطاع، وهو يستمع إلى ما أقوله. ورغم أنّني أطلعه على وقائع مهمة قد تساعدنا على حلّ القضية، لكنه لا يكترث بالمرة. وبعد أن أنتهي مما لديّ، يسألني في برود دون أن يظهر أدنى رغبة في الوصول إلى نتيجة، رغم اتضاح الصورة بشكل أكبر من ذي قبل:

– أتعني أنّ من أطلق النار عليك هو هذا المدعو جمعة؟

– على الأرجح.

يتنهّد بعمق، وكأنّ ما أطلعته عليه مجرد هذر وإضاعة للوقت ليس إلا.

– أنا متأكد أنه هو. – أجد نفسي مجبراً على التكرار إزاء بروده.

يحاول الابتسام، لكنه يعجز عن ذلك. لا بدّ أن ما يشغل ذهنه أمر في غاية الأهمية.

– هذه القضايا لا يمكن حلها بمجرد الاعتماد على احتمالات. – يوضح لي في ضجر واضح، ونظرات خالية من أي اهتمام.

– رغم أنّ الصورة غير واضحة، ولكنني بت متأكداً أنّ من نبحث عنه هو جمعة.

– ولكنه مسجون.

– لا بدّ أنه وجد طريقة ما للخروج.

– وعاد مجدداً؟

– لا أعرف. علينا التأكد.

– أتودّ الذهاب إلى السجن؟

أوافق بهزة من رأسي وأنا أجيبه:

– وأنا بحاجة إلى موافقة رسمية.

يصمت لبرهة قبل أن يجيبني شارداً:

– أجل، فمن المفيد أن تواجهه، متى تنوي ذلك؟

– اليوم، ولكنني لن أصطحب معي مصطفى.

يلتمع بريق من الشك في عينيه، فيترك القلم من يديه ويحدجني بنظرات

ثاقبة، قبل أن يسألني:

– لما ذلك؟

– حتى لا نمنح الآخرين فرصة لنشر الإشاعات والتقولات التي لا طائل منها.

فيضع ابتسامة مصطنعة على شفتيه الرقيقتين اللتين تذكراني بشفتي والدي وهو يعلق:

– ألم يكن يجدر بك التفكير في هذا الأمر قبلاً؟

– الرجوع عن الخطأ فضيلة حتى وإن جاء متأخراً، دعنا نقم بحلّ هذه القضية، وإن شئت بعدها، فلا مانع لديّ من تقديم استقالتي.

يعتبر كلامي نوعاً من التحدي، فيلوح الغضب في عينيه الزرقاوين، وهو يرمقني بحدة. وينهض فجأة وهو يصرخ:

– أيها الأحمق. لو اتضح وجود تنظيم سري خلف هذه الحادثة، فاستقالتك، بل حتى موتك لن ينفعنا في التخلص من هذا الذي أقحمتنا فيه.

– هدئ من روعك قليلاً.

– أهدئ من روعي؟ – يسألني وهو يحدجني في احتقار واضح، ويردف – لقد استدعاني المستشار لاجتماع خاص وغاية في الأهمية.

– وما المشكلة في ذلك؟

– ألا تفهم؟ إنّ غاية هذا الاجتماع هي محاسبتي. ومن يدري؟ فقد يحيلني إلى التقاعد أيضاً.

يتضح لي سرّ القلق الذي يسيطر عليه، فإحالة استخباراتي مثل عمي، أفنى معظم عمره في العمل، إلى التقاعد في وقت مبكرّ، يعتبر كارثة بالنسبة إليه.

– ربما هناك سبب آخر للاجتماع. – أحاول أن أخفف عنه قليلاً.

– وهل ستبالي كثيراً إن تحققت توقعاتي؟ – يقولها في يأس شخص تعرض لخيبة قاسية من أقرب الناس إليه.

– لا تقل ذلك عمي، فأنا لا أضمر لك أي سوء.

– توقف عن الكذب، وكأنني لا أعرف حقيقة نواياك؟

ربما يفترض بي الاستياء من كلماته، ولكنني لا أفعل. بل أشعر بالشفقة عليه، فلست بالنسبة إليه سوى ابن أخ عاق يحاول تدمير كلّ ما حاول أن يبنيه، ولم أعد ذلك الفتى الذي كان يعتبره ابناً له، ويكنّ له محبة عظيمة.

يتجه نحو النافذة، وألاحظ كيف يختلج جسده في ارتعاشات خفيفة. هذا الرجل الذي يستطيع الحفاظ على صلابة أعصابه وثقته بنفسه، حتى أثناء تنفيذ أكثر العمليات خطورة، يبدو لي الآن، عجوزاً مسكيناً، هزمته السنين.

أنهض باتجاهه، فيستند على إطار النافذة بيده حين يلاحظ اقترابي، ويرمقني بنظرة اشمئزاز لا يحاول إخفائها، ولكنني لا أبالي بل أتقدم خطوة أخرى.

– أعتذر لأنني تسببت في خلق المتاعب لك. – وأواصل بصوت منكسر – لم أشأ أن تصل الأمور إلى ما عليه الآن، ولكننا عاجزون عن إقناع الآخرين، حين نعجز عن الثقة ببع.

– لا نية لدي بإقناع أحد. – يقاطعني بحدة – كل ما أطلبه هو الحقيقة.

– وأنا سأكشف عن هذه الحقيقة، ولكن لما ستتحول حياتي الخاصة إلى

حديث يلوكه الجميع؟

– آه سِدات آه.. – يقول وهو يهزّ رأسه، والعجز يرتسم واضحاً في نظراته، وكأنه سيجهش بالبكاء في أي لحظة – من أجل فتاة؟ كل هذا من أجل فتاة؟

لا أدري بما أجيب، فيرمي بثقل نظراته على وجهي وهو يواصل:

– لا أصدق، فعقلي عاجز عن فهم الأمر. فكيف لرجل مثلك أن يتصرف كمراهق أرعن، ويستسلم لجنون الحب؟

أواصل الاستماع إليه وسط ضياع كل الإجابات عن ذهني، فيما يردف:

– هذا ما حصل؟ – ويكرر بحنق – أجبني هذا ما حصل أليس كذلك؟

– أجل. – وأواصل في استسلام – هذا ما حصل تماماً، لقد أحببتها بجنون مراهق أرعن.

يفيض الحقد من عينيه وهو يقول:

– كاذب! أجل أنت تكذب، ولا أصدق شيئاً مما تقول، الحب والعشق وكل هذا الكلام مجرد خزعبلات تافهة. فأنت تضع مهنتك فوق كل الاعتبارات.

– كنت أضعها. – وأكمل في صوت عالٍ – ولكنني تغيرت، أنتم من غيرتموني. لم تثقوا بي كما يجب، بل أحطتم بي كسدٍّ منيع، وسحقتم كل مبادئي.

– أنت تبالغ.

– لا أبالغ على الإطلاق. ففجأة أصبحت كواحد من أفراد الشرطة السياسية الذين يقتصر عملهم على مرافقة الشرطة أثناء مداهمة منازل الإرهابيين.

– أنت تعمل على البحث عن أدلة توضح صلات الإرهابيين باستخبارات الدول الأجنبية.

– أجل، فالإرهابيون سذج أغبياء، يحتفظون بأدلة عن هذه الصلات في منازلهم أليس كذلك؟

– عليك أن تتحلى بالصبر.

– أتحلى بالصبر؟ أظنني نجحت في ذلك، ولكن تغيرت بالمقابل.

– ليست طبيعة العمل، بل يلدرم هو من تسبب في تغييرك.

– دع عظام الرجل تستريح بسلام في قبره، فما علاقته بالأمر؟

– إذاً فأنت تلقي اللوم علينا؟

أرغب في أن أقوله له: نعم اللوم كله عليكم، ولكنني لا أفعل.

– ليس المهم الآن العثور على المذنب، بقدر حل المشكلة. فجميعنا نعمل هنا من أجل خدمة بلادنا، واختلاف وجهات نظرنا، لا يعني أن نرمي ببعضنا في الهاوية في أول فرصة، فهذا لا يصبّ في مصلحة أحد سوى أعدائنا.

– أنت محق، ولكننا لا نعمل في أحد صالونات التجميل في بيه أوغلو، ليثرثر كل على هواه.

– إذاً فهذا يعني منعنا من طرح آرائنا؟

– بالطبع تستطيعون طرح آرائكم، ولكن ليس بكاتبة بيان والتوقيع عليه سراً كما فعلتم.

– كل ما قمنا به كان بهدف دعم بنية قوى الأمن، وتطوير سير العمل.

ولكننا استبعدنا، بل وتمت تصفية زملائنا.

– لم يقم أحد بتصفية أي من زملائك، وإن كنت تعني يلدرم، فقد ترك الاستخبارات بإرادته التامة، رغم أنني رجوته ألا يفعل. وهذا ما أضعف شروط حمايته الشخصية، حيث استغل الإرهابيون الفرصة وقاموا بقتله.

– ولكن قوى الأمن لم تقم حتى بمحاولة المساهمة في كشف ملابسات القضية، رغم أنه كان أحد أكثر العناصر فاعليةً، وقد أدى مهمات ذات حساسية عالية بنجاح بالغ. ولكنكم استكثرتم عليه ردّ الجميل.

– أنت تظلمنا جميعاً، فأنا بنفسي من طالب بفتح التحقيق في أسرع وقت ممكن.

– وماذا كانت النتيجة؟

– أخبرونا أنّ القضية من اختصاص الشرطة السياسية.

– من؟ تعني الجيش؟

– ربما أخفقوا في كشف الحقيقة، ولكن الكل يخفق؛ قوى الأمن والشرطة المدنية، الكل.

– أجل كنا نخفق، ولكننا حينها كنا تحت إمرة رجال الجيش. أشخاصٌ لا يملكون شيئاً من الخبرة التي تملكها قوى الاستخبارات.

– لا تنسى أنّ من قام بتشكيل الاستخبارات هو هذا الجيش نفسه.

– وبرأيك ألم يحن الوقت لنتمدّن؟

– لقد حان. – يقولها وهو يبتسم هازئاً – بل يبدو أننا تمدّنا بالفعل، وما اجتماع الغد سوى إعلان لذلك.

– لا أظنّ حدوث تطورات مهمة، فمن الصعب أن تتغير العقليات الحاكمة.

– أي عقلية تعني؟

– أنت أدرى مني.

– لا بدّ أنك تعتقد نفسك شديد الذكاء؟

– بالطبع، لكن قوى الاستخبارات لم تكن راغبة في الاستفادة من هذا الذكاء.

– ولهذا لم تجد أمامك شيئاً، سوى أن تغرم بتلك الفتاة؟

أنظر إليه غاضباً، فيلوح المكر في عينيه الزرقاوين، منتظراً كلمة أخرى للانقضاض عليّ أكثر، لذا أفضل الالتزام بالصمت، وأتجه نحو كرسيي من جديد، لتمتد يدي من تلقاء نفسها نحو علبة السجائر الموضوعة على الطاولة. وقبل أن أسحب سيجارة، أتذكر أنني في مكتب عمي، فأعيد العلبة إلى مكانها.

– لا عليك – يعلّق عمي – تستطيع أن تدخن، أعطني واحدة أيضاً.

ويقترب لأخذ السيجارة.

– إنها سيجارتي الأولى لهذا اليوم. – يقول، فيما أضع سيجارة بين شفتي.

أشعل سيجارته، ومن ثم سيجارتي، حيث يسحب نفساً عميقاً، وينفثه بمتعة واضحة، وقد لاح شبح ابتسامة على وجهه.

– إنك تسئ الفهم. – يقولها في نبرة صادقة دون أي تحامل – لا تعتقد أنني أسألك بغرض إثارة حنقك، ولكني راغب حقاً في فهم وتصديق ما تقول. لما أحببت تلك الفتاة؟

أنظر إليه، فأرى عمي الذي كان في زمن ما يحدثني كصديق، وقد اختفت عن وجهه تلك الحدة واللامبالاة.

– لا أعرف – وأنا أبسط كفي عاجزاً – صدقني لا أعرف. فقد بدا لي الأمر مسلياً في البداية. شابة، تفيض حيوية، لا تشبه مليكة في شيء، كانت مختلفة مرحة، لديها عالمها المغاير تماماً، تعلقت بها. ما الذي يمكنني قوله أكثر؟ أجل لقد تعلقت بالفتاة.

ينظر إليّ مندهشاً، وكأنه لا يصدق كلمة مما أقول.

– صدقني – وأردف قائلاً – صدقني لا أعرف السبب، ولكنني أغرمت بها حقاً.

– كنت تنوي الزواج بها؟ – يسألني بنبرة قلقة، لا بدّ أنه يفكر في مصير مليكة والفتاتين.

– أظنني كنت سأفعل.

أتوقع أن يوبخني محتداً، ولكنه يظلّ صامتاً، يحدقّ في وجهي دون غضب أو استهزاء. وكأنه يشفق عليّ.

– لقد تلاعبتْ بك – ويكرر بعد برهة – لقد تلاعبت بك وأوقعت بك في ورطة خطرة.

– أنت مخطئ – أقول – لقد أحبتني.

– لا زلت تحبها – يقولها يائساً – كيف أمكنها التغرير بك، بهذه البساطة؟ ألا تدرك حتى الآن، لقد كان الأمر مجرد فخٍّ لا أكثر.

– أعتذر إن قلت لك ذلك، ولكنك مخطئ جداً.

يواصل النظر إليّ مستغرباً، وكأنه لا يصدق ما يسمعه، ومن ثم يتجه بنظراته بعيداً، ويتمتم وكأنه يحدث نفسه:

– لا بدّ أنها شديدة الذكاء، فقد استغلت ذلك الإرهابيّ فخري، وبعد أن أوقعتكما ببعض، اختفت من دون أن تخلّف أي أثر. لا بدّ أنّ متين أيضاً شريكها في هذه الخطة. إنها خبيرة بالفعل.

– لا تبالغ يا عمي، فهو ليس سوى رجل بائس، أفجعه اختفاء ابنته الوحيدة.

يرفع رأسه وينظر إليّ ذاهلاً وكأنني أيقظته من حلم ما.

– ذلك البائس الذي تشفق عليه، بدأ بالبحث عنها في إيطاليا من دون أن يخبرك بالأمر. فقد ذهب للقاء والدها في السفارة منذ يومين، طالباً السماح له بالتحدث إلى ابنته.

– أتعني سيلين؟

– اسمها سيلين؟ حسناً، هذا ما قام به.

– وهل قابلها؟

– لا، فقد خاف والدها من توريط ابنته حين سمع بالقصة. ولهذا السبب منعها من المجيء إلى تركيا، ومن لقاء والد مينة، والذي لم يفقد الأمل، حيث نزل في أحد فنادق روما، ويقوم بطرق باب الرجل كل يوم، مكرراً رغبته.

– رغم أنني أخبرته بعدم السفر إلى إيطاليا.

– ولما سينصاع لما تقوله، ولديه خطط أخرى؟

– وربما ليس سوى رجل عاجز لا يعرف ما عليه فعله.

– بل العكس، أظنه يدرك تماماً ما يقوم به، فهو يتبع مخططاً مرسوماً بدقة.

– إنها مجرد احتمالات، ولن تتضح حقيقتها ما لم أتحدث مع جمعة.

– وحتى إن فعلت، فلن تحصل سوى على جانب واحد من الحقيقة، فهو لا يعرف أكثر من ذلك.

– سنتأكد مما تقول حين أقابله.

يسحب نفساً عميقاً من السيجارة، ويهزّ رأسه موافقاً:

– أنت محق في هذه النقطة.

– أودّ البدء، دون إضاعة مزيد من الوقت.

يتجه عمي نحو كرسيه خلف الطاولة، وقد تخلص من مخاوفه، فيما ترمش عيناه بتثاقل، كعادته حين يفكر في أمر مهم. ويحمل قلم الحبر الذي رماه قبل قليل على طاولة مجدداً. وبعد برهة يقول:

– سنحضر جمعة إلى إسطنبول، من أجل التحقيق معه.

فأخمنّ عودة الشكوك إليه، ولكنني لا أرغب له في العبث بفرصتي الوحيدة لمعرفة الحقيقة.

– ألن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً؟ – أسأله.

– لا تخشى شيئاً، فالشباب الذي يعملون في سجن جاناق قلعة بارعون، وستجد الرجل بين يديك غداً.

– حسناً – أوافق – ولكنني سأحقق معه لوحدي.

يفكر لبرهة قصيرة جداً، قبل أن يقول:

– حسناً، سأطلب من الشباب تولي أمره، لكي لا يسبب لك المتاعب أثناء التحقيق.

– اتفقنا إذاً – أقولها وأنا أنهض.

– تستطيع استخدام أحد مواقع التحقيق في منطقة تشاتالجا، فالمكان هناك هادئ ومنعزل.

– هل ستأخذون جمعة إلى هناك؟

– أجل، سيبلغك الفريق ما إن يتمّ الأمر.

– جيد. – أتجه نحو الباب بضع خطوات قبل أن ألتفت نحوه – أريدك أن تثق في أمر واحد، سأعمل على حلّ الأمر دون أن أسبب لك المتاعب.

– أرجو ألاّ تكون قد تأخرت. – وأدرك أنه لم يسامحني بعد.

وفيما أجتاز الممر، أفكر في اجتماع الغد، أيعقل أن يكون عمي محقاً في مخاوفه؟ ولكنه احتمال غير منطقي، فلا بوادر تشير إلى تغيرات من هذا النوع. كما أنّ الطاقم الإداري سيبقى على رأس العمل أغلب الظن. ولكن لا يمكن الجزم بشيء في هذه البلاد التي تسبب أدنى التغيرات التي قد لا تحرك ريشة في أجواء البلاد الأخرى، زلزالاً مدمراً لدينا.

أنزل إلى الطابق السفلي، لأجد مصطفى وأورهان غارقين في نقاش عميق، حول فريقي فنار بهتشي، وغلاتا سراي لكرة القدم، والمباراة التي ستقوم بينهما الأسبوع القادم. أعلم أنّ مصطفى من مشجعي فنار بهتشي المتحمسين، ولكنني لم أكن أعلم باهتمام أورهان أيضاً بالكرة.

– ها هو فناري آخر. – يهتف أورهان حين يراني، ويبدو التملق جلياً في تصرفاته، فأخمن على الفور سبب زيارته لنا، والتي لا علاقة لها بكرة القدم، بل الحصول على المعلومات. وأرجو ألا يكون مصطفى قد وقع في الفخ.

– مرحباً. – ألقي التحية في برود.

يلملم مصطفى نفسه ويعتدل في جلسته على خلاف أورهان الذي يفرد كفه في وجهي وهو يقول:

– سنهزمكم بخمسة أهداف رائعة.

– متأكد أنكم ستفعلون. – أعلّق دون اهتمام بما يقول.

– ولكنك من أهم الفناريين. – يقول أورهان.

– ولِمَ كل هذا الغلّ يا رجل، هل أخطئنا بحقك؟ – يسأله مصطفى في سذاجة.

– لقد جئت لزيارتكم في مكتبكم، ولكن أحداً لم يكلف نفسه تقديم كأس من الشاي لي.

ولأن مصطفى شاب يحترم زملائه الأكبر سناً، ولا يريد لأحد أن يستاء منه، ينهض متجهاً لإحضار الشاي وهو يقول:

– أستميحك عذراً، فقد استغرقنا الحديث، سأحضر لكم الشاي بنفسي.

وما إن يخرج، حتى يقترب أورهان من طاولتي، وقد ارتسم على وجهه ذات القلق الذي كان يُغرق بظلاله وجه عمي منذ قليل. الفرق الوحيد، أنّ عمي تقبّل خوفه وبدا مستعداً لما سيتمخض عنه اجتماع الغد، على خلاف أورهان الذي جحظت عيناه خوفاً، وهو يتلفت حوله كفريسة لا تدري من أن سيأتيها الصياد.

– يبدو أن أمرنا انتهى هذه المرة. – يقولها بشفتين مرتعشتين – تستطيع أن توضب أشياءك من الآن، فقد طويت صفحتنا.

– ما الذي تعنيه؟ ولما طويت صفحتنا؟

– المستشار طلب رؤساء الأقسام لاجتماع خاص صباح الغد.

– وما المشكلة إن فعل؟

– ألم تفهم بعد يا رجل؟ إنه يحاول السيطرة على العلاقات الداخلية والروابط النفسية بين رجال الاستخبارات، من أجل إعادة تنظيمها.

– وما الخطأ في ذلك؟

– كفّ عن الاستهانة بما يحصل؟ إنه يجري عملية تصفية، وهي ستطالنا دوناً عن الجميع بكل تأكيد. – يحرك رأسه يميناً وشمالاً، وكأنه يبحث عن حل ما، ويرفع رأسه محدقاً إليّ على حين غرّة ويردف – ربما. ربما يتوجب علينا التحدث إلى عمك.

– مع عمي؟ لما؟

– لنخبره أنّ البيان الذي وقعنا عليه، كان بتحريض من يلدرم.

– كيف تقول شيئاً كهذا؟ – أسأله مصدوماً من الدناءة التي يظهرها.

– أعلم أنه تصرف غير مقبول، ولكن علينا أولاً التفكير في طريقة للنجاة بأنفسنا. ولو كان يلدرم بيننا الآن، لتصرف على هذا النحو بكل تأكيد.

– مستحيل. – أقولها غاضباً.

– لما تحاول تعقيد الأمر؟ فليدرم قد مات وانتهى أمره. ولن يستطيع أحد

إلحاق الأذى به، أما نحن فوضعنا مختلف، وعلينا البحث عن سبل تنجينا من الكارثة، وقد يكون اجتماع الغد.

– لقد جننت يا رجل. – أقولها مقاطعاً كلامه بحزم – خذ إجازة أو اعرض نفسك على طبيب نفسي.

– لا تقلق، فغداً سنُحال كلنا إلى إجازات إجبارية طويلة الأمد.

– فليفعلوا، لكي تنجوا من هذه الوساوس.

يرمقني لوهلة بنظرات غريبة، ومن ثم يتسم بمكر من استطاع معرفة نقطة ضعفي.

– تعني أنك مستعد لترك الاستخبارات بين أيديهم؟ تركها لقَتَلة يلدرم؟

– عليك اللعنة أيها الوغد. – أصرخ.

– ما هذا الكلام؟ انتبه لما تقوله سِدات.

– بل عليك أنت الانتباه لما تقوله. أنظر إلى نفسك، تكاد تغرق في قذارات مخاوفك العفنة.

– أنا لست أخاف على نفسي فقط، بل خائف عليك أنت أيضاً.

– توقف عن هذه الألاعيب الوسخة. إن لم تستطع الانتظار حتى الغد دون أن تمرّغ نفسك، فاذهب وتحدث مع من تشاء، ولكن إياك أن تورطني معك في الأمر.

– على رسلك يا رجل، لما تثور بسرعة؟

– لست ثائراً. ولكن عن إذنك فعلي إنهاء بعض الأعمال.

– سيأتي الشاي... – يقولها ضاحكاً بصفاقة بعد كل شتائمي وتقريعي.

– خذ الكأس معك إلى مكتبك.

– إذاً فأنت أيضاً ستتخلى عنا.

يوسوس لي شيطاني، بركله في منتصف سحنته القذرة.

– هذا من شيم الجبناء أمثالك، فأنا لا أبيع أصدقائي حتى لو كانوا في عداد الموتى.

– إذاً فأنت حانق عليّ؟ – يسألني من دون أي إحساس بالذنب.

– هيا يا أورهان هيا، لقد اكتفيت منك اليوم. – أقول.

وفيما يهمّ بالنهوض، يدخل مصطفى ومعه الشاي.

– ستذهب؟ – يسأل مستغرباً.

– إنهم في انتظاري. – يجيبه أورهان.

– اشرب شايك أولاً. – يعرض عليه مصطفى.

– شكراً لك، فليشرب سِدات كأسي. – وقبل أن يخرج من الباب، يلتفت نحوي – سيبقى ما تحدثنا فيه سراً بيننا، أليس كذلك؟

– حسناً. – أجيبه في ضيق، وأنا أكمل – لن أخبر مصطفى أنك حاولت شراء الفريق الآخر بأي ثمن.

يصنع الجدية وهو يقول:

– إياك أن تخبره. – ويغادر ضاحكاً.

لم أكن أعرف أنه جبان إلى هذا الحد، يبدو أنني اخترت نِعم الأصدقاء لنفسي.

– أحقاً يحاولون رشوة أحد؟ – يسألني مصطفى مستغرباً وهو يضع الكاسات على الطاولة.

– دعك منه، ولنعد إلى العمل، أود منك الحصول على قائمة بكل المشافي والعيادات التي تقوم بعمليات الإجهاض، والسؤال فيها واحداً واحداً عن مينة. فقد اتضح أنها كانت حاملاً، وتريد إجهاض الجنين، ومن المحتمل أنها تعرضت لسوء ما أثناء العملية.

فألمح في عينيه بريقاً ماكراً، يظهر للحظة، ويخبو على الفور.

الفصل التاسع عشر

أستيقظ على صوت جرس ما يأتي من مكان بعيد. وكأنني أعود للوقوف أمام ذلك القصر المهجور المنعزل الخرِب، فيخيل لي أنّ الصوت يأتي مجدداً من علبة الهاتف الواقعة خلفه. وأفكر بضرورة الإسراع للرد عليه، ولكنني أعجز عن تحريك جسدي. ومع ازدياد الضيق الذي أغرق فيه، يقترب صوت الجرس أكثر فأكثر. أفتح عيني لأرى مليكة واقفة فوق رأسي وهي ترمقني، ورغم الظلام لكنني أستطيع ملاحظة الفضول في عينيها. ولا أعرف على وجه التحديد إن كانت تحاول أن تطمئن عليّ، أم تحاول العثور على إجابة للسؤال الذي تخشى طرحه عليّ، من خلال ما قد أتفوه به نائماً.

– الهاتف يرن، لما لم تقومي بإيقاظي؟ – أسألها.

– كنت مستغرقاً في النوم. – تجيبني في حنان – ولم أشأ إيقاظك، لا عليك من الهاتف، تستطيع الاتصال بهم في الغد.

– لا أستطيع. – وأنهض عن السرير في قفزة واحدة – فأنا في انتظار مكالمة مهمة.

برودة الغرفة تشعرني بالقشعريرة، ولكنني رغم ذلك أتجه نحو الهاتف.

لا بدّ أنه شخص واثق من وجودي في المنزل، حتى يواصل الاتصال بي في إلحاح متكرر. فأرفع السماعة في الجرس الرابع:

– ألو!

– هل أتحدث مع السيد سِدات؟ – يسألني صوت لم أتعرف عليه.

– أجل، تفضل.

– أنا توفيق من سجن جاناق قلعة، أخبرني السيد عصمت.

– السيد عصمت؟ حسناً، حسناً لقد فهمت.

– أعتذر عن إيقاظك، ولكن السيد عصمت أخبرني بأهمية الموضوع.

– هو كذلك حقاً، هل تمكنتم من العثور على جمعة؟

– أجل، وهو برفقتنا الآن.

– وأين أنتم؟

– نحن في تشاتالجا.

– أي أنكم وصلتم؟

– منذ حوالى الساعة.

– أهنئكم، لقد نفذتم الأمر في سرعة كبيرة. أنا قادم على الفور.

أضع السماعة، فيما تقترب مني مليكة وهي تغطي ظهري بلفاح.

– هل ستذهب؟

– أجل، فقد عثرنا على الرجل الذي أطلق النار عليّ. – أوضح لها وأنا أتجه نحو خزانة ملابسي.

– ما رأيك في تناول شيء خفيف قبل الذهاب؟ – تسألني وهي تلحق بي.

– لا وقت لديّ، على الذهاب فوراً.

– على الأقل دعني أسخن لك كأساً من الحليب؟

– شكراً، ولكن لا رغبة لي في شيء.

لا يستغرق غسل وجهي وتغيير ملابسي أكثر من خمس دقائق، وفيما أخرج من الباب، تقول مليكة:

– كن حذراً، ولا تسرع في القيادة لكي تختصر الوقت.

– لا تقلقي، هيا عودي إلى النوم.

– مع السلامة. – تقول فيما أخرج، وتظلّ منتظرة على الباب تراقبني، حتى أستقل المصعد.

مركز الاستجواب في تشاتالجا هو أشبه بمنزل ريفي تحيط به مزرعة، وقبل بلوغ تشاتالجا بحوالي عشرة كيلومترات، أنحرف إلى طريق ترابي. لقد أتيت مرتين من قبل إلى هذا المكان، مرة للتحقيق مع أحد الجواسيس البلغار، والأخرى لكي نخبأ فيه أحد العملاء السوريين الذين يعملون لحسابنا.

يكاد الصبح أن ينبلج، وقد تمّ اختيار هذا المكان عمداً، فهذه البقعة قاحلة أكثر من بقية الأماكن التي تحيط بها، وبعيدة عن الأنظار. ولا أحد سوى بعض الصيادين يمرّ بالمكان. وبعد ربع ساعة من السير فوق الطريق الذي غطته طبقة من الصقيع أصل المزرعة.

ورغم أنني زرته من قبل، لكن الجدران السميكة التي تحيطه من جهاته الأربعة، والذي تغرقه في ظلال موحشة، لا تجعله يبدو مألوفاً، بل يوقظ فيّ إحساساً باغتراب لا أدري كنهنه. يستقبلني الموظف المسؤول عن أمن المكان، حين يرى سيارتي تتجه نحوه. ورغم أنّ الأضواء تفقد تأثيرها تحت ضوء الشمس التي بدأت تشرق للتو، لكنها كافية لتنير وجه الموظف وتظهر ملامحه، التي لا أعرفها قبلاً،

مكتبة

ولظني أنه لا يعرف من أكون بدوره، أنزل زجاج السيارة، وأمدّ له بطاقتي الأمنية، فيقترب مني موضحاً:

– لا داعي للبطاقة سيد سِدات.

– هل تقابلنا قبلاً؟ – أسأله.

– عدة مرات، اسمي خيري، وقد عملت مع المرحوم يلدرم عدة مرات.

– خيري الفتاك. – تخرج الكلمات مني دون أن أنتبه.

– أجل، هو بذاته. – ويضيف في نبرة ساخرة – أمهر قناص في الاستخبارات، حتى يلدرم ما كان له أن ينافسني.

أنظر إليه بإمعان، فيبدو لي أشدّ نحولاً من صورته التي تتراءى في مخيلتي، وبحسب ما أذكر فقد سمعت ذات مرة عن إصابته بمرض عضال، وكأنه يخمّن ما أفكر فيه، حتى يقول:

– لقد هرمنا، وأتى الزمن على تلك الأيام، كان ذلك قبل التحاقك بالعمل، حيث خضنا أنا ويلدرم مغامرات لا تنسى.

– لقد سمعت عنها. – وأنظر إليه بإعجاب.

– لقد مرّ وقت طويل. – ويضيف وهو يشير بيده نحو المبنى – إنه آخر موقف بالنسبة إليّ. حسناً، سأفتح لك البوابة، فهم بانتظارك.

يتجه نحو البوابة بعرج خفيف، ويبدو وكأنه بالكاد يستطيع جرّ جسده المنهك. فقد أصيب بطلق ناري أثناء أحد الاشتباكات في ملاحقتهم للإرهابيين الأرمن، وقد توقف عن العمل الميداني منذ ذلك الوقت.

يدفع الباب الحديدي الثقيل، الذي ينساب بسلاسة على القضبان

مكتبة

الحديدية، فأدخل الحديقة، وأركن سيارتي بالقرب من سيارة جيب قاتمة اللون، تحمل لوحتها أرقام مدينة جاناق قلعة. وفيما أفتح الباب، يتجه إليّ خيري مسرعاً، وهو يشير نحو السيارة الأخرى موضحاً:

– لا أعرف من يكون هؤلاء، يبدو أنهم من خارج إسطنبول.

ورغم معرفته وجوب عدم طرح هذا النوع من الأسئلة، لكنني لا أستاء منه.

– لا، ليسوا كذلك. – أكتفي بهذا التوضيح – أراك لاحقاً. – وأتجه نحو المنزل.

يجلس أحدهم في مدخل البهو الفسيح المعتم وهو يراقب الحديقة. أتعرف عليه حين أقترب منه، إنه طاهر؛ أكثر الرجال الذين يحظون بثقة عمي.

– مرحباً. – ألقي التحية.

– صباح الخير سيد سِدات. – يردّ عليّ في احترام بالغ، ويشير بيده نحو الدرج المؤدي للقبو موضحاً – إنهم بانتظارك في الطابق السفلي.

– حسناً، شكراً لك.

لولا الاجتماع المزمع عقده اليوم صباحاً، لحضر عمي التحقيق بنفسه، ولكن تحضيراته والتي لا بدّ أنها جعلته يبقى مستيقظاً حتى وقت متأخر قد أنهكته، إلا أنه ورغبة في إثبات وجوده في كل مكان، أرسل واحداً من ثقاة رجاله، وبعد هبوط الدرج واجتياز ممر صغير، أدخل غرفة جيدة الإضاءة. حيث يجلس فيها ثلاثة رجال يتبادلون الحديث الذي يقطعونه حال دخولي، وهم ينهضون.

يقترب مني أحدهم، وهو أصلع ضخم الجثة، ويمدّ يده مصافحاً:

– أنا توفيق، لقد تحدثنا على الهاتف.

– مرحباً، كيف الحال؟ – أقول.

– شكراً لك، في الحقيقة نشعر ببعض التعب، لأننا واصلنا القيادة طوال الليل. – فتتجه نظراتي نحو رفيقيه، فلا يبدو لي مألوفاً بقامته القصيرة وجسده المربوع حيث يمدّ يده مصافحاً وهو يقول:

– مرحباً، أنا سعدي.

أما الآخر فأنا أعرفه جيداً، إنه حكمت شخص آخر من رجال عمي المعتمدين، وحين يراني أنظر إليه يبتسم موضحاً:

– أرسلني السيد عصمت إلى هنا، لأساعدك في التحقيق.

– لا أظن أن الرجل سيسبب لنا المتاعب حتى يعترف. – يقول توفيق وهو يشير إلى النافذة التي تفصل الغرفتين – لقد اختمر داخل جحره.

أدخل الغرفة لأجد ما يشبه خزّاناً من الحديد، على شكل مربع لا تتجاوز مساحته متراً مربعاً، مركوناً في أحد الزوايا.

– هل وضعتم الرجل داخل هذا الشيء طوال الطريق من جاناق قلعة إلى هنا؟ – أسأل مستغرباً.

– ليس من جاناق قلعة، بل من غوكجى أدا. فقد أخبرونا أنه رجل صعب المراس، لذا يجب اتباع أساليب غير مألوفة معه.

– ربما مات اختناقاً. – أقول في اضطراب.

– لا تخشى شيئاً سيدي، فلن يصيبه أي مكروه، كما أنها ليست المرة الأولى التي نستخدم فيها هذا الصندوق. – يوضح لي توفيق.

– هل تحدثتم إليه؟

– بالطبع لا، فكلما طال الغموض، فقد قدرته على المقاومة أكثر.

– حسناً لقد فهمت، ولكن أرجوكم أن تخرجوه من هناك على الفور.

ورغم أنّ توفيق يرمقني باحتقار واضح، ولكنه ينفذ الأمر على الفور، وهو يصطحب معه سعدي، متجهين نحو الصندوق الحديدي. فأراقبهم من النافذة حيث ينحني توفيق على الصندوق ويخرج مفتاحا من جيبيه، ويضعه في القفل، ويرفع الباب متمهلاً، فيُخرج رجل غُطيت عيناه بقماش أسود، رأسه من الداخل. حين أراه للوهلة الأولى، لا ألحظ الشبه بينه وبين البائع الجوال الذي أبحث عنه. فصحيح أنّه أصلع الرأس، ولكنه ملتحٍ، وقد غطى القماش معظم وجهه. ولأنني لم أحظ بفرصة رؤية وجهه سوى للحظةٍ عابرة أثناء الاعتداء، فمن الصعب التحقق من هويته. ألصق وجهي بالنافذة، وأنا أراقب كل حركة من حركاته. وما أن يفارقه التوتر قليلاً حتى يبدأ بمحاولة الخروج من الصندوق، ولكنه لا ينجح. فيخرجه توفيق وسعدي من الصندوق، وأدرك أنّ يديه المكبلتين خلفاً، منعتاه من الخروج، يخبره توفيق بشيء، فينكمش على نفسه خوفاً من تلقي ضربة. في تلك اللحظة، وحين يحني رأسه، أشعر أنّ فيه شيئاً مألوفا. فحين قام بإطلاق النار أحنى رأسه بذات الطريقة في محاولة حماية نفسه من مرمى طلقاتي العشوائية. ومع ذلك لا أستطيع التحقق إلا بعد رؤية عينيه.

يحاول توفيق وزميله أن يجبراه على الوقوف، ولكنه بسبب تخدر قدميه، وتضعضع جسده طوال الطريق، يعجز عن الوقوف ويسقط أرضاً، يجبره توفيق على النهوض مجدداً، ولكنه يفشل، فأراه ينطق بشيء ما، أخمنّ أنها شتائم رغم عدم وصول الصوت إليّ. فأشير إلى زر مكبر الصوت قرب النافذة، وأنا أقول لحكمت:

– شغّل المكبر. – فينفذ الأمر على الفور ليضج المكان بصراخ توفيق.

– كفّ عن هذه الحركات أيها القوّاد القذر، انهض. هيا.

لا ينهض الرجل كما يأمره، بل يردّ عليه بصوت مشحون بالغل:

– توقف عن شتمي.

يسند توفيق يديه القويتين إلى خصره وهو يهز رأسه ويطلب من سعدي:

– ساعده على النهوض.

فيقف سعدي خلف الرجل، ويمسك بذراعيه وهو يرفعه، إذ سيسقط أرضاً إن تركه، حيث تقترب منه توفيق:

– ما الذي قلته للتو؟

– قلت لك أن تتوقف عن شتمي. – يقولها في صوت تعب ولكن بنبرة حازمة – توقف عن شتمي.

– حسناً. – يقول توفيق بهدوء وهو يتراجع خطوة إلى الخلف، ومن ثم يصفعه على وجهه صفعة يهتزّ لها كل جسده المنهك، ويرتد رأسه خلفاً حيث يكاد يصطدم بوجه سعدي الذي يتراجع في اللحظة المناسبة، ليسقط المسكين أرضاً. يرمق سعدي زميله بحنق، ولكن الأخير لا يبالي، بل يقترب من رأس جمعة الذي يكورّ جسده خوفاً.

– هل هذا أفضل من الشتائم؟ – يسأله.

يحاول الرجل النهوض على ركبتيه، دون أن يرى الخط الأحمر الذي بدأ ينزل من أنفه ليصبغ شاربه الكث متجهاً نحو فمه.

– أجل إنها أفضل. – يقول وهو بالكاد يستطيع التقاط أنفاسه.

فيقهقه توفيق بحنق:

– يا لك من رجل غيور على شرفه. – ويبدو مصراً على تحطيم وجه الرجل، ولكن ذلك لن يفيدني في شيء، فأنا أحتاجه أن يبقى سليم الوجه لأتعرف عليه، وأستطيع الوصول إلى الحقيقة، لذا أتجه نحو مكبر الصوت، وأنا أقول:

– أخرجا من الغرفة على الفور. – أقولها بنبرة حاسمة.

ورغم أن أوامري لا تعطي توفيق فرصة النيل من الرجل أكثر، لكنه ينفذّ طائعاً. فيستوي الرجل على ركبته، وقد بدأ خيط الدماء المنساب من أنفه يرسم بقعة حمراء صغيرة بالقرب من جسده.

وما أن يخرجا، آخذ قطعة من القطن وعلبة الكولونيا من صيدلية الحائط الصغيرة، فيقترب مني توفيق موضحاً:

– لا أظنه قد بات مستعداً للتحقيق، علينا أن نحاول معه أكثر، وإلا لن نحصل على شيء.

– حسناً يا توفيق، فقد تكلفتم الكثير من المشقة بإحضاره إلى هنا. عليكم أخذ قسط من الراحة. غرف النوم فوق، سيرافقكم حكمت إلى هناك. ناموا لبعض الوقت قبل رحلة العودة. – ومن ثم ألتفت نحو حكمت – تستطيع النوم قليلاً أنت أيضاً، وإن شئت تناوب أنت وطاهر على الحراسة.

– هل ستحقق معه بمفردك؟ – يسألني توفيق مستغرباً.

– لا تشغل بالك بهذا الأمر. – أقولها في ثقة – اذهب وخذ قسطاً من النوم، تبدوان متعبين كثيراً.

– كما تشاء، ولكنه وغد كبير، فقد قام بذبح والده وزوجته دون أن يرفّ له جفن.

– شكراً لتنبيهك، سأكون حذراً معه.

والغريب أنّ حكمت لا يصرّ على البقاء معي، يبدو أنّ عمي طلب منه عدم إزعاجي، إذ يكتفي بالقول:

– إن احتجتني في شيء، سأكون مع طاهر في الخارج.

– حسناً، أتمنى لكم نوماً هانئاً. – أقول، وفيما يذهبان، أغلق الباب حتى لا يتسنى لهم الاستماع إلى التحقيق. لا بدّ أن مفتاح الغرفة مع خيري الفتاّك، ولا أظنه قد سلّمه أي مفاتيح لهذين الاثنين. أدخل الغرفة حاملاً قطعة القطن المبللة بالكولونيا، فيعدّل الرجل من جلسته حين يسمع صوت الباب، ولكنه ينكمش على نفسه، عندما يتناهى إليه صوت خطواتي التي تقترب.

– لا تخف. – أقول – لن أضربك.

يستمع إليّ في حذر دون أن يزايله القلق. وحين أقرب قطعة القطن من أنفه لمسح الدماء، يعتريه الذعر، وهو يحاول الابتعاد عني.

– لا تخف. – أكرر له – سأمسح وجهك فقط – وحين يشعر بنعومة القطن فوق شفتيه، يهدأ قليلاً، فأحشر قطعتين من القطن في فتحتي أنفه. ومن ثم أساعده على النهوض، وأتجه به نحو الطاولة التي في زاوية الغرفة، لكنه يكابد مشقة في السير بسبب خدر قدميه. أجلسه على الكرسي، وبعد مسح الدماء العالقة على يدي، بقطعة القطن، أجر أحد الكراسي، لأجلس قبالته. تتحرك عينيه بقلق تحت القماشة السوداء، ويبدو وكأنه خمن سبب إحضاره إلى هذا المكان. فأراقب وجهه بإمعان. ورغم العصبة السوداء، لكنني أتمكن من التعرف عليه، أجل، بتّ متأكداً من إنه الرجل الذي قام بإطلاق النار عليّ.

– أتودّ التدخين يا جمعة؟ – أسأله.

– أجل. – فأخرج سيجارة من علبتي، وأضعها بين شفتيه، وأشعلها له، ولكن خوفه لا يسمح له بملاحظة اشتعال سيجارته – اسحب الدخان – فيسحب نفساً عميقاً. لا بدّ أنها أكثر اللحظات رفاهية، خلال رحلته التي استمرت ثماني ساعات. يسحب نفساً آخر، فآخذ السيجارة من بين شفتيه، لأركنها على المنفضة الموضوعة على زاوية الطاولة الخشبية.

– لقد أرهقت القيود يدي. – يقول لي.

– أعذرني، لا أستطيع فكّ قيودك. – أقولها بصوت حاسم – ولكنني سأعمل على انتهاء التحقيق بأسرع وقت ممكن. في حال ساعدتني على ذلك.

– سأفعل، لما لا.

– أتعلم سبب إحضارك إلى هنا؟

– لا أعرف. – يقول بحدة ليغطي على خوفه.

– بسبب فخري. – أوضح له – لكنه يظل صامتاً، فأردف – لا بدّ أنك تعرفه أليس كذلك؟

– أعرفه. – يجيبني.

– لقد حاولتما قتل أحد زملائنا.

– ولكنني مسجون. – يقولها وكأنّ حضر نفسه لهذا الجواب مسبقاً.

– حقاً؟

لا أدري إن كان قد خمّن السخرية في صوتي، ولكنه يبقى صامتاً لبرهة من الوقت. ومن ثم يحني رأسه وهو يوضح:

- أنا سجين، وقد قاموا بإحضاري من السجن إلى هنا.

- يبدو أنّ الألم الذي في يديك سيطول، ففيما أحاول تسهيل الأمور على كلينا، تواصل تصعيبها على نفسك. ورغم ذلك سأعمل على مساعدتك أكثر. - وأنهض لأقف خلفه، وأزيل العصبة عن عينيه. تتقلص عيناه من الضوء، فأعود للجلوس قبالته. وحين تزول الغشاوة عن عينيه، أدرك كم هو منهار من الداخل، رغم قناع القسوة الذي يحاول أن يخفي ورائه وجهه الريفي الملامح.

أبتسم في هدوء وأنا اسأله:

- لا بدّ أنك عرفت من أكون.

يشيح بنظراته نحو السيجارة التي في المنفضة، فأحملها وأضعها مجدداً بين شفتيه. ولكنه يكتفي بهزة من رأسه موضحاً عدم رغبته في المزيد. فأعيدها إلى مكانها وأنا أقول بذات الهدوء السابق:

- اسمعني يا جمعة، لا تسبب لنفسك المزيد من الألم دون طائل. فكلانا يعرف تماماً، أين تقابلنا للمرة الأولى.

- أنا لا أعرفك. - يقول.

- بل تعرفني. - أقولها وأنا أحدق إليه - تعرفني جيداً.

ولكنه لا يذعن لإصراري، فيما يتجلى الخوف أكثر من الألم، في عينيه التي بدأت بالتورم وازرّق الجلد من حولها، بسبب الضربة التي تلقاها قبل قليل.

- ولم يعد هناك مبرر لتخفي الحقيقة، فقد اعترف لنا فخري بكل شيء قبل موته. - أقولها وأنا أعاود الجلوس.

فتعلو الخيبة نظراته ووجه وهو يحدجني مستغربا:

– اعترف؟ – ولكنه يتمالك نفسه وهو يبتسم بمكر – كذب، فقد قتل فخري في الاشتباك.

– هذا ما أخبرنا به الجرائد حينها، فقد أصيب إصابة شديدة، ولكنه بقي حياً، حيث قمنا بالتحقيق معه، واعترف بكل شيء قبل موته.

يواصل التحديق إليّ بشدة، وكأن الحقيقة ستظهر مكتوبة على وجهي. لكن القلق الذي يعتريه لا يمكن إخفائه، بحيث أستطيع التكهن بكل ما يدور في ذهنه من أفكار.

– لا علاقة لي بما تقول، ولا أظن أنّ فخري قد أقدم على توريطي في أي شيء.

– إذاً كيف تمكنا من العثور عليك؟ لقد نفذتما خطة محكمة بالفعل، ولو لم يعترف لنا فخري، لكان من المحال العثور عليك.

– لا أصدق. – يقول – فلا يمكن لفخري أن يفعل ذلك بي.

– لقد كان مصاباً، ويائساً من شفائه. لذلك فقد أطلعنا على القصة بكل تفصيلها.

تعود الخيبة لترمي بظلالها على وجهه.

– أخبركم بكل شيء؟ – يسألني وهو يحدق إليّ.

– كل شيء.

– لا أصدق، لا أصدق. لا بدّ أنه فقد عقله.

يبدو وكأنه متأسف على استسلام فخري وضعفه، أكثر من وشايته المزعومة به.

– هذا ما حصل، فقد سببت الرصاصة التي أصابت رأسه، اختلال توازنه العقلي بعض الشيء.

فتختفي ملامح الخيبة من وجهه وهو يعلقّ:

– لولا ذلك لما رضي أن يتكلم. – يقولها في اعتزاز من تحققت استنتاجاته – لولا فقدان عقله لما أخبركم بشيء.

– ربما أنت محق، فلولا الرصاصة التي اخترقت رأسه لما وافق على الاعتراف، ولكن المهم الآن، أنه اعترف بكل ما لديه، وأصبحنا مطلعين على الحقيقة.

– إذاً لما قمتم بإحضاري إلى هنا؟ – يسألني في تحدٍّ يجعلني أشعر بالندم لأنني أحسنت معاملته.

– هل نسيت؟ لقد أطلقت عليّ النار. – أرد عليه بنبرة ساخرة مردفاً – كما أننا لم نعثر على الفتاة حتى الآن.

يعود القلق ليخيم على وجهه، ويتجعد جبينه وهو يفكر لبرهة.

– أنت تعرفها أليس كذلك؟ أعني مينة التي كانت برفقة فخري و...

– حسناً، لقد حدثني عنها فخري ولكن – ويحدجني بنظراته القلقة تحت حاجبيه المقطبين – أجل لقد حدثني عنها، ولكنه...

– لكنه ماذا؟

تزداد تجاعيد جبينه.

– تكلم لما أنت خائف؟ – أسأله بإصرار.

يسحب نفساً عميقاً قبل أن يوضح لي:

– في الحقيقة، لقد أخبرني فخري بأنك من قام بقتل الفتاة.

– أنا؟ – أقولها محتجاً دون أن أستطيع السيطرة على الغضب الذي يجتاحني فجأة.

ينظر إليّ في تحدٍ، وكأنه يقول لي: ها أنا أعترف بما لديّ كما طلبت مني. ولكن أهي خدعة، أمّ أنّ فخري قام بإقناعه بواسطة هذه الكذبة؟ يبدو صادقاً.

تصطبغ قطعتا القطن في أنفه بالأحمر القاني، حيث ستنساب الدماء على شاربه بعد لحظات إن بقي على هذا الحال.

– ولما سأقوم بقتل مينة؟

– لأنك كنت حاقداً عليها بعد أن تخلت عنك من أجل فخري. كما أنك حاولت أن تتهمه بالجريمة.

– لحظة لحظة، اهدأ قليلاً، وأحكي لي القصة منذ البداية.

فيتغضن وجهه في ضيق واضح، أظنه في البداية اعتراضاً، ولكنه يقول لي في حياء:

– ولكن عليّ الذهاب إلى الحمام أولاً.

– حسناً، انهض إذاً.

الفصل العشرون

أجلسه على كرسيه السابق، بعد عودته من الحمام، وأبدّل قطعتي القطن في أنفه، فالنزف لم ينقطع بصورة تامة. ورغم الورم الواضح المحيط بعينيه، لكنه يبدو أكثر ارتياحاً.

– هل هناك ماء؟ – يقول متلفتاً حوله.

أنهض لأحضر له كأساً من الماء، حيث يشرب بنهم واضح.

– لا بدّ أنك جائع أيضاً؟

– شكراً لك، لا رغبة لي في تناول شيء، كل ما أريده أن ينتهي الأمر، وتعودوا بي إلى السجن.

– حسناً، أخبرني بكل ما لديك إذاً.

– عليك أن تسألني لأعرف بما أجيبك.

– لما قمت بمساعدة فخري؟

– كان رجلاً شجاعاً، يندر أن تجد له مثيلاً في هذه الأيام.

– لقد كان والده قائدك أثناء خدمة العلم.

فيستغرب معرفتي للأمر.

– وهل أخبرك بذلك أيضاً؟

– ومن سيخبرني سواه؟ وقد أخبرني أنّ والده كان يكن لك محبة كبيرة.

– فليتغمده الله برحمته الواسعة. كان الضابط نظمي رجلاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

– وهل تعرفت إلى فخري عن طريقه؟

– تقريباً. فأنا أعرفه منذ كان طفلاً. فأثناء خدمتي تحت إمرة والده، كان في حوالي الثامنة أو العاشرة من العمر. وفي بعض الأحيان كنت أمسك بلجام حصانه ونتجول سوية في ساحة المعسكر. ولكننا وفيما بعد تشاركنا السجن ذاته، وسرنا في ذات الممرات وذات الباحة دون أن يعرف أحدنا الآخر، حتى رأيت السيد نظمي مصادفة في أحد أيام الزيارات، وهو جالس مع فخري.

– أكنتم تشاركون السجناء السياسيين المهاجع ذاتها؟

– هذا ما كان الوضع عليه سجن جاناق قلعة. كنا مختلطين. وفي أثناء الزيارات كنا نجتمع كلنا في الردهة ذاتها. وفي إحدى تلك الزيارات التقيت بالسيد نظمي، أظنه كان عيد الفطر على ما أذكر. حين شاهدته واقفاً بالباب، كان عجوزا أنهكته السنين بمتاعبه، ولكن عينيه كانتا ذات عيني النسر القويتين الجسورتين، فيما يجول بنظراته على المكان، توجهت على الفور نحوه، وانكببت على يده أقبلها. نظر إليّ لوهلة وكأنه يحاول تذكري فبادرت بالقول:

– هذا أنا سيدي، أنا جمعة.

فانفرجت أساريره على الفور وهو يقول:

– جمعة آكجابللي! – لم يكن يضحك بسهولة في الأيام الخوالي، ولكن تقدم العمر جعل قلبه أكثر رهافة من ذي قبل.

– ما الذي تفعله هنا يا بني؟ – سألني.

– القصة التي تعرفها يا سيدي. – أجبته، فتراجع خطوة وهو يرمقني، وكانت تلك عادته حين يحاول تذكر أمر ما. فتغضن وجهه وهو يسألني:

– هل قتلت والدك؟

– قتلته، كما قتلت زوجتي أيضاً.

– مسكينة، لقد كانت هي الضحية.

– لا، فالأمر ليس كما تعتقد. – أوضحت له.

– أحقاً قمت بقتلهما؟ – أسأل جمعة غير مصدق.

– وهل سيحكم عليّ بالسجن المؤبد لو لم أقم بذلك؟

– ولكن لما فعلت ذلك.

– مسألة شرف. – يجيبني باقتضاب.

أخرج سيجارة أخرى من العلبة وأضعها بين شفتيه، فلا يعترض. يسحب نفسين متلاحقين منها، فآخذ السيجارة ممسكاً بها بين يدي وأنا أسأله:

– هل قام والدك بالتحرش بها؟

– هلا أعطيتني السيجارة من جديد؟ – فأعيد السيجارة إلى فمه، لينفث سحابة دخان كثيفة.

– سألني السيد نظمي أيضاً هذا السؤال حينها. – يوضح وهو يكابد مشقة في التحدث مع السيجارة التي في فمه، فآخذها ليعاود مواصلة حديثه – كنت قد التحقت بالجيش منذ مدة قصيرة، وأنهيت دورة الأغرار قبل أربعة أشهر،

ولا يزال أمامي سنة كاملة. توجهت إلى مكتب القائد نظمي، وأنا أحمل رسالة خالي التي وصلت للتو، واخترقت قلبي كسهم مسموم. مسائل الشرف حساسة، ولا يمكن البوح بها لأيٍ كان. ولكنني ذهبت لمقابلته، وأخبرته بكل ما حدث.

– يا له من قذر.. يا له من وغد قذر.. استغلّ فرصة غيابك من أجل خدمة وطنك، وبدأ يتحرش بزوجتك! – أخذ يردد في حنق.

– أريد منك إجازة لأذهب وأنهي المسألة سيدي. – قلت له، فظلّ صامتاً، ولكنه فتح الخزانة الحديدية التي خلفه، وأخرج مسدساً وضعه أمامي على الطاولة. ووضع إلى جانبه بعض النقود.

– خذها معك وتستطيع التغيب قدر ما يتطلب منك الأمر. واحرص على ألا يراك أحد ما من معارفك، وفي حال البحث عنك، سأخبر الشرطة أنك كنت في قطعتك العسكرية ولم تتغيب قط.

– شكراً لك سيدي. – وهممت بتقبيل يده، لكنه منعني.

استقللت الحافلة في ذات اليوم، ووصلت مساء إلى البلدة التي لا تبعد قريتنا عنها كثيراً، فهي تستغرق أقل من ساعة سيراً على الأقدام. وقد التزمت بتعليمات السيد نظمي، حيث بلغت القرية بعد منتصف الليل. وكن أنوي قتل أبي بسرعة، والعودة إلى قطعتي العسكرية. ولكنني لم أوفق في ذلك، فقد شاهدني الراعي موسى فيما أسير نحو القرية، وهذا يعني أنّ القرية كلها ستعرف بالخبر صباح الغد، لأنه كان رجلاً ثرثاراً جداً. لكنني لم أبالِ، فأنا ذاهب لغسل العار الذي لحق بي، ولتعرف القرية برمتها ما أنا مقدم عليه. وواصلت السير دون أن أردّ على تحيته، وبعد أن نادى علي مرتين، توقف عن المحاولة وتابع السير.

حين وصلت القرية كان قد اقترب موعد آذان الفجر، والأزقة خالية، ورغم ذلك حاولت توخي الحذر حتى لا يراني أحد آخر وأنا أقترب من المنزل.

فتحت باب الحديقة الخشبي، فوجدت أحدهم بالقرب من صنبور الماء؛ كان أبي يتوضأ من أجل الصلاة. وقفت بالباب لبرهة وأنا أراقبه، كان ظله وهو منحنٍ على الصنبور يتطاول إلى حيث أقف. أنا لا أشبهه أبداً، فهو قصير القامة، هزيل الجسد، ذو سحنة دميمة. وكنت كلما أطلت النظر إلى جسده الذي يبدو أكثر ضآلة في الظلمة أزداد غضباً. أخرجت المسدس الذي كنت قد علقته على خصري، وهجمت عليه. فأصيب بذعر بالغ، وحاول الفرار لكنه سقط بالقرب من الساقية، وأنا فوقه. حاول الالتفات نحوي، فمنعته، لأنني لو رأيت وجهه ستزداد الأمور سوءً بالنسبة إليّ. لذا منعته من التحرك.

– أيها الوغد القذر. – قلت وأنا أغرز فوهة المسدس في رأسه – كيف لك أن تتحرش بكنتك، إنها بمثابة ابنتك أيها اللعين.

– جمعة. – تعرف علي من صوتي – أرجوك يا بني، لا تقتلني، فأنا بريء لم أفعل شيئاً.

حين بدأ بالتوسل، زادت ثقتي بنفسي، فرفعت رأسه وأدرته نحوي، حيث كان وجهه غارقاً في الوحل والخزي.

– تشهّد على روحك. – أمرته.

– أرجوك يا بني، صدقني أنا بريء.

وبدأ بالتوسل والبكاء، كانت المرة التي أراه يبكي فيها، حتى حين وفاة والدتي لم أشاهده يبكي. فانتابني شعور غريب جداً، وأدركت أنني لو واصلت النظر إليه أكثر، سأعجز عن قتله. لذا أدرت وجهه مجدداً نحو الأسفل. وحين رأى أن لا مهرب من الموت، بدأ ينطق بالشهادتين، وأنا أنتظره لينتهي فأقضي عليه. وفجأة أضيئت أنوار المنزل، إذ أنهم استيقظوا على ضجيجنا. خرج أخي الأكبر، ومن ثم شقيقي الآخر، وتبعتهما زوجتاهما، ولكن زوجتي لم تظهر. لا بدّ أنها حين رأتني

حاملاً المسدس ظنت بأنني سأقتلها أيضاً. حينها حمدت الله على وفاة والدتي، لأنها لم تشهد هذه اللحظات العصيبة. أياً يكن الأمر، فقد قام أخوتي بإبعاد والدي قبل أن أطلق عليه النار. ولكنني لم أعد قادراً على البقاء في ذلك المنزل، فأخذت معي زوجتي، وتوجهنا إلى منزل والديها، وأثناء الطريق ضربتها ضرباً مبرحاً حتى أصابني الإنهاك. سلمتها إلى أهلها، فظنت والدتها أنني أنوي تطليقها، وأخذت تتوسلني لكي أعدل عن الأمر، فأخبرتها ألا تخاف، لكنني أسلمهم ابنتهم حتى انتهائي من خدمة العلم، وأوضحت لهم بأنهم المسؤولون عن حماية شرفها حتى عودتي. وتوجهت عائداً إلى قطعتي العسكرية، وفي الصباح أعدت المسدس والنقود إلى السيد نظمي، وأخبرته بكل ما جرى؟ فربت على كتفي وهو يقول:

– حسناً ما فعلت، فليعاقبه الله على سوء أعماله.

– وماذا حصل؟ – أسأله بفضول بالغ.

– لقد أطفأت السيجارة. – يقول وهو يشير برأسه نحو المنفضة.

فأخرج له واحدة أخرى من العلبة، وبعد أن يسحب عدة أنفاس متلاحقة منه، يواصل سرد قصته:

– ومن ثم أنهيت خدمة العلم. وعدت إلى المنزل، ولكنني لم أعد قادراً على البقاء في القرية، فتوجهت نحو البلدة، وقد افتتح مصنع جديد هناك لحلج القطن، فحصلت فيه على عمل بوساطة خالي. وأحضرت زوجتي أيضاً، وبقينا على تلك الحال ما يقارب أربعة أعوام، أنجبت خلالها زوجتي فتاة، وكنت قد ترقيت في العمل. وفي أحد الأيام احترقت مولدة الكهرباء في البلدة، وانقطعت عنها الكهرباء. فأرسلنا في طلب ورشة تصليح من المدينة، لعدم توفرها في البلدة. ولم نعد قادرين على مواصلة العمل، فعرض عليّ رئيس العمال – الذي كان أحد أصدقاء خالي – أن أعود إلى البيت إن شئت. فابتهجت لعودتي الباكرة إلى المنزل، وتوجهت نحو

السوق، كان ذلك في بدايات شهر أيار، حيث موسم الكرز قد بدأ للتو، فاشتريت بعض الكرز لابنتي، وبعض الخضار والحاجيات، عائداً إلى منزلي. حين اقتربت وجدت ابنتي زهور جالسة على الرصيف وهي تبكي. فسألتها:

– لما تبكين يا بنتي؟

– أمي طردتني من البيت. – أجابت.

فاستغربت من تصرف زوجتي، وحملت طفلتي وتوجهنا لطرق الباب. لاح ظل أزاح الستائر قليلاً، ومن ثمّ سمعت أصواتاً من الداخل وحركة غير اعتيادية، وبعد برهة فُتح الباب.

– ما الأمر يا امرأة؟ – سألتها غاضباً – لم قمتِ بطرد المسكينة؟

– لا شيء؟ – أجابتني في اضطراب – لقد جاءنا ضيف.

فأدخلت رأسي من الباب وأنا أسألها:

– من ضيفنا؟

وحين أجابتني أنه أبي، شعرت بسهم مسموم يعاود اختراق أحشائي، وأدركت حينها أنّ زوجتي أيضاً كانت راغبة فيما حصل. ولكنني تمالكت نفسي، وأنزلت ابنتي، ودخلت المنزل دون أن أخلع حذائي. فوجدته متربعاً في الصالون، ولكن وجهه شديد الاحمرار.

همّ بالنهوض وهو يتمتم:

– ابني جمعة.

ولكنه كان مذعوراً، لا يستطيع النظر إليّ، بل يبحث عن مهرب ما، ولو أتيح له لرمى بنفسه من النافذة ولاذ بالفرار. ورغم أنني لم أكن في حال أفضل منه،

لكنني حاولت السيطرة على خوفي.

– أهلاً بك يا أبي. – قلت له – لا داعي لأن تنهض.

ورغم أنه لم ينخدع بهدوئي، لكنه أخذ يضحك في بلادة.

– أجلس يا أبي، فهذا منزلك أيضاً.

فأجابني قائلاً:

– الظفر لا يخرج من اللحم، وقد قررت زيارتك، وإنهاء هذا الخلاف يا بني.

– حسناً ما فعلت.

أجبته، وأنا أشعر أنّ كل ما حولي يدور في سرعة جنونية، كان يتحدث ومع مواصلته الحديث، كان يتضاءل حجمه، ويصبح أكثر دمامة وبؤساً، وكنت أبحث في الوقت ذاته عن السبب الذي جذب زوجتي نحو رجل عجوز يفوقني دمامة، دون أعثر على أي إجابة. فقلت لنفسي ربما وقعت في غرامه، والحب لا يفرق بين حسن وقبح. وحين أنهى أبي كلامه، استأذنته في الذهاب إلى الحمام، لكنني توجهت نحو المطبخ، وأخذت ساطور اللحم المعلق على الحائط، وخبأته خلفي، وعدت إلى الصالون، فيما يرمقني والدي في فضول، ويضحك ببلادته السابقة، انتصبت فوقه، وأنزلت الساطور بكل ما أملك من قوة على رأسه، ولكنه تمكن من إزاحة رأسه، فيما أخذ الساطور معه نصف أذنه. حاول النهوض للنجاة بنفسه، ولكنني ركلته على بطنه، فسقط على وجهه، واعتليت ظهره وبدأت بإنزال الساطور في ضربات متلاحقة، لا أذكر عددها، حيث عدت لرشدي على صرخات زوجتي المستغيثة. نهضت لأرى كتلة معجونة من اللحم والدماء وبقايا العظام مكان رأس والدي. وحين التفت نحوها، كانت واقفة بالباب وقد شحب وجهها، وإلى

جانبها زهرة التي تمسك حفنة من الكرز بيدها الصغيرة.

– أتوسل إليك لا تقتلني. – قالت.

– أدخلي زهرة إلى المنزل، وتعالي لتصبي الماء على يدي، لأزيل عنها دماء هذا القذر.

ربما لم تصدقني، إلا أنها أطاعتني مجبرة، فتوجهت بدوري إلى المطبخ، ولكنني كنت قادراً على الإمساك بها فيما لو حاولت الفرار. وبعد أن أغلقت باب الغرفة على زهرة، وعادت. وضعت الساطور على الطاولة وحملت سكين الطعام الكبيرة. كانت تحمل جرة الماء وتقترب مني وهي ترتعد هلعاً، وحين أمسكت بيدها اليسرى، سقطت الجرة، فبللت المياه قدمينا. ولا أدري السبب على وجه التحديد، لكنني شعرت حينها براحة عميقة تنساب كالماء في جسدي، فيما ازدادت هي هلعاً.

– لما ترجفين؟ – سألتها.

– أحلّفك بحياة ابنتنا أن تعفو عني، ولا تقتلني. – توسلت إليّ باكية.

– لن أقتلك، ولكن أخبريني ما الذي وجدته في والدي حتى فضلته عليّ؟

– صدقني لا ذنب لي.

– إياك أن تنكري. هيا أخبريني، وسأتركك وشأنك.

– أنا لم أفعل شيئاً.

– توقفي عن الكذب. – صرخت فيها.

– أقسم لك أن لا علاقة تربطني بوالدك.

ولكنني ملم أقدر على تحمل المزيد، فغرزت السكين في بطنها. مرت لحظة قبل أن تدرك ما حصل، فحاولت الصراخ، لكن صرختها بقيت معلقة في فمها المفتوح الذي أخذت أطعنه بالسكين المرة تلو الأخرى. خرت على ركبتيها، ومن ثم انهارت أرضاً. فتحسستها بقدمي، وحين تأكدت أنها ماتت، غسلت يدي، وبدلت ثيابي، وحملت ابنتي متوجها إلى منزل خالي. وحين سألتني عن والدتها، أخبرتها أنها ستعود مساءً. سلّمت الفتاة لخالي، وأخبرته بكل ما جرى.

ووسط دهشتي مما أسمع، تتجه نظراتي نحو وجهه الهادئ. يبدو أنه تجاوز محنته منذ وقت طويل، بعد أن سرد هذه القصة لمئات المرات ربما.

– لقد أطفأت هذه السيجارة أيضاً يا سيدي. – يقولها متنهداً.

– وهل هربت؟ – أقولها فيما أضع سيجارة جديدة بين شفتيه.

– إلى أين سأهرب، ومن يستطيع حمايتي؟ توجهت من فوري إلى قسم الشرطة، حيث ألقي القبض عليّ، وفي المحكمة لم أنكر جريمتي. وقد حكم عليّ بالإعدام ومن ثم خفف الحكم إلى السجن المؤبد. ولو أنني لم أقم بقتل زوجتي، لكانت عقوبتي أخفّ من ذلك، ولكن القاضي وجه إليّ تهمة القتل العمد.

– وفي السجن التقيت بفخري؟

– بعد سنوات طويلة. حصل ذلك حين خففت عقوبتي ستة وثلاثين عاماً وتمّ نقلي إلى سجن جاناق قلعة على إثر ذلك. وبعد مضي ثلاث سنوات على سجن فخري وسنان. ولأنهما كانا سجينين سياسيين، فلم يخالطا بقية السجناء، وقد كنت أصادفهما كثيراً دون أن أتعرف عليهما. وبعد ذلك قابلت السيد نظمي، وعرفنا على بعض، وأوصاني بالقول:

– أرجوك أن تعتني بهما، فأنت قديم هنا، ولديك خبرة.

– أمرك سيدي. – أجبته على الفور. ولكنني ولسوء الحظ أصبت بعد فترة وجيزة باليرقان، وتمّ نقلي مع بقية المرضى إلى المشفى، حيث مكثنا هناك لبعض الوقت، وحين خرجت كنت ضعيف الجسم، منهار القوى، وقد أخبرني الطبيب أنني سأموت ما لم أعتنِ بنفسي جيداً.

حين العودة إلى السجن، نقلني فخري وسنان إلى مهجعهما، وسط كل أولئك الرجال المثقفين المتعلمين، حيث الطعام متوفر، إلى جانب كافة المستلزمات الحياتية الأخرى. وبدل الاعتناء بالشابين، قاما هما على خدمتي حتى تمام شفائي، ونجاتي من براثن الموت. ولن أخفيك سراً، أنني شعرت ببعض الخشية منهما، حين طلب مني السيد نظمي الاعتناء بهما، فهما ثوريان على درجة عالية من الثقافة والعلم، ولكنني ومع مرور الوقت أدركت كم كانت خشيتي في غير محلها.

– وهل أصبحت ثوريا مثلهما؟

– لا، فأنا عاجز عن فهم هذه الأمور، كما أن السيد نظمي أيضاً لم يكن راضياً عما يقومان به. بالإضافة لتخلي كل من فخري وسنان عن هذه الأفكار فيما بعد، حيث كرسا معظم وقتهما للكتابة والمطالعة. كانا يواصلان القراءة والكتابة طيلة الوقت، وحين قدما لي بعض الكتب لمطالعتها، شعرت بالملل، وكنت أغفو دوماً قبل إنهاء بضعة سطور.

– ألم يحاولا إقناعك للانتساب إلى التنظيم؟

– لقد مرّ علينا الكثير من السجناء المنتسبين لمختلف التنظيمات، ولكن أياً منهم لم يكن بذكاء وشجاعة هذين الشابين. ورغم أنّ سنان كان نزقاً بعض الشيء، ولكن فخري كان كريم النفس كوالده تماماً. وخلال كل تلك السنوات التي قضيناها سوية في السجن، لم يسئ التصرف ولو لمرة واحدة مع أي أحد.

– ولكنه لم يتورع عن توريطك في هذه الجريمة. – أقول له.

– الأمر ليس كما تظنّ سيدي. – يهز رأسه نافياً – فهو لم يورطني في شيء، بل تورطت بمحض إرادتي. فبعد إطلاق سراحهما، واظبا على زيارتي بين الحين والآخر، وبعد فترة توقف سنان عن زيارتي، ولكن فخري ظلّ يزورني ويطمئن عليّ، ويترك لي بعض النقود. وقبل حوالي العام، توفي خالي، وقد توفيت زوجته قبله بثلاث سنوات تقريباً. وكما أخبرتك، فقد تركت ابنتي لديهما، حيث قاما برعايتها وكأنها ابنتهما، خاصة أنهما لم ينجبا أولاداً، وظلت مقيمة عندهما حتى تزوجت، وقبيل وفاة خالي، كتب وصيته والتي نصت على أن تؤول ملكية منزله في البلدة وقطعة أرضه التي في القرية لابنتي زهرة. ولكن أخوتي اعترضوا وأحالوا الأمر إلى المحكمة، ولم يحسن زوجها التصرف، وتركهم يفعلون ما يشاؤون، فكادوا يسلبونها كل شيء. وحين أطلعت فخري على المشكلة، أوكل القضية لأحد المحامين المهرة والذي استطاع أن يعيد إليها كل ما ورثته عن المرحوم خالي. وقد جاء فخري قبل مدة ليخبرني بأنّ زهرة قد ربحت القضية. ولكنه كان في حال سيئة جداً، وحين سألته عن الأمر رفض أن يخبرني بشيء.

فواصلت الإصرار وأنا أسأله:

– ألسنا صديقين؟

وبدأ يسرد عليّ المشكلة قائلاً:

– أتذكر الفتاة التي حدثتك عنها؟

– أجل، اسمها مينة. – تذكرتُ على الفور.

– لقد اختفت منذ عشرة أيام.

– ستعود بالتأكيد، لا تقلق.

– لا أظن، فالموضوع معقد بعض الشيء، هناك شرطي، كانت تحبه

سابقاً، وحين تركته من أجلي، لم يحتمل الأمر، وألحق بها الأذى، وهو يريد توريطي واتهامي بقتلها.

– وما الذي تنوي فعله؟

– لا أعلم، ولكنهم لن يتركوني وشأني. – أجابني.

ولم يكن فخري بالرجل الذي يمكن أن يقول كلاماً مماثلاً لولا وجود سبب قاهر، فأدركت حينها أنّ الوضع أكثر سوءاً مما يقول. فعرضت عليه حينها مساعدتي قائلاً:

– اسمعني يا صديقي، دعنا ننتهي من أمره قبل أن يلحق الأذى بك. لقد حان وقت إجازتي، وسأقضي خمسة أيام في الخارج. أحضر لي مسدساً، وسأخلصك من هذا الوغد.

يقطع حديثه فجأة وينظر إليّ موضحاً:

– أعتذر منك سيدي، فلم يكن هناك من عداوة شخصية اتجاهك، ولكنني كنت مستعداً لفعل المستحيل من أجل فخري.

– لا عليك. – أقول له – استمر في الحديث.

– لم يوافق فخري في البداية، وأخبرني أنه لا يريد توريطي في جريمة أخرى، خاصة مع اقتراب العفو العام، حيث سيتم إطلاق سراحي، لأقضي ما بقي من عمري خارج القضبان، ولكنني أجبته حينها:

– ومن سيعلم بأنني من قتل الرجل؟ فأنا سجين منذ عشرات السنين، ولن يشك بي أحد. – بدا وكأنه اقتنع لوهلة، ولكنه عدّل عن رأيه، إلا أنني وبعد جهد جهيد تمكنت من إقناعه.

وقد قال لي حينها:

– لن تتمكن من تنفيذ المهمة لوحدك، فهو رجل لا يمكن النيل منه بسهولة، سنتعاون كلانا للتخلص منه.

– حسناً، سنقضي عليه معاً دون أن يشكّ أحدٌ بنا.

– ولكن عليك أن تعدني، إن أُصبت، دعني وشأني وحاول الهرب والنجاة بنفسك. – لقد وضع هذا الشرط من أجل ضمان سلامتي.

– حسناً. – قلت له.

– إذاً علينا البدء بأسرع وقت، فأنا أعرف منزله، وسننفذ العملية صباحاً حين يتوجه إلى العمل. أطلب إجازة في بداية الأسبوع، وتعال إلى إسطنبول. – وفعلت كما طلب مني.

أراقبه وهو يواصل الحديث، ألا يدرك أنّ اعترافاته هذه ستودي به إلى عقوبة أبدية لن ينجو منها؟ لا بدّ أنه يدرك ذلك، ولكنه في سبيل الوفاء لصديقه، لا يبالي بمصيره على ما يبدو. وربما يخشى الخروج من السجن، فقد قضى في السجن ما يقارب العشرين عاماً. أيمكن أن يكون كاذباً فيما يقوله؟ أحدق إلى عينيه المحمرتين فيتجلى فيهما صدق ساذج لا يمكن أن تخالطه ذرة كذب واحدة، ورغم ذلك أحاول التحقق أكثر.

– حسناً، ولكن المهم الآن أين مينة؟

يرمقني غير مصدق وهو يسألني:

– أتعني أنك لا تعرف أين هي الفتاة؟

– بالطبع لا أعلم. – أقولها بحدة وأن أحدجه.

لا يلوح القلق على وجهه، بل على العكس تماماً، يبدو مستغرباً من سؤال، بل وغير مصدق، لذا يحدق إليّ بإمعان وكأنه يحاول التأكد مما أقوله. ولأنّ نظراته الصادقة تخترق أعماقي، أجدني أحاول الدفاع عن نفسي، رغم معرفتي بأنني غير مجبر على ذلك.

– من المحال أن أقوم بإيذاء تلك الفتاة. ألا تفهم؟ من المحال أن أستطيع ذلك.

– إذاً فأنت مغرم بها إلى هذه الدرجة؟ – يقولها وقد لاحت الشفقة في عينيه.

– دعنا من ذلك الآن و... – ولكنه يقطع حديثي.

– لا تقل دعنا من ذلك، فالرجل حين يحب، يستطيع أن يقتل.

– ما هذا الكلام يا رجل؟ لما سيقوم أحد بقتل الشخص الذي يحب؟

– الغيرة ربما.. وربما..

– وربما ماذا؟

– حتى لا تصبح سمعته سيرة تلوكها ألسن السوء.

– ألهذا السبب قام فخري باختطاف الفتاة؟

– اختطفها؟ – يمتقع وجهه لوهلة بظلال قاتمة، ولكنه يعود إلى حالته بعد لحظات وهو يوضح – لم يقم فخري بأي شيء يؤذي تلك الفتاة.

– وما أدراك؟

– هو من أخبرني بذلك.

– لقد كذب عليك.

– فخري لا يكذب مطلقاً.

– وماذا عنك؟

– أنا لا أعرف تلك المسكينة.

– وكنت لا تعرفني أيضاً قبل أن تطلق النار عليّ.

– لقد كنتَ عدو فخري.

– وماذا عن مينة؟

– كانت حبيبته.

– لو طلب منك حينها قتل الفتاة.

يتردد لوهلة قبل أن يجيب:

– كنت سأقتلها. لكنه لم يطلب مني شيئاً من هذه القبيل.

– وكيف لي التحقق مما تقول؟

– تستطيع أنت تسأل مدير السجن، فخلال فترة اختفاء الفتاة، كنت في السجن.

– ربما أخبرك فخري بشيء لا تريد البوح به.

الغريب أنه لا يولي اهتماماً لتهديدي المبطن، بل على العكس يبدو أكثر إرهاقاً من قبل، كمن يريد النجاة من هذه الجلسة مهما كان الثمن، ويوضح لي في سأم:

– لقد أطلعتك على كل ما أخبرني به. ولا أعلم شيئاً آخر.

– إن كنت تكذب لن تخرج من السجن، ولن يفيدك أي عفو.

– وما المشكلة؟ – يقولها في لامبالاة – وأي هراء في الخارج؟

الفصل الواحد والعشرون

أخرج من غرفة التحقيق لأرى الشمس تتوسط كبد السماء. فقد خمنت من النسيم الدافئ الذي كان يهب فجراً، أنّ الطقس سيكون جميلاً، يجلس كل من طاهر وحكمت إلى الطاولة التي على يسار الباب، وهما يتناولان الإفطار. وينهضان على الفور حين رؤيتي.

– تفضل شاركنا الإفطار سيدي. – يقول لي حكمت في احترام مصطنع، دون أن يغيب عني أنه مجرد قناع يخفي عدم ثقته بي.

وبدوري أختبأ وراء قناعي وأنا أجيبه:

– لا أرفض بعض الخبز والجبن، وكأس من الشاي.

وفيما يقتطع لي طاهر بعض الجبن، ويضعه داخل رغيف من الخبز، يصب لي حكمت كأس الشاي.

– كيف جرى التحقيق؟ – يسألني حكمت.

– لقد كان جيداً، ولكنني لم أتوصل لأي نتيجة. – وآخذ شطيرة الجبن منه.

– لقد أخبرونا أنه عنيد، لا يستسلم بسهولة.

وفيما أتناول الشطيرة، أراقب الردهة الفارغة من الذي أحد.

– أين جماعة جاناق قلعة؟ – أسأل فيما أمضغ طعامي.

– لا يزالان نائمين. – يردّ حكمت وهو يشير برأسه نحو الأعلى – لا بدّ أنهما كانا شديدي التعب.. هاااا لقد اتصلت بك السيدة زوجتك أيضاً، وطلبت مني أن تعاود الاتصال بها لأمر ضروري.

– حسناً، سأفعل ذلك.

– هناك هاتف في الداخل.

– سأتصل بها في الطريق. – ذلك لأنني أعلم أنّ الهواتف هنا مراقبة.

وبعد أن أشرب رشفة من كأس الشاي، أقول:

– أخبروهما حين يستيقظان أن يعيدا الرجل إلى حيث كان، ولكن دون حاجة لوضعه في الصندوق، فلقد كان متعاوناً أثناء التحقيق.

– سنفعل. – يجيب طاهر.

– الشاي رائع بالفعل. من أعده؟ – أسأل.

– خيري. – يجيب حكمت – فقد ظلّ مستيقظاً طوال الليل.

أنهي فطوري، وأخرج من أجل إشعال سيجارة الصباح. فيقبل خيري.

– هل ستذهب؟

– أنهيت العمل. – أجيب.

– لقد انتهيت منه بسرعة.

– في الحقيقة لم يكن يخفي الكثير.

يبدو المنزل أقل وحشة في ضوء النهار، تسقط علينا ظلال شجرة سرو

فتية. حيث يظهر التباين جلياً بين زقزقة العصافير النشطة فوق الأغصان؟ ووجه خيري المنهك.

– ألا تنام في الليل؟

– حين يكون هناك عمل لا أنام مطلقاً، ولكنني أكتفي من النوم بل وأضجر منه حين أكون وحدي.

من الواضح أنه مسرور لوجودنا هنا، ففي هذه اللحظات لا يشعر بأنه مجرد عاجز تمّ إهماله في ركن قصي، بل لا يزال قادراً على أداء مهنته ولو بطريقة مغايرة.

يرافقني حتى السيارة، وقبل أن أغلق الباب يسألني:

– هل أخذت شريط الفيديو معك؟

– أي شريط؟

يتردد للحظة، ويدرك أنه باح بما لا يجب أن يقال. فيحاول التدارك.

– لا عليك، فقبل أسبوع أحضروا شخصاً من البوسنة، ولا بدّ أنني خلطت بين الواقعتين. إنها الشيخوخة.

– لا عليك، أراك لاحقاً. – أقول.

– مع السلامة. – ويبدو عليه الارتباك.

أنطلق باتجاه الطريق، وأنا أفكر في عمي. فهو يقوم بتصوير التحقيق بكاميرا خفية، إذاً فهذا هو سبب تواجد حكمت وطاهر هنا، لكي يسلموه الشريط، ويتفرج عليه ويقرر ما يجب فعله، ولكن ما الذي يتوقع معرفته يا ترى؟ فليذهب إلى الجحيم، لست قادراً على إشغال ذهني بألاعيبه الآن، وأنا لم أعثر بعد

على أي دليل يقودني إلى مينة، فطوال الوقت أدور وأدور وأعود إلى حيث بدأت. ولكن أغلب الظن أنّ فخري قام باختطاف مينة أو قتلها بسبب الغيرة، ولا علاقة للتنظيم أو سواه بالحادثة. ربما صُدم حين أخبرته أنّني والد الجنين، وزاد الأمر سوءاً حين علم أنني شرطي. ولكنني معجب بقدرة مينة على إخفاء طبيعة عملي، وعدم إخباره بشيء، رغم كل ما نشب بيننا من شجار ومشاكل. أيمكن أن يكون فخري قد اطلع على حقيقة عملي، وبدأ يشك في أنها تعمل لصالحنا؟ فبحسب ما قيل عنه فهو رجل متمسك بمبادئه، ويتمتع بجرأة شديدة كما يدّعون. ولو استخدم عقله كجرأته تلك، فمن الممكن أنه قام بالعودة سراً إلى إسطنبول أثناء زيارته لعائلته، وقام بقتلها وعاد في اليوم نفسه. أو أنه طلب منها الذهاب إليه، ومن ثم قام بخداع جمعة، وبهذه الطريقة يكون قد انتقم من مينة، ووجد طريقة للتخلص مني. ولكن جمعة أفشل الخطة، حين أصيب بالتوتر لدى رؤيتي. أجل إنه فخري ومن سواه؟ فلو أنها ذهبت في رحلة إلى مكان ما، لكانت قد عادت، أو اتصلت حتى الآن، وحتى لو لم تتصل بي، فلا بدّ أنها ستتصل بفخري، ولا يمكن لها ألا تكون قد علمت بكل ما تسببت به مشاكل بعد غيابها، وماذا عن عملية الإجهاض؟ أيعقل أنّ وضعها تدهور أثناء العملية وماتت؟ محال، فلو حدث أمر كهذا لفاحت رائحة القصة منذ وقت طويل، كما أنها لم تكن على عجلة من أمرها في إجراء العملية هنا، فالحمل لم يمضِ عليه سوى شهر واحد. وهناك فرضية عمي، بأنها ووالدها يعملان لصالح الاستخبارات، وهو أكثر الاحتمالات ضعفاً. فهو مصاب برهاب الشك. ولكن ماذا حصل في اجتماع اليوم يا ترى؟ لقد بدأ في التاسعة، تتجه نظراتي نحو الساعة فأراها قد بلغت الحادية عشرة وإحدى وعشرين دقيقة، ومن المرجح أن يستمر حتى الظهيرة.. حسناً، لنرى ما سيفضي إليه.

على بعد أمتار تظهر محطة وقود، فأتجه نحو اليمين متمهلاً، رغم خلو الطريق. أركن السيارة أمام مضخة البنزين، وأطلب من الشاب الذي يقترب مني أن يملأ الخزان، وأنا أعطيه المفاتيح، وأتجه نحو جهاز الهاتف الذي في الداخل.

– ألو؟

تتعرف مليكة إلى صوتي على الفور.

– ألو سِدات أهذا أنت؟

– أجل، خيراً لما اتصلت بي؟

– كيف حالك؟

لقد أخذت هذه المرأة تخنقني بحصار مزعج بعد حادثة الاعتداء.

– بخير بخير. ما الأمر؟

– اتصلت زوجة المرحوم يلدرم.

– تعنين السيدة غول سيران؟

– أجل، وقد طلبت مني أن أخبرك بضرورة الذهاب للقائها لأمر في غاية الأهمية.

– خيراً، ما الذي حصل يا ترى؟

– لم تخبرني بشيء، ولكن صوتها كان مضطرباً.

– حسناً يا عزيزتي، سأتصل بها.

– لا تتأخر في العودة مساء، لقد بدأت أشعر بالقلق أنا أيضاً. – تقول.

أنهي المكالمة، ومن ثم أتصل بمنزل السيدة غول سيران، ولكن رقمهما مشغول. إنها حقاً امرأة شجاعة، فبعد وفاة زوجها، رفضت أخذ راتبه التقاعدي. ورغم أنها ليست في حاجة للنقود، ولكن القليل من النساء ستقدمن على خطوة

مماثلة، بسبب الخوف ربما، أو الطمع، ولكن ما سبب اتصالها بي؟ أعود للاتصال بها، ما زال الرقم مشغولاً.

أتأمل في جمال الطبيعة من حولي، حيث النقاء والخضرة التي تتلألأ تحت أشعة الشمس، وكأننا في أوج الربيع. يتجول نسيم عليل رطب قادم من البحر على وجهي، ويحرك شعري بخفة، في الأسفل تظهر منطقة بيوك جيكمجة، وهي تطل على البحر، وقد أخذت بعضاً من زرقته التي انعكست عليها. فأراقب هذا المشهد الأزرق المتعدد الدرجات لبرهة من الوقت.

وأعود للاتصال بالرقم مجدداً، فيرن الجرس هذه المرة.

– ألو.. سيدة غول سيران؟

– سِدات أهذا أنت؟ – يبدو وكأنها تفاءلت بسماع صوتي – من الجيد أنك اتصلت.

– خيراً، هل من خطب ما؟

– علينا أن نتحدث فوراً.

– ما الأمر؟

– لا أستطيع التحدث على الهاتف، عليك المجيء إليّ.

– حسناً، أنا في الطريق.

أعود إلى سيارة منطلقاً بسرعة نحو منزل يلدرم الذي يقع في منطقة يشيل يورت، في شقة تطلّ على البحر. لديهما ابن وحيد؛ ميتى يدرس العلاقات العامة في لندن، حيث يحضّر هذه السنة لرسالة الماجستير. لذا فالسيدة غول سيران تعيش بمفردها، وقد كنت أتصل بها على الدوام للاطمئنان على حالها، لكنني أهملت هذه

العادة منذ بعض الوقت، وكانت أول من جاء إلى المشفى لزيارتي. ولكن ما الذي طرأ حتى تطلب رؤيتي على الفور؟ أزيد من سرعة السيارة أكثر، وأنا أقلب كل الاحتمالات في ذهني.

تستقبلني على الباب، حيث منزلها بذات ترتيب ونظافة منزلي، حتى نسائنا متشابهات، والسبب يعود أغلب الظنّ لطبيعة عملنا التي فُرضت عليهن.

– أعتذر لأنني جعلتك تتكبد مشقة المجيء. – وتواصل كلامها وهي تشير لي بالدخول، فأتبعها إلى غرفة الاستقبال، وأجلس – ولكن ليس لدي أحد لاستشارته والأخذ برأيه.

– لا تقولي كلاماً كهذا، فأنا جاهز لخدمتك في أي وقت تشائين.

– شكراً لك. لقد كان يلدرم يعتبرك بمثابة أخيه، ويحدثني عنك طوال الوقت.

أتأمل في ملامح وجهها، فرغم أنها لم تبلغ الخمسين بعد، لكنها تبدو كعجوز، وأتخيل ما ستؤول إليه مليكة لاحقاً، ومن ثم أطرد هذه الأفكار الغبية من رأسي على وقع صوتها وهي تقول:

– لا أعرف ما يتوجب عليه فعله. – تستمر في الكلام، وهي ترمقني بنظرات حائرة – لذا طلبت مشورتك أيضاً.

– بالطبع سأعمل على مساعدتك، ولكنني لا أعرف بعد ما المسألة. – أقولها مبتسماً.

– لا تعرف؟ – تسألني مستغربة.

– لا.

– غريب، لقد توقعت أنّ ما حصل هو بتأثير منك.

– وما الذي حصل بالضبط؟

– حقاً غريبٌ إذاً فأنت لا تعرف شيئا مما جرى. حسناً سأخبرك بالقصة منذ البداية. رن هاتفي اليوم صباحاً، فأخبرتني سيدة بلباقة بالغة أنها سكرتيرة المستشار.

– سكرتيرة المستشار؟ – أسألها غير مصدق.

– أجل، سكرتيرة المستشار الجديد، وقد أخبرتني أنه ينوي زيارتي في الثالثة من بعد ظهر اليوم، وسألتني إن كان لديّ وقت لاستقباله. ترددت لبرهة لا أدري بما أجيب، وأخبرتها أخيراً، أن لا مانع لديّ. ولكنني شعرت بقلق بالغ بعد إنهاء المكالمة، فما الذي دفعهم لزيارتي بعد مرور كل هذا الوقت؟ اتصلت بميتى، ولكنه لم يجد تفسيراً للأمر. وهو من أخبرني أن أطلب مشورتك، فقد تطلعنا على هدف الزيارة، وما يتوجب علينا فعله.

– للأسف فأنا لا أعرف أي شيء. – أكرر لها، ومن ثم أردف – ولكنه أمر غريب أن يأتي المستشار بعد مرور كل هذه السنوات، لزيارة منزل يلدرم.

أمرر يدي على ذقني وأنا أفكر بمخاوف عمي، أحقاً سيتم تقليص سلطاته؟ ولكن لا دلائل تشير إلى البدء بخطوة كهذه.

– ربما سيقدمون اعتذاراً رسمياً. – أقول.

– ألم يفت الأوان برأيك؟ – تسألني.

– ربما أدركوا خطأهم أخيراً. – أقول.

– وما الفائدة؟ – تقول وقد ترقرقت الدموع في عينيها.

– لو اتضح أنهم صادقون في نواياهم، فذلك يعني بداية تطورات ستعود بفائدة كبيرة على قوى الأمن، وعلى البلاد برمتها.

– كل هذا لا يعنيني في شيء. فبعد رحيل يلدرم.

– لا تقولي هذه الكلام، فلو كان يلدرم حياً وما يزال معنا، لسرّ من هذه التطورات.

فيخفّ غضبها قليلاً.

– حسناً، ما الذي يتوجب عليّ فعله، وقوله للمستشار؟

– لا أعلم على وجه التحديد، ولكن لا تقابلي كلامه بالرفض، على الأقل حتى نتمكن من فهم السبب الكامن وراء زيارته. وأظن الأيام القادمة ستوضح هذا السبب.

– حسناً. – توافق في استسلام – لنرى ما الذي يخفيه هذا المستشار الجديد، ولكنني سأسأله عن قتلة يلدرم، وأطلب منه محاسبتهم.

– سيخبرك أنهم ألقوا القبض عليهم، فهذا ما توضحه التقارير والأوراق الرسمية.

– كلام على ورق ليس إلا.

– في هذا النوع من القضايا لا تظهر الحقيقة إلا بعد بحث وتحقيقات مطولة وشاملة.

– تعني أنها لن تظهر أبدا، ولن يلقوا القبض على قَتَلته.

– إنه أمر صعب.

– لا أفهم، فلديكم كافة الإمكانات، وتستطيعون الوصول إلى أي دليل تشاؤونه، ورغم ذلك فأنتم عاجزون عن إيجاد من قام بقتل صديقكم وزميلكم.

– الموضوع معقد بعض الشيء، وليس بالبساطة والوضوح اللذين تظنينهما.

– هذا ما كان يردده يلدرم أيضاً، حين يواجه قضية لا يستطيع التحقيق فيها.

– وما الذي كان ليقوله سوى ذلك؟ فنحن عملنا في هذه المهنة مدركين كل هذه الصعوبات.

– حسناً، ولكن لا بدّ من القيام بخطوة ما. – تصرّ في عناد – سأطالب المستشار بتقديم توضيح لي حول ما تمّ اتخاذه من أجل العثور على قتلة زوجي. أليس من واجبه معرفة المجرمين والقبض عليهم؟

الفصل الثاني والعشرون

حين أصل إلى العمل، يخبرونني أنّ المستشار أنهى الاجتماع الصباحي، وغادر. ولو تُرك الأمر لي، لجئت في وقت أبكر بكثير، ولكنني وتحت إصرار السيدة غول سيران، اضطررت للبقاء، وتناول الغداء معها. ورغم أنني كنت جالساً أستمع لحديثها، لكن ذهني كان منشغلاً بما يجري بين أروقة هذا البناء، وأشعر بفضول كبير لمعرفة القرارات التي سيتمخض عنها الاجتماع. هل حقاً سيقومون بتقليص سلطات عمي، أم أنّ مخاوف أورهان ستتحقق، وسيحافظ الطاقم الإداري العجوز على سلطاته، بل وستزداد قوتهم؟ لذا فقد أسرعت بالمغادرة بعد انتهاء الطعام، حتى دون انتظار القهوة.

المبنى يبدو ساكناً، والجميع خلف الأبواب المغلقة يواصلون عملهم، وأغلب الظنّ أنهم يقيّمون القرارات التي أصدرها المستشار. تسير الحياة على وقعها المعتاد في الممرات التي تفصل بين المكاتب، لا جديد، لا غريب. أصعد السلالم نحو الطابق العلوي، ولحسن الحظ أجد مصطفى في المكتب.

– أهلا سيدي. – يقول حين يراني.

– مرحباً، ما الأخبار؟

– اتصل بك السيد متين، أليس هذا الرجل والد مينة؟

– أجل، وما الذي يريده؟

– أخبرني أنه في إيطاليا، وسيعود إلى تركيا على متن الرحلة المسائية. وسينتظرك صباح الغد في تمام العاشرة، في ذات الفندق الذي تقابلتما فيه سابقاً.

وقد طلب مني إخبارك أنّ الأمر مهم جداً.

– هكذا إذاً؟ لقد كان يحاول لقاء سيلين، فهل تمكن من الحصول على معلومات لا نعرفها برأيك؟

– لا أظن سيدي، فقد تحدثت معها على الهاتف مرتين، والمسكينة لم تكن تعرف أي شيء، وقد عملت بالحادثة عن طريقي.

– إذاً لا بدّ أنه يبالغ. أياً يكن الأمر سيتضح الأمر غداً. هل بحثت في المشافي كما طلبت منك؟ – أسأله وأنا أخلع معطفي.

– لقد فعلت، ولكنني لم أصل إلى نتيجة. لقد جلت على ثلاثة وعشرين مستشفى وعيادة تجري عمليات الإجهاض، ولكن اسم مينة لم يكن وارداً في سجلات أي منها. ولم يتذكر أي طبيب منهم أنّ مينة قد أجرت العملية عنده. كما أنّ الوفيات الناجمة عن عمليات الإجهاض نادرة بل تكاد تكون معدومة.

لا يفاجئني ما يقوله مصطفى.

– أهناك أخبار عن الاجتماع؟

– لا أحد يصرّح عن شيء، ولكن يبدو الكل راضياً.

– من تعني؟

– السيد عصمت، السيد أورهان.

– وما أدراك أنهم راضون؟

– رأيت عمك وأورهان يتبادلان الحديث، وكان من الواضح أنهما مبتهجان من النتائج.

إذاً فقد صدر قرار بالمصالحة وتسوية المشاكل. لا بدّ أنّ المستشار شخص بالغ الذكاء، لقدرته على إرضاء عمي وأورهان في الوقت ذاته.

- ومتى غادر المستشار؟

- منذ حوالي الساعة، وبعد انتهاء الاجتماع، قام عمك باستدعاء كل من حكمت وطاهر إلى مكتبه. وقد جاءا للسؤال عنك، ومن ثم توجهوا ثلاثتهم إلى مكتبه. ولم يمضِ على خروجهما من عنده وقت طويل. وبعد حوالي ساعة ذهب أورهان إلى مكتب عمك، ولا يزال هناك.

- وما أدراك أنه هناك؟

- لقد استدعاني السيد عصمت قبل حوالي نصف ساعة ليسألني عن تقريرك حول عملية أوسكودار.

لا أذكر عن أي تقرير يتحدث، فيواصل مصطفى الحديث موضحاً لي:

- بشأن الاتهامات الموجهة للمحقق ناجي.

- حسناً حسناً، لقد تذكرت. - أقولها وأنا أهز رأسي.

- لقد سألني عن هذا التقرير، وقد أخبرته أنه جاهز بانتظار توقيعك عليه. فطلب مني أن توقع عليه حال وصولك، وأن تأخذه إليه.

- وأين التقرير؟

- هناك. - ويشير بيده نحو الطاولة - في ذلك الملف.

أفتح الملف، وآخذ التقرير المكون من ثلاث صفحات وأنا أسأله:

- هل تواصل الصحف نشر أخبار عن القضية؟

– في الحقيقة لم أتابع الأمر سيدي. – ويتهرب من المهمة.

– لقد استسلم ناجي للخوف دون مبرر. أياً يكن الأمر سنقوم بما يمليه علينا واجب الصداقة – وأوقع تحت اسمي المكتوب في أسفل التقرير. وفجأة ألاحظ عدم وجود اسم مصطفى أو توقيعه في التقرير، فأستوضح منه:

– ولكنني لا أرى اسمك وتوقيعك في التقرير.

– لأنني لم أشهد على ما حدث داخل المنزل سيدي – يجيبني في تبرم – كنت معك في الخارج، وكل ما رأيته هو هروب اثنين منهما، وأنك أمرتهما بالتوقف، وحين لم ينصاعا للأمر قمت بإطلاق النار عليهما. ولكن التقرير يقول بحدوث اشتباك وإطلاق نار متبادل في الداخل، وهو صحيح بكل تأكيد لأنك من قمت بكتابته. إلا أنني لا أعرف من الذي بدأ إطلاق النار، وكيف حدث الاشتباك. لذا فقد قمت بإعداد تقرير آخر، شرحت فيه الأحداث التي شهدتها.

جبان قذر، وحين يلاحظ استيائي يواصل شرحه:

– لكنني لم أكتب فيه ما يلحق الضرر بأحد، وهناك نسخة عنه هنا، سأطلعك عليها إن شئت.

– حسناً، حسناً، لقد فهمت. – وأواصل في ضيق – لا أريد.

أوقع على التقرير وأخرج من المكتب دون مزيد من الكلام. لا بدّ أنها خطيبته المتحذلقة هي من أملت عليه القيام بذلك.

فأقارن بينه وبين خيري الفتاك. إنهما على طرفي نقيض. فهذا الجيل الجديد يفتقد لروح العمل الجماعي، والعمل كفريق واحد، ولا يهمه سوى النجاة بنفسه وقت الضيق دون مدّ يد العون لأحد. ولكنني أتساءل عما سيفعله حين يجد نفسه في ورطة ما، ومن الذي سيهبّ لمساعدته؟ يبدو وأنه يخلط بين عملنا، وبين العمل

في أحد البنوك. ربما يدرك خطأه مع مرور الزمن، ولكن بعد فوات الأوان، لأنه سيكتسب سمعة سيئة بين زملائه في العمل. لا بدّ من تقديم النصيحة له، ولكن هل سيتمكن من فهم ما أقوله؟

تشغل ذهني هذه المقارنات بين القديم والجديد، حتى وصولي لمكتب عمي، وحين أدخل أراه جالساً قبالة أورهان يتبادلان حديثاً يبدو ودّيا، فأمعن النظر في وجهي عمي، الذي اختفى عنه ضيق الأمس، بل أصبح يفيض بِشراً واطمئناناً.

– مرحباً. – ألقي التحية ببرود.

– أووو سِدات، تفضل بالدخول. – يرحب بي عمي – أين أنت يا رجل؟ قلقنا عليك.

يرحب بي أورهان الذي يبدو في مثل بشاشة عمي وارتياحه، بحرارة كبيرة.

– كيف حالك سِدات.

متملق جبان، وكأنه نسي كيف قمت بطرده من مكتبي البارحة؟

– بخير. – أردّ باقتضاب، وألتفت نحو عمي وأنا أعطيه التقرير – أحضرت ما طلبته مني.

– من الجيد أنك أحضرته، سأقوم بإرساله إلى القاضي على الفور، لكي نخلي مسؤوليتنا من تبعات الحادثة. – ومن ثم يردف – تفضل بالجلوس، أريد التحدث إليك حول بعض الأمور.

فأجلس على أحد الكراسي، بينما يستعد أورهان للنهوض، محاولاً إظهار مدى لباقته ولطفه.

– عن إذنك سيد عصمت، عليّ المغادرة.

فينهض عمي لمصافحته وهو يقول:

– جهزوا ما تمّ الاتفاق عليه. – يقول له.

– حسناً سيدي. – وهو ينظر إلى عمي في ثقة بالغة، وبالكاد أمسك نفسي عن القهقهة غيظاً وسخرية من هذه المسرحية. بينما يواصل – أراك لاحقاً سِدات. ويتجه نحو الباب.

– يبدو أنّ الاجتماع سار على ما يرام. – أقول لعمي بنبرة تعتريها السخرية.

ينتظر عمي مغادرة أورهان، وبعد إغلاق الباب يوضح لي:

– لم يحصل ما كنت أخشاه، فقد اتضح أنّ المستشار الجديد، يتمتع بحنكة وخبرة عاليتين. وهو مطلع بشكل جيد على ما نعانيه من مشاكل هنا. وقد أخبرنا أنه كان يتوجب عليه عقد هذا الاجتماع قبلاً، ولكنه أراد الإلمام بسير العمل، والتعرف إلى مشاكلنا بصورة أوضح. فهو يعمل على الأمر منذ بضعة أشهر.

– وما نوع القرارات التي صدرت عن الاجتماع؟

– الوحدة. وإنهاء التكتلات والفرقة بين رجال الاستخبارات.

– وماذا عن الخلافات السابقة؟

– سننسى كل ما مضى. فقد أوضح المستشار أننا وفي هذه الأوقات العصيبة التي تمرّ بها البلاد، والقلاقل التي تعصف بكافة الدول التي من حولنا، يتوجب علينا توحيد قوانا، فإن لم ننجح في ذلك كيف لنا أن نخدم البلاد بالشكل اللائق. وأنا أؤيده في كل كلمة قالها. وبالمناسبة هناك خبران ستسرّ منهما كثيراً:

فقد مدح المستشار صديقك يلدرم، وهو يريد أن تلتئم الجروح القديمة التي تفرقنا عن بعض، وأعتقد أنه سيقوم بزيارة زوجته من بعد ظهر اليوم.

– إذاً فقوى الاستخبارات تنوي الاعتذار؟ – وأواصل ممتعضاً – ولكن ألم يفت الأوان؟

– سيتم القيام بكل ما يتوجب القيام به لتدارك الأخطاء السابقة.

– وهل سيتم العثور على قتلة يلدرم أيضاً؟

– كفّ عن إثارة المشاكل، فتلك المسألة انتهت منذ وقت طويل. هل لك أن تخبرني عن عدد الأشخاص الذين كانوا يحبون يلدرم بين عناصر الاستخبارات؟ أربعة أو خمسة أشخاص لا غير. لما؟ لأنه كان ينوي الإيقاع بزملائه والتخلص منهم. صحيح أنه كان شجاعاً ذكياً، ولكنه كان مصاباً بالرهاب، ويعمل على بث الدسائس والفرقة بين الجميع. إإإيه.. وعلى الباغي تدور الدوائر. ولكن كل هذه المشاكل أصبحت من الماضي، وقد وعدنا المستشار بعدم السماح بتكرار مثل هذه المؤامرات والخلافات. أتعي ما أقول؟ لقد بدأ عهد جديد بالنسبة إلينا جميعاً. – ومن ثم يغمزني بمكر وهو يواصل – كما تمت الموافقة على تعيينك في موقع أفضل، والاستفادة من خبرتك في العمل. أي أنك ستتخلص من وظيفتك الحالية التي تشتكي منها. وستحقق كل طلباتك.

– عليّ العثور على مينة أولاً. – أقول.

من الواضح أنه مستاء من برودي إزاء كل ما أفضى به، لذا يسند ظهره على الكرسي، ويرمقني بنظراته الحادة قبل أن يعلق قائلاً.

– في الحقيقة أعترف أنني كنت مخطئاً، وبالمقابل كنتَ محقاً. لقد قُتلت هذه الفتاة.

مكتبة

– لا أصدق. – أقول وأنا أهز برأسي ساخراً – فكيف لرجل في مثل حنكتك أن يغير رأيه، بعد مشاهدة شريط فيديو، رغم عدم وجود أي أدلة وبراهين يمكن العثور عليها أثناء التحقيق.

أباغته بكشف لعبته، فيسألني في اضطراب:

– وما أدراك أنني شاهدت الشريط؟

– عليك أن تخبر رجالك أن يكونوا أكثر حذراً. – وأردف في ثقة – وأن يتصرفوا بحرص أكبر مع شخص لا يحظى بثقك على الإطلاق.

– لا تعتبر الأمر متعلقاً بالثقة.– ويواصل في هدوء – كل ما هنالك أنني أردت الاطلاع على القصة من خلال عدة مصادر.

– ولكنك تعتمد على مصادر أخرى منذ بداية القضية.

– صحيح، وأعتقد أنني فعلت الصواب. وإن شئت الحق، فليست اعترافات جمعة وحدها من دفعني لتغيير رأيي. ذلك أنّ مصادرنا في ألمانيا أوضحت لنا أنّ الفتاة ووالدها لا علاقة لهما بأي جهة استخباراتية.

– أتعني أنهما ليسا جاسوسين؟ – أسأله ضاحكاً.

– ما من مبرر لتضحك. – يقول في حدة – فكل فرضية تحمل بين طياتها احتمال نقضها.

– أياً يكن الأمر فمجرد معرفتك أنك كنت مخطئاً، تحسن بالغ. ولكن الفتاة ما زالت مختفية. ولن أقبل بأي وظيفة جديدة قبل العثور عليها.

– أنت تتصرف بطريقة عاطفية. فكما اتضح لا علاقة للتنظيم بقضية اختفائها، وأغلب الظن أنّ فخري قام بقتلها، وإخفاء جثتها في مكان ما. وإن كان

ذلك صحيحاً، فكيف ستعثر عليها؟

– لا أعرف، ولكنني لن أغلق ملف القضية بهذا الشكل.

– برأيي عليك أن تغلق ليس هذا الملف فحسب، بل الماضي برمته. ألا تدرك أنّ عهداً جديداً قد بدأ، وأنك تستطيع الانطلاق من جديد، وفتح صفحة بيضاء.

– كل هذا لا يعنيني حقاً، ولن أباشر أي عمل جديد ما لم أعثر عليها، أو أكتشف ما حصل لها.

– لقد بحثت في القضية ودرستها أكثر منك، ولكن السبل نفذت منك. كيف ستبحث عنها، وأين ستعثر عليها؟

– سأجد خيطاً ما، وإن اقتضى الأمر سأبدأ التحقيق كله من جديد.

– لما عليك أن تثير المشاكل دوماً؟ لما لا يمكنك العيش بسلام؟

– الأمر متعلق بالاحترام الذي أكنّه لنفسي.

– لو أنك تحترم نفسك مثقال ذرة، لما فعلت هذا بزوجتك وابنتيك.

– لا تحاول إقحامهم في الأمر.

– أنت من أقحمتهم. ولا تنسى فأنا عمك.

– لا داعي لأن تذكرني، فلم أفقد عقلي بعد.

– أظنك فقدته، وإلا لما رفضت وظيفتك الجديدة.

– هناك الكثير من الطامعين. ما رأيك أن تعطيها لأورهان، وبذا لن تذهب الوظيفة إلى شخص غريب.

يخرج عمي عن طوره إزاء لامبالاتي وسخريتي، ويبدأ في الصراح حانقاً:

– عليك اللعنة، أنت من قام بتوريطنا في هذه المصيبة، وبدل مساعدتي في التخلص منها، ما زالت تصب الزيت على النار عمداً.

– وما العمل؟ فهذه طبيعتي. إن لم يناسبك الأمر تستطيع التبرؤ مني.

– لقد فعلت ذلك منذ مدة طويلة. اذهب وافعل ما شئت، ولكن إياك أن تلجأ إليّ حين الحاجة.

– لا تقلق، فلن أفعل. – أقولها وأنهض مغادراً الغرفة.

الفصل الثالث والعشرون

أصل قبل عشر دقائق من الموعد المحدد إلى فندق لندن. وما إن أدخل حتى تتجه نظراتي نحو البهو، ولكنني لا أجد متين هناك. فألتفت خلفاً حيث أصوات السكاكين والشوك، ويخطر لي أنه يتناول فطوره، ولكن نظرات موظف الاستقبال التي ترمقني، تدفعني نحوه وأنا أسأله عن السيد متين

– هل أنت السيد سِدات؟ – يستوضح الشاب.

– أجل.

– السيد متين ينتظرك في غرفته؛ الطابق الثالث، الغرفة رقم تسعة وثلاثون.

أستغرب عدم نزوله إلى البهو، ولكنني أتجه نحو السلالم الواسعة المغطاة بسجاد أحمر، وأبدأ بالصعود. وحين أصل أمام باب غرفته السكري اللون، يُفتح من تلقاء نفسه. ويطل متين برأسه من الباب، وحين يراني يختفي القلق من وجهه ويشير بيده وهو يدعوني للدخول:

– أهلاً، تفضل بالدخول.

لا أفهم سبب القلق البادي على تصرفه، ولكنني أدخل إلى الغرفة التي هي أضيق مما تبدو عليه من الخارج. قبالتي نافذة قد احتلت الحائط برمته وهي تطل على الخليج، وفي المنتصف السرير. وفيما أبحث عن مكان للجلوس، يقفل متين الباب ويتجه إليّ.

– تفضل بالجلوس على الأريكة التي أمام النافذة. وأنا سأجلس على الكرسي قبالتك.

أراقب الخليج لوهلة قبل الجلوس، فيما يجر متين كرسيه ليجلس قبالتي.

– إطلالة غرفتك جميلة حقاً. – أعلّق.

فينظر نحو النافذة بدوره وهو يقول:

– إنها أشبه ببحيرة منها بالبحر.

إنه محق فيما يقوله، فبسبب تراكم الأبنية على امتداد ضفتي الخليج، من المتعذر رؤية بداية اتصاله بالبحر، ونهايته. حتى أصبح أقرب لبقعة مائية نحيلة.

– ورغم ذلك فهو جميل. – أقول.

– أنت محق. – ومن ثم يدخل في صلب الموضوع – أعتذر لأنني قمت باستدعائك إلى الغرفة، ولكنني شعرت بأنها أكثر أماناً لكي نتحدث دون قلق.

– وهل هناك من سبب للقلق؟ – أسأله مستغرباً.

– إنهم يراقبونني، وهناك شخص يلاحقني على الدوام.

لا بدّ أنهم رجال عمي، لذا عليّ القيام بتهدئته قليلاً.

– أظنك مخطئاً، فمن سيقوم بمراقبتك؟

– لا لست مخطئاً، فقد التقيت بهم، وقاموا بتهديدي حين قابلت سيلين.

– هل يراقبونها هي الأخرى؟ أليست برفقة عائلتها؟

– أجل، وهم يقومون بحمايتها، حتى أنهم رفضوا أن ألتقي بها. وقد قمت بكافة الألاعيب والحيل فقط لأبادل المسكينة بضع كلمات لا أكثر. ففي البداية توجهت إلى السفارة للتحدث مع والدها، ورغم أنه رجل دائم الانشغال، لكنه خصص لي بعضاً من وقته. وعبّر عن أسفه الشديد لما ألمّ بمينة، كما أخبرني بأن

سيلين لا تعرف شيئاً عن الحادثة، وقد أفضت بكل ما لديها للشرطة، وأنها تعرضت لصدمة قاسية حين علمت بما جرى لصديقتها، وهي تبكي على الدوام إن تحدث أحدهم في الأمر أمامها، وتعاني من مخاوف لا مبرر لها وترفض تناول الطعام، وبالتالي فهو يخشى من تدهور حالتها النفسية، وقد أوضح لي أنه لا ينوي إرسالها إلى تركيا لمواصلة الجامعة هذا العام، حتى تتحسن حالتها.

– لن أطرح سوى سؤال أو اثنين لا أكثر. – قلت له.

– أعتذر منك، ولكن هذا غير ممكن.

ومن حسن الحظ أنني اصطحبت دفتر ملاحظتها معي، حيث يوجد عنوان منزل سيلين. وبعد أن تكبدت مشقة طويلة في العثور عليه، بدأت أتجول حول المكان، وكلي خوف أن يعتقد البعض أنني أنوي سرقة المنزل، ولكن انتظاري لم يطل كثيراً، حيث خرجت سيلين لتنزه كلبها. فلحقت بها، واقتربت منها بهدوء.

– وهل كنت تعرفها من قبل؟ – سألته.

– قامت هي ومينة بزيارتي الصيف الماضي في ألمانيا. ولهذا السبب تجرأت على محاولة التحدث إليها. وحين ألقيت عليها التحية لم تتعرف المسكينة عليّ، وخافت، فقلت لها:

– لا تخافي، أنا متين والد مينة.

وحين عرفتني كادت أن تجهش بالبكاء في وسط الطريق.

– أنا متأسفة كثيراً لما حصل عم متين. – قالت لي مواسية.

– ما الذي حصل لمينة يا ابنتي؟ أين اختفت هذه الفتاة؟

فأشاحت بنظراتها عني وهي تقول:

– أنا لا أعرف شيئاً.

– ولكنك أقرب صديقاتها، ألم تخبرك قبل اختفائها عن نيتها في الذهاب إلى مكان ما أو أي شيء من هذا القبيل.

– لا أعرف. – وبدت وكأنها تحاول التهرب مني، حينها أدركت أنها تخفي عني أمراً ما.

– أعدك يا بنتي أنني سأحرص على ألا يلحق بك أي أذى. ولن أطلع أحداً على ما ستقولينه لي. ولكن أرجوك أخبريني بما لديك.

نظرت إليّ لوهلة قبل أن تعترف:

– هناك أمر ما، ولكنني لست متأكدة.

– ما هو؟ – سألتها.

– لقد كانت مينة حاملاً. – واحمر وجهها.

– حامل؟ – تساءلت وقد صدمني الخبر.

– أتصدق أمراً كهذا؟ فتاة في بداية العشرينات من عمرها، ليست مخطوبة أو متزوجة، ولكنها حامل. لقد تفوقنا على الألمان في هذه الأمور، ولم يعد من فرق بيننا على الإطلاق. – يصمت لبرهة وهو يحدق إلى وجهي كمن ينتظر مني تعليقاً، ولكنه يواصل سرد قصته إزاء صمتي – بالطبع لم أصدق، وسألتها مجدداً:

– هل أنت متأكدة يا ابنتي؟

– هي من أخبرتني بذلك. – ردتْ عليّ.

– وهل هي حامل من فخري؟ – حاولت الاستيضاح أكثر.

هل يحاول هذا الرجل التلميح لأمر ما من خلال سرد كل هذه التفاصيل عليّ؟ فأدقق النظر في وجهه، ولكن نظراته خالية من أي اتهامات أو شكوك نحوي، فيما يكمل حديثه:

– إلا أنها أخبرتني بأن الطفل ليس لفخري. فقد كانت على علاقة بشخص آخر، حيث انفصلا منذ ما يقارب الشهر، وأنه والد الجنين. يا إلهي! كانت برفقة شخص آخر منذ شهر، وارتبطت بفخري، ولكن الذنب ذنب أمها التي لا تعتني بابنتها كما يجب. ولا أنفي أنني قد قصرّت في واجبي اتجاهها أيضاً.

– ومن يكون هذا الرجل؟ – أسأله في فضول مصطنع.

– أخبرتني أنها لا تعرفه. – يجيب متين ومن ثم يواصل – ولكنها تعرفه. إلا أنني لم أرغب في الإصرار أكثر حتى لا تخاف مني. أيعقل أنّ هذا الرجل قام بخطفها بسبب الغيرة، وهو يحتجزها في مكان ما؟

– هل أخبرتك سيلين شيئاً عن هذا الرجل؟

– لقد أكدت لي أنّ الرجل لن يقوم بإلحاق الأذى بها، فهي لم تذكره بسوء على الإطلاق أمامها. ولكنها تحدثت عن احتمال آخر، وهو تعرضها لمكروه أثناء عملية الإجهاض التي كانت تنوي إجراءها. كما أخبرتني بأنّ مينة لم تكن تنوي إجراء العملية في تركيا. وفي اليوم الذي سافرت فيه سيلين إلى إيطاليا، اتصلت بها مينة – حيث من المفترض أنها سترافقها إلى المطار – واعتذرت عن مرافقتها بسبب النزف الذي أصابها، وأنها تنوي الذهاب إلى الطبيب. فهناك ممرضة اسمها غولي زار تعمل في مشفى زينب كامل، وهي صديقة لفخري، وقد اتصلت بها مينة، حيث طلبت منها الممرضة الذهاب إليها على الفور لعرضها على طبيب توليد اسمه صالح، وادعت أنه خبير في مثل هذه المشاكل. وقد عرضت عليها سيلين تأجيل الرحلة من أجل مرافقتها إلى الطبيب، ولكن مينة رفضت ذلك، وأخبرتها أنه أمر

مكتبة

عابر لا يستدعي القلق.

ورغم أنّ سيلين وصلت إلى إيطاليا في وقت متأخر من الليل، لكنها اتصلت بمينة للاطمئنان عليها، فردت عليها مبتهجة، وأخبرتها أنّها ذهبت إلى الممرضة التي عرضتها على طبيب آخر، لأن الطبيب صالح لم يكن موجوداً في المشفى حينها. حيث فحصها الطبيب، وأخبرها أنه مجرد نزف بسيط، سيتوقف من تلقاء نفسه إن ارتاحت قليلاً، وتوقف عن القيام بأي عمل مجهد، وقد توقف النزف بالفعل بحسب ما أخبرتها.

فارتاحت سيلين لدى سماع هذا الكلام، وحين اتصلت بها في اليوم التالي، لم تكن مينة في المنزل، ومن ثم علمت بنبأ اختفائها، وقد سألتني حينها إن كان للأمر علاقة بتدهور صحي مفاجئ، جعلها تذهب إلى المشفى.

– ربما. – أجبتها، بعد أن أخذت منها اسم الممرضة والطبيب، ولكن هدفي الحقيقي كان معرفة اسم الرجل الآخر والوصول إليه. وبينما أفكر في طريقة لإقناعها دون إثارة خوفها، وجدت نفسي أتعثر، وأسقط على وجهي، ومن ثم رفعني شخصان ضخمان عن الأرض، وقد صرخ أحدهما في وجهي:

– لما تقوم بإزعاج الآنسة؟ ومن ثم قاما بجري إلى الحائط المجاور، وبعد أن أخذت سيلين تصرخ فيهما أن يدعاني وشأني. قاما بإنزالي. ولكنهما هدداني بعدم الاقتراب منها مرة أخرى، فابتعدت مجبراً. ولكن ما رأيك حول ما أخبرتني به عن الممرضة والطبيب؟ هل سيساعدنا معرفة اسميهما في شيء؟

– سيساعدنا كثيراً. – أؤكد له – فلقد علمنا مؤخراً بأنها كانت حاملاً، ولم نعرف إلى أي مشفى قد ذهبت. ومن الجيد أنك تمكنت من الحصول على هذه المعلومات. ولكن ما يثير استغرابي هو عدم إخبار سيلين الشرطة بكل ذلك.

– لقد خافت المسكينة كثيراً. – يوضح متين – كما أنّ عائلتها تهوّل

الموضوع، فبعد اختفاء مينة، ومقتل فخري، أصابهم الذعر. وأكثر ما أثار قلقهم هو انخراط الفتاتين في نشاطات سياسية ممنوعة، بتشجيع من فخري الذي اتضح أنه كان سجيناً سياسياً سابقاً. وأظنّ أنّ أحدهم قد لمح بهذا الاحتمال أمام والدها؛ الذي هو رجل واسع النفوذ، ومن المحتمل أنه كلف أحداً ما بمراقبتي هنا أيضاً.

– لا أظنّ ذلك، فكل ما يسعى إليه هو حماية ابنته، وهو يستطيع فعل ذلك في إيطاليا أكثر من هنا، وهذا ما دفعه إلى عدم إرسالها إلى تركيا لإتمام جامعتها هذا العام. ولكنني لا أعتقد أنه سيقوم بملاحقتك أو التسبب في مضايقتك، فلا تخشى شيئاً.

– حسناً، وهل سنعثر على هذا الرجل؟

– أي رجل؟ – أتغافل عن مقصده.

– حبيبها السابق.

– سنبحث عنه، ولكن عليّ أولاً مقابلة الطبيب صالح الذي يعمل في مشفى زينب صالح.

– وهل يمكنني الذهاب معك؟

– للأسف لا يمكنك ذلك، يمنع على المدنيين حضور التحقيقات. كما أنك فعلت الكثير من أجل مساعدتنا، شكراً لك.

– إنها مشكلتي، وعليّ العثور على ابنتي بأي طريقة. – ثم يصمت لبرهة وهو يرمقني قبل أن يضيف – أود سؤالك عن أمر ما، فقد سمعت أنّ العائلات التي اختفى أحد من أبنائها، تنظّم تجمعاً أمام ثانوية غالاتا سراي في تقسيم، ما رأيك لو كبّرت صورة مينة، وذهبت للانضمام إليهم؟

– من الذي اقترح عليك هذا الأمر؟ – أسأله في ارتياب.

– لا أحد، قرأت عن الخبر في الجريدة.

– لا أظنك ستحصل على أي نتيجة. كما أنّ معظم هذه التجمعات ذات طابع سياسي، تنظمها جهات معادية لسياسة الدولة في مكافحة الإرهاب. وأقترح عليك الانتظار.

– لم أفعل شيئاً سوى الانتظار حتى الآن. ولكنني لم أصل إلى أي نتيجة.

– عليك التحلي بالصبر. – أقول له – فهذه القضايا أكثر تعقيداً مما تظن.

الفصل الرابع والعشرون

لا يصعب العثور على الطبيب صالح، في المشفى الذي تضج ممراته بولولة النساء المريضات اللواتي تتحركن في كافة الاتجاهات جيئة وذهاباً. تخبرني الممرضة العجوز، أن عيادته ثالث غرفة على يسار الممر في الطابق الثاني، حيث يستقبل المريضات. ويتضح أنه طبيب مشهور، فغرفة الانتظار مليئة بالنساء حتى التخمة. لو انتظرت فمن المؤكد أنّ الدور لن يصلني حتى المساء، لذا أقترب من الممرضة التي تدوّن معلومات المريضات على دفترها بوجه عابس. وأريها بطاقتي الأمنية وأنا أقول:

– أنا محقق في الشرطة، وأريد مقابلة الطبيب لأمر مهم.

ترمقني الممرضة من خلف رموشها – التي طلتها بطبقات من الماسكرة حتى باتت تعاني في تحريكها، لثقلها والتصاقها ببعضها البعض – بضيق واضح، وكأنها تقول لي: ومن أين خرجت أنت الآخر في هذه المعمعة؟

– يجب عليّ إخباره أولاً. – تقول.

– إذاً افعلي ذلك، ولا تنسي أن تخبريه أنّ الأمر في غاية الأهمية.

تدخل الممرضة، فيما ترمقني النسوة من حولي شزراً. وأفكر في استحالة المغامرة والجلوس معهن ولو لدقائق.

– هل لديك مريض؟ – تسألني المرأة الخمسينية النحيلة، والجالسة بالقرب من الطاولة.

– لا، لست هنا لأجل مريض. سأقابل الطبيب لشأن آخر، ولكن لا داع للقلق، فلن يطول الأمر كثيراً.

– مثل هذه الأمور لا يجب القيام بها أثناء ساعات الدوام. لا يحق لهم أن يهدروا وقتنا هكذا. – تقول إحداهن بامتعاض.

ولكنني أتغافل عن اعتراضها، رغم ارتفاع همهمة حشد الغاضبات من حولي. ولحسن حظي أنّ الممرضة تخرج بسرعة وتقول لي:

– الطبيب في انتظارك.

وفيما تخرج إحدى المريضات، أدخل غرفة الطبيب، وأنا أسمع الهمهمة ترتفع من خلفي، وصوت الممرضة وهي تعنفهن ليسكتن.

يجلس الطبيب صالح الأربعيني، بادي الوسامة خلف طاولة صغيرة، ورغم تعبه الواضح لكنه يسألني بفضول:

– كيف لي أن أساعدك؟

– أريد بعض المعلومات عن إحدى المريضات. – أوضح له.

يظهر عليه الضيق لوهلة قبل أن يقول:

– هل لي برؤية بطاقتك؟

أخرج محفظتي وأفتحها أمامه، فيلقي عليها نظرة عابرة قبل أن يقول:

– تفضل بالجلوس، هل هي إحدى مريضاتي؟

– لست متأكداً من ذلك. اسمها مينة.

– علينا مراجعة السجلات إذاً.

– لا أعتقد وجود اسمها في السجلات، فقد جاءت إليك برفقة ممرضة اسمها غولي زار.

تتغير ملامحه على الفور. فأسأله:

– هل من مشكلة؟

– ومتى جاءت هذه المريضة؟ – يسألني في برود.

– منذ حوالي الشهر تقريباً، لما تسأل؟

– لقد ماتت الممرضة غولي زار، وكان عليك أن تعرف ذلك.

– ولما عليّ معرفة الأمر؟

– لأنها قتلت على يد الشرطة.

– الشرطة؟

– أجل، في عملية الاقتحام لأحد منازل أوسكودار.

يا للهول! كيف لم ألحظ الأمر؟ فالممرضة التي قتلت تلك الليلة كان اسمها غولي زار أيضاً.

– لقد تذكرت الحادثة. – أقول في لباقة – ولكنني لم أكن أعلم أنها ذات الممرضة التي قُتلت حينها، وأظنّ مينة جاءت معها قبل الحادثة، أنظر هذه هي صورتها. – وأعطيه الصورة التي أخرجها من محفظتي.

يأخذ الصورة وينظر إليها مدققاً.

– لقد رأيتها. – يقول في ثقة – أحضرتها غولي زار إليّ. ربما لهذا لا زلت أتذكر وجهها جيداً، فقد قتلت غولي زار في اليوم الذي جاءت فيه هذه الفتاة.

– هل أنت متأكد أنها قتلت في اليوم نفسه الذي زارتك فيه الفتاة؟

– بالطبع متأكد. وأذكر جيداً أننا كنا على وشك الانتهاء من الدوام، كانت حاملاً وتعاني من النزف. كما أنها جاءت في اليوم السابق، حيث فحصها أحد زملائي لأنني لم أكن في المشفى حينها وأخبرها أنّ وضعها بخير، ولكنها عادت في اليوم التالي لاستمرار النزف. وقد فحصتها، ورغم أنّ النزف لم يكن قوياً، ولكنني خشيت من أن تجهض الجنين، وأخبرتها بأنه من الأفضل إجراء عملية الكورتاج، إلا أنها رفضت قائلة إنها تنوي السفر إلى ألمانيا بعد أسبوع، من أجل إجرائها هناك، فلم تكن مرتاحة لفكرة إجهاض الطفل في تركيا. ولأن وضعها لم يكن خطراً، لم أحاول الإلحاح أكثر، ولكنني أخبرتها بضرورة المجيء في الغد إن استمر النزف، لأنّ الإجهاض سيصبح ضرورياً حينها، وقد وافقت. ولا بدّ أنّ النزف قد توقف، لأنها لم تأتِ في اليوم التالي، وفي تلك الليلة قتلت غولي زار.

أتذكر ما قالته سيلين لمتين، حين اتصلتْ بمينة في اليوم التالي، ولكنها لم تكن في المنزل، إذ إنها جاءت إلى المشفى حينها، وقام صالح بفحصها. أي في ذات اليوم الذي قمنا فيه باقتحام منزل أوسكودار؛ منزل غولي زار. يا إلهي! أيعقل أنّ مينة كانت في ذلك المنزل أيضاً؟ لا لا. أحاول إبعاد هذه الفكرة الجنونية عن ذهني. فما الذي سيجعلها تذهب إلى هناك؟

– لقد كان قتلها خطأً يستحيل الرجوع عنه. – يقول الطبيب غافلاً عن العاصفة التي أطاحت بيّ فجأة – فهي لم تكن إرهابية، كل ما في الأمر أنها سجنت لفترة قصيرة وخرجت.

يبدو أنّ الطبيب الذي لا يزال غاضباً بسبب الخطأ الذي يستحيل الرجوع عنه، ويحاول الآن الانتقام مني وهو يلقي على مسامعي محاضرة ساخطة، تدخل كلماتها من أذني لتخرج من الأخرى دون أن أفهم ما يقوله.

وماذا لو عرضت غولي زار على مينة أن تبيت عندها تلك الليلة خوفاً من اشتداد النزف؟ لا أظنها قد وافقت، فهي لم تكن تحب النوم في منزل أشخاص

غرباء، إلا أنها بالمقابل كانت حريصة جداً على صحتها، لذا فمن المحتمل أنها لم ترغب بقضاء تلك الليلة العصيبة بمفردها، بل فضلت البقاء مع ممرضة، خاصة وأنّ منزلها قريب من المشفى.

– غولي زار لم تقم بالاعتداء على أحد أو قتله – يواصل الطبيب سرده منفعلاً – بل العكس كانت تساعد على قدوم أطفال أصحاء إلى هذا العالم.

ألم تكن غولي زار تعلم بلجوء الإرهابيين إلى منزلها؟ بحسب ما أخبرني به ناجي، فقد وصلوا إلى المنزل مع حلول المساء. إذاً فهي لم تكن تعلم بأمرهم من قبل، وإلا لما دعت مينة إلى منزلها تلك الليلة.

تتبدد الاحتمالات الجهنمية من ذهني مع صوت الطبيب الذي يواصل الحديث:

– فجزاء إيواء أحد الإرهابيين لا يمكن أن يكون القتل. يجب أن تكون هناك وسيلة أخرى للقبض على الناس، من دون قتلهم.

ربما شاهدهما وهما تخرجان كل واحدة على حدة، إنه احتمال وارد قد ينهي هذا الكابوس.

– هل غادرتا المشفى معاً؟ – أسأله في اضطراب واضح.

ولكنه بدل الإجابة عن سؤالي، ينظر إليّ بإمعان وقد اختفى غضبه وانفعاله، ليسألني:

– هل أنت بخير، يبدو وجهك شديد الشحوب؟ سأحضر لك كأساً من الماء.

– شكرا لا أريد، ولكن أرجو أن تخبرني إن كنت قد شاهدتهما تغادران

سوية؟

يحاول التذكر:

– كنا في نهاية الدوام، وقد أكون مخطئاً، لكنني رأيتهما تتحدثان سوية وهما تغادران معاً.

– يا إلهي. – أتمتم – إذاً فقد كانت مينة في منزل غولي زار تلك الليلة.

– ماذا قلت؟ – يسألني الطبيب.

– لا شيء، يجب عليّ الذهاب الآن.

ولكنه يرمقني مستغرباً ما حلّ بي، ونهوضي المفاجئ.

وفيما أخرج من العيادة، يصلني صوت الممرضة وهي تنادي على إحدى السيدات التي حان دورها للدخول. فأسرع الخطى للتخلص من هذا الصخب النسائي، بينما ذهني منشغل باستحضار وقائع تلك الليلة في أوسكودار، حيث الصور تعود للمثول أمام عيني بدقة تثير الدهشة. أرى ضوء النوافذ الأبيض وهو يسقط على حديقة المنزل الخلفية، معتمة الزوايا، حيث يهرب ظلان قاتمان وسط الضباب.

– ألا ترى يا هذا؟ – تصرخ المرأة البدينة التي ارتطمت بها في الممر. فيشتت صوتها أفكاري لوهلة قصيرة، ومن ثم تعود صور ذينك الظلّين الهاربين للظهور في مخيلتي.

كنت ومصطفى واقفين في الحديقة الخلفية، حيث كان يكور يديه وينفخ فيهما كل قليل، بسبب البرد. وأذكر أنني كنت أشتهي سيجارة، ولكنني لا أستطيع إشعالها في تلك الظروف، بينما أراقب المنزل من خلال الضوء الأبيض الشاحب

المناسب إلى الخارج. كان الهدوء مخيماً، وقد لاحظت أحد الظلين الهاربين وأنا أرفع رأسي مجدداً نحو النافذة، حين كان يتسلل مسرعاً خلف الشجرة الكبيرة، ليلحق به ظل آخر. وضعت يدي على الزناد، وأنا أشير لمصطفى أن ينبطح أرضاً، فيما تتراقص الظلال في ضباب الليل كأشباح. أتلمس الزناد مرة أخرى، وأطلق ثلاث رصاصات، تليها رصاصتان أيضاً، فيبادلونني إطلاق النار، لتنهمر علينا الرصاصات وسط الظلام، حيث نبقى أنا ومصطفى قابعين على الأرض لمدة من الزمن، وفي هذه الأثناء تصلنا أصوات إطلاق النار من داخل البيت أيضاً. ينهض كلانا ونبدأ بملاحقة الظلال التي اختفت وسط الأزقة دون أثر، سوى بقع الدماء التي نراها فيما بعد، فأدرك أنني تمكنت من إصابة أحدهما، ولكن أيعقل أنّ مينة هي التي أصيبت؟

يستقبلني نسيم رطب حين أخرج من باب المشفى، حيث بدأ مطر خفيف كالرذاذ بالتساقط، فيستهويني السير تحت المطر. أشعر أنّ القطرات المنهمرة على وجهي ستتمكن من إبعاد هذه الأفكار الجنونية عن رأسي، لذا أبدأ بالسير في تمهل مستسلماً لهذه الفكرة الغريبة، حتى أطيل الطريق قدر المستطاع قبل بلوغي السيارة.

أشعل سيجارة وأنا جالس خلف المقود، محاولاً لململة أفكاري، وإبعاد المخاوف، ولكنني أعجز عن ذلك فصور تلك الليلة تحاصر ذاكرتي في وضوح لا أستطيع التهرب منه.

في تلك الليلة لم نتمكن من القبض على الهاربين، ولكن بعد يومين تمّ قتل أحدهما في اشتباك وقع في إحدى منازل منطقة بالموجو. ولكن كل هذا لا يثبت أي شيء، فمن المرجح أنهما فضلا الاختباء في مكانين مختلفين. حيث تمكنت الشرطة من تحديد موقع أحدهما، فيما ظلّ الآخر مختفيا في مكان ما حتى يطيب جرحه، وماذا لو أنه مات؟ حينها كانت الجثة ستظهر بكل تأكيد، فلما سيتكبدون عناء إخفاء جثة، على العكس من ذلك، فهم حريصون على المبالغة في عدد القتلى لاستخدامهم كمادة دعائية من أجل محاربتنا. ولكن ماذا لو كانت مينة هي التي

قتلت؟

عليّ التحلي بالهدوء أولاً وترتيب الأحداث بتسلسل منطقي في ذهني، وكأنني لست الشخص الذي أطلق النار تلك الليلة.

حسناً، فلنبدأ من البداية، أمن الممكن أنّ مينة ذهبت إلى ذلك المنزل؟ لنفترض أنها فعلت، ولكنها حين رأت كل أولئك الغرباء هناك، عدّلت عن البقاء. فعرض عليها أحد الموجودين مرافقتها حتى موقف سيارة الأجرة. لا، لا يبدو الأمر منطقياً، لأنهما كانا سيلاحظان الشرطة تحيط بالمنزل حينها. لا بدّ من وجود سبب دفعهما للتسلسل من الزقاق الخلفي، وعدم خروجهما من الباب الرئيسي. أجل هناك سبب منطقي لهذا التصرف.

في تلك الأثناء أتمكن من رؤيتهما، فأبدأ بإطلاق النار وتصاب مينة، ولكنها تستطيع مواصلة السير، والابتعاد عن المكان. حيث يستقلان سيارة ما، ولكن ألم يكن جرحها ينزف؟ لنفترض أنها أصيبت في مكان ما لا يسبب الكثير من النزف، وهو أمر وارد الحدوث. ولكن لما لم يقم رفيقهما بمحاولة إيصالها إلى المشفى؟ فهي ليست من التنظيم، وما من سبب يدفعها للاختباء من الشرطة. ربما خافت ولم ترغب بالذهاب إلى المشفى. حسناً، إلى أين يمكن لها أن تذهب؟ كان بإمكانها الاتصال بي، ولكن ماذا لو رأتني حين أطلقت النار عليها؟ واعتقدت أنني تعمدت قتلها؟ أيعقل أن يخطر لها أمر كهذا؟ لما لا وهي ترى الرصاص ينهمر فوقها؟ لا بدّ أنها أصيبت بالذعر حين رأت الرجل الذي أحبته فيما مضى، وهو يحاول قتلها، خاصة وأنّني عاملتها بقسوة في آخر لقاء بيننا.

ولا أظن أنّ رفيقها حاول أخذها إلى أحد البيوت العائدة للتنظيم، فهو ليس مجبراً على تحمل هذه المسؤولية. فربما يتم القبض عليها بعد فترة، وتفضي للشرطة بمكان اختبائهم وبكل ما عرفته من معلومات عنهم. إذاً لا بدّ أنه قد سألها عن المكان الذي تريد الذهاب إليه. ولكن إلى أين ستذهب مينة؟ إلى والدتها مثلاً؟

ولكننا نسكن في العمارة ذاتها، وإن كانت قد شاهدتني تلك الليلة فمن المحال أن تقترب من منزل والدتها. ألم تفكر في الذهاب إلى منزلها حيث ستساعدها المدام؟ ولكنها لم تفعل.

ومن المحتمل أنّ رفيقها خاطر بأخذها إلى أحد منازل التنظيم حتى تتعافى، ولكن زملاءه المقيمين هناك لم يشعروا بالارتياح من وجودها، وخافوا أن تشي بهم، فظلوا يحتجزونها لديهم حتى بعد شفائها. أجل إنه احتمال وارد الحدوث.

والاحتمال الأخير هو أنها ماتت. ولكن أين الجثة؟ ربما حاول أعضاء التنظيم إخفائها، من أجل حماية من كانوا برفقتها، ولكنهم جميعاً قتلوا، فلما سيقدمون على ذلك؟ ولو أنها ماتت أثناء وجودها معهم، سيضعون الجثة في مكان ظاهر، ويتهمون الشرطة بقتل المدنيين وتصفيتهم عمداً ودون محاكمة. لا، فحتى لو رافقتهم فاحتمال موتها ضعيف جداً. إذاً ما زال بإمكاني التمسك بأمل بقائها على قيد الحياة. ولكن إلى متى؟ فجأة يخطر لي احتمال آخر، فلو أنهم قاموا باحتجازها في أحد منازل التنظيم، فربما قتلت في مداهمة أخرى من المداهمات التي تقوم بها الشرطة. إذاً يجب عليّ الذهاب والتحدث مع ناجي. أدير المفتاح ويبدأ محرك السيارة بالعمل، أجل فإن كانت محتجزة في أحد منازلهم، فهو الوحيد الذي يمكنني الاعتماد عليه لإيجادها.

الفصل الخامس والعشرون

أعثر على ناجي في أحد مكاتب الشعبة الأولى وهو جالس مع بضعة محامين، يتباحثون حول جلسة المحاكمة التي اقترب موعدها. وقد خفّ القلق الذي كان يعتريه سابقاً، وعلا وجهه تعبير عدائي.

يخبرني بأنّ وزير الداخلية شخصياً اتصل به، وأخبره أنّ القضية لن تفضي إلى أي نتيجة، وأنه يعمل بنفسه على حماية عناصر الشرطة الذين يخاطرون بحياتهم من أجل القضاء على الإرهابيين، وهذا الأمر رفع من معنوياته كثيراً، فقد شعر أنه لم يعد وحيداً في مواجهة الأمر.

وبعد أن ينهي حديثه، أخبره بالمعلومات التي حصلت عليها، من دون أن أشير إلى علاقتي الشخصية بمينة. فيستمع إليّ ذاهلاً، ليعلق بعدهابالقول:

– برأيي أنّ تلك الفتاة ليست في أحد منازل التنظيم.

– كيف لك أن تكون واثقاً إلى هذه الدرجة؟ – أسأله.

– مضى على ملاحقتي لهذا التنظيم أكثر من خمس سنوات، وقد حققت مع مختلف فئات عناصره، ابتداءً من المراهقين المنضويين تحت لوائه ممن يدفعهم الحماس والشعارات الثورية الطنانة إلى ارتكاب الحماقات، وحتى أشخاص في مراحل متقدمة من العمر، يحتلون مراكز حساسة في قيادة التنظيم. راقبت تصرفاتهم، قمت بملاحقتهم، واشتبكت معهم كثيراً، وأؤكد لك أننا لا نواجه ثلة من الشباب الثوري المتحمس لنصرة الحق وإنهاء الظلم كما يدّعون، بل تنظيماً أصبح يملك خبرة رهيبة في فنون القتل، وهم يطبقونها من دون أن يرفّ لهم جفن، بل ويزدادون خبرة مع

مرور الوقت، ومن المحال أن يقوم الشاب الذي هربت برفقته، بأخذها إلى أحد منازل التنظيم. وأنا متسعد لمراهنتك على أي شيء تريد.

– ربما بسبب انفعاله وتأثره أثناء الاشتباك، ورؤية إصابتها، أشفق عليها وقام...

– مستحيل. – يقاطعني بنبرة واثقة – فهم لن يقدموا على فعل ذلك، ولن يخاطر بمصير زملائه لإنقاذ حياة فتاة لا يعرفها قبلاً.

– لنفترض أنه فعل ذلك، وحين وصوله اعترض زملاءه على وجود الفتاة، ولكنها أصبحت هناك ولم يعد بإمكانهم فعل شيء.

– رغم أنه احتمال غير وارد، ولكن لنفترض أنه وقع بالفعل، فلن يسمحوا لها بالبقاء معهم، لا أدّعي أنهم سيقومون بقتلها، ولكنهم سيحتجزونها هناك حتى ضمان سلامتهم. وأكرر لك بأنه احتمال ضعيف جداً.

– إذاً ما الذي حدث لها؟

– ماتت، فقد اخترقت جسدها رصاصة من عيار تسعة ميليمترات، وما لم تكن قد أصابت ذراعها مثلاً، فهي ستسبب أضرار وخيمة فيجسدها.

– ولكنها تمكنت من الهرب بعد إصابتها.

– أجل لقد فعلت، وربما ظلت لبعض الوقت قادرة على الحركة أيضاً، ولكنها بالتأكيد ستسقط ميتة بعد وقت ليس بالطويل، وأنت مطلع على حوادث من هذا النوع.

– ولكن الجثة لم تظهر حتى الآن.

– ربما تمّ دفنها.

– ومن سيقوم بخطوة خطرة كهذه؟

يحدق إليّ لبرهة قبل أن يجيب:

– أنت محق، فما من أحد سيقدم على هذه المخاطرة.

– ولهذا السبب بالذات، أعتقد بأنّ الفتاة محتجزة لديهم.

يهزّ رأسه وهو يفكر.

– ولكننا حتى الآن لم نعثر على أحد منازل التنظيم، فقد كانت المداهمة الأخيرة ضربة قوية ضعضعت قواهم.

– أتعني أنه لم يتبق لهم منازل للاختباء فيها؟

– ليتني أعلم، ولكننا لا نملك أي معلومات في الوقت الحالي. ولا أنفي بالطبع وجود مخابئ سرية لا نعلم بأمرها، فكما أخبرتك لقد اكتسبوا خبرة مخيفة، وهم يتواصلون مع بعض القوى في الخارج، وينتقلون من مقر لآخر حين اكتشاف أمرهم، وبذا يتجدد نشاطهم. ولكنهم بعض الضربة الأخيرة سيحتاجون إلى الكثير من الوقت من أجل لململة قواهم ثانية. وإن كان ما تفكر فيه صحيحاً، فعليك الانتظار بصبر حتى تتضح الأمور.

– لا مانع لديّ من الانتظار، ولكنني سأطلب منك أمراً آخر، إن حصلتم على موقع أحد هذه المقرات، فلا تنفذوا عملية المداهمة دون إخطاري، فقد تكون مينة موجودة هناك.

– حسناً، لا تقلق لن ننطلق قبل اطلاعك على الأمر.

– شكراً لك.

– لا عليك يا صديقي. – وبعد أن يرمقني بنظرات عميقة لبعض الوقت

يسألني – هل يعنيك أمر هذه الفتاة كثيراً؟

– أكثر مما تتخيل، فهي بأهمية ابنتيّ.

لا يتطفل بسؤالي عن السبب بل يكتفي بالقول:

– لا تقلق، فربما لم تذهب إلى منزل الممرضة على الإطلاق.

– ربما، ولكن كيف لي أن أخبر والديها بما جرى؟

– كما أخبرتني للتو.

– حسناً، سأقول لهما: أعتذر منكما، ولكن من المحتمل أنني من أطلق النار عليها. أهذا ما عليّ قوله؟

– لست مجبراً على إخبارهم بهذه التفاصيل، على الأقل حتى العثور على الفتاة وعودتها سالمة.

الفصل السادس والعشرون

أجلس برفقة السيد متين وطليقته في الطابق الثاني لإحدى كافيتريات منطقة شيلي المطلة على الشارع العام، وأحاول تهدئة مخاوفهما، مصرحاً بأننا سنعثر على ابنتهما سالمة في أقرب وقت ممكن. كنت أخشى من إحضار سيفيم لزوجها جيهون أيضاً معها، ولكنها لحسن الحظ لم تفعل. وحتى في هذا الاجتماع الذي نناقش فيه مصير ابنتهما المفقودة، يفضل هذان الزوجان السابقان البقاء بعيدين عن بعضهما قدر المستطاع، فلا يتبادلان الحديث إلا للضرورة القصوى، وكل منهما يتجنب النظر إلى الآخر. وبحسب ما أخبرتني به مليكة، فقد تبادلا الاتهامات والشتائم حين علما بموضوع حمل مينة.

– لقد حصلنا على بعض المعلومات حول اختفاء مينة. – أقول. فيستمعان في انتباه شديد وصمت مطبق، وأنا أسرد على مسامعهما ما جرى، من دون التطرق إلى دوري في الأحداث. وفي نهاية الحديث أوضح لهما الاحتمالات التي تدور في ذهني، فيبدو عليهما الاقتناع بها.

– لم أكن أثق في ذلك المدعو فخري على الإطلاق. – تقول سيفيم – فلو لم تتعرف عليه، لما تعرضت لكل هذه المخاطر.

لكن متين لا يكيل أي اتهامات لأحد، بل يبدو منكمشاً على نفسه، وعلى وشك البكاء وهو يقول:

– يا لسوء الحظ، فما حصل لها لا يمكن توقعه حتى بعد مئة سنة من التفكير.

– لقد وقع الأمر. – أقول – وليس في وسعنا سوى التحلي بالصبر والتزام الهدوء. فلو صحّ ما أتوقعه، فهي ما زالت محتجزة في إحدى تلك المنازل السرية، وسنعيدها بكل تأكيد، لكننا نحتاج إلى المزيد من الوقت.

– وماذا لو قامت الشرطة بمداهمة ذلك المنزل وقتل ابنتنا ظناً منهم أنها من الإرهابيين؟ – يسألني متين.

– لا تقلق، فقد أخذنا هذا الاحتمال في الحسبان. – أجيبه مطمئِناً – فجميع وحدات الشرطة أصبحت على إطلاع بالأمر، وحين العثور على أحد هذه المنازل، سيتم إعلامي قبل القيام بأي خطوة.

ولكن كلماتي غير كافية لتهدئة مخاوفه، فيسأل مجدداً للتأكد أكثر:

– تعني أنه تمّ إعلام جميع الوحدات؟

– كن مطمئناً، فقد تم تبليغ الجميع من دون استثناء.

– شكراً لك سيد سِدات، فقد ساعدتنا كثيراً في هذه المشكلة. – تقول سيفيم.

– المهم الآن هو عودة مينة سالمة إلينا. – أجيبها.

– أنا واثقة من ذلك، أجل واثقة، فإحساس الأم لا يخيب في مثل هذه المواقف، ستعود ابنتي سالمة معافاة إلينا في أقرب وقت. – تقول سيفيم وقد تلاشت مخاوفها قليلاً، وبدت أكثر هدوءاً.

– بالطبع ستعود، ولكننا يجب أن نتحلى بالصبر، وننتظر. هذا كل ما أرجوه منكما.

– أنت محق. – يعلّق متين – علينا أن نتحلى بالشجاعة، وأن نولي ابنتنا

اهتماماً أكبر بعد عودتها – من الواضح أنّ كلماته هي تلميح مبطن لطليقته، ولكنه يواصل كلامه – سأتقاعد في الصيف، وسآخذ ابنتي ونعيش سوياً.

– ألم تتأخر بعض الشيء يا سيد متين؟ – تسأله سيفيم في حدة وتحدٍّ.

– ربما تأخرت قليلاً، ولكنك كنت معها طوال الوقت. – يجيبها في حدة أكبر.

– أرجوكما. – أتدخل لمنع الشجار الذي يلوح في كلماتهما وأنا أردف – في هذه الأوقات العصيبة يفترض بكما تقديم المساندة لبعضكما بدل الشجار وكيل الاتهامات.

ينتهي النقاش المحتدم بينهما، ويلتفت إليّ متين وهو يقول:

– لقد غادر المستأجر منزلي الذي في آتاكوي، لذا سأقوم بنقل أغراض مينة إلى هناك.

– ولما العجلة؟ – أسأله.

– لأنّ أشعة الشمس لا تدخل منزلها، وما لم يتمّ إيقاد المدفأة، فإن الرطوبة ستكتسح كل زاوية فيه، وتفسد كل شيء. كما أننا لسنا مجبرين على دفع الإيجار من دون سبب. فحين تعود مينة، سننتقل إلى منزلي في آتاكوي. كما أنّ المنطقة هناك أكثر أماناً.

– كان عليك فعل ذلك من قبل.

– أتظنني لم أفعل؟ ولكنها لم توافق على العيش هناك، لأن المكان بعيد عن جامعتها.

– حسناً، لا فائدة من تقليب الماضي والإساءة لبعضكما. وإن كانت

هذه رغبتك، تستطيع بالطبع أخذ حاجيتها في الوقت الذي تشاء، ولكن أرجو تتصل بي حين تقرر ذلك.

ينظر إليّ كلاهما مستغربين من طلبي هذا، فأجد نفسي مجبراً على تقديم التوضيح:

– ربما نتمكن من العثور على دليل غاب عن أنظارنا.

– بالطبع سأعلمك بالأمر، ففي الأسبوع القادم سيعود المستأجر لأخذ بقية حاجياته من منزلي، وبعدها سأقوم بنقل أغراض مينة. ربما سنتمكن من العثور عليها حتى ذلك الحين.

– أرجو أن يتحقق ذلك. – أقول له.

– سيتحقق ذلك. – تقول سيفيم وهي ترفع يديها مبتهلة – بإذن الله ستعود إلينا ابنتي الحبيبة سالمة معافاة.

تغمرنا نحن الثلاثة موجة لطيفة من التفاؤل.

ويعلّق متين قائلاً:

– وربما لم تذهب مينة إلى ذلك المنزل من الأساس. ربما هي برفقة أحد ما؛ ذلك الرجل الذي أخبرتني عنه صديقتها، حيث عرضها على طبيب أفضل، وهي الآن تقضي بعض الوقت في مكان ما لكي تستعيد عافيتها. وستعود إلينا خلال بضعة أيام.

أمعن النظر إلى عيني العجوز اللتين تبحثان عن أي بارقة أمل وأنا أقول:

– ربما.. ربما تعود إلينا فجأة.

الفصل السابع والعشرون

لكن مينة لا تعود. تمضي الأيام، ومع انقضاء كل يوم، تتقلص آمالنا أكثر فأكثر. أواصل الاتصال بناجي كل بضعة أيام، من دون طائل. أبحث في المستشفيات والمشارح، أشاهد أجساد الفتيات اللواتي تمّ قتلهن بالرصاص أو بطعنات سكين، اللواتي متن غرقاً، أو بحادث سيارة، ولكن أياً منهن لا تشبه الفتاة التي أبحث عنها، ولا أي واحدة. أحاول الحصول على المعلومات بنفسي وتقييمها من جديد، فأتحدث إلى موظفي المشرحة والعاملين في المشافي، ولكنني لا أتلقى سوى الجواب ذاته:

– لا، لم يحضروا إلينا فتاة بالمواصفات التي تتحدث عنها.

ورغم ذلك لا أتوقف عن البحث، وفي الأوقات التي لا أفعل ذلك، تطل أفعى سامة برأسها من أعماق مخاوفي، وهي تهمس لي بأنني من قتلها، فأشعر بالسم يحرق كل خلية من جسدي المنهك، ومهما أحاول الابتعاد والهرب، تظل هذه الفكرة تترصدني كعدو خفي سينقضّ عليّ في أي لحظة.

وفي بعض الأحيان وبعد أن ينال مني اليأس أقول لنفسي:

– حسناً، لقد قمت بإطلاق النار عليها. ها أنا أتقبل الأمر. ولكنني لم أتعمد ذلك، فلو كنت أعلم أنّ ذلك الظل الهارب وسط الضباب هو جسدها النحيل، لما قمت بإطلاق النار على الإطلاق، بل لفعلت المستحيل من أجل مساعدتها وحمايتها.

ولكن كل نواياي الحسنة، ومبرراتي المنطقية، لا تنفي حقيقة أنني قمت

بقتل الفتاة التي ملكت شغاف قلبي. حينها ألجأ إلى احتمال آخر، وأفترض أنها لم تذهب إلى ذلك المنزل، ولكن من المحال التحقق من الأمر، ما لم نعثر عليها حية أو ميتة. وبهذا أتمكن من إبعاد احتمال قتلي لها، حتى لا أصاب بالجنون.

ورغم أنّ مليكة هي أكثر من يعاني من التغييرات التي أصابتني، لكنها تحتفظ بصمتها من دون أن توجه لي أي سؤال. بل تراقبني بألمٍ وأنا أتجول هنا وهناك كالمسرنم. وبعد مرور أسبوع يتصل بي متين وهو يسألني:

– أهناك تطورات جديدة؟

وحين أجيبه بالنفي، يواصل في خيبة:

– سنقوم بنقل حاجيات مينة غداً، ربما تودّ الحضور.

– شكرا لك، سأفعل.

وبعد إغلاق السماعة، أشعر أنّ عدم ذهابي سيكون أفضل ليّ. فلما سأذهب إلى ذلك المكان؟ فاحتمال العثور على دليل هناك، ضعيف جداً. ولكن ذلك المنزل يعتبر بمثابة بيتي الثاني، وفيه العديد من الذكريات التي تخصني، وإن كانت مينة لا تستطيع التواجد أثناء إخلاء منزلها، فيجدر بي الذهاب عوضاً عنها.

يجافيني النوم حتى الصباح، وأنا أشعر بضرورة تقبلنا لفكرة غيابها، بل وحتى فكرة موتها. فها هم سيخلون منزلها أيضاً، وستختفي آثارها عن الأماكن التي عاشت فيها رويداً رويداً، وخلال وقت قصير تبدأ هذه الأفكار بأخذ أبعاد كابوسية في ذهني، وتتلاطم بعنف مطيحة بكل توازني المتبقي، فأتقلب في سريري ذات اليمين وذات الشمال دون طائل. أشعر بيقظة مليكة إلى جواري وهي تتحرك بخفة وتتنفس بهدوء، فأستغرب. لقد ظننتها خلدت للنوم منذ وقت طويل. تحتضنني بحنان بالغ، وعلى عكس ما أتوقعه، تمدني حرارة جسدها ببعض السكينة. تتجول

أصابعها بلطف على شعري ووجهي، وكأنها تفضي لي بمكنونات قلبها بهذه الملامسات اللطيفة بدل الكلمات. يشعل دفء أصابعها الحانية في قلبي ذكرى قديمة تحمل رائحة أمي، رائحة صديق قديم يمكنني الاحتماء به في لحظات ضعفي. تمتلئ عيناي بالدموع، لتخرج كل المخاوف والشكوك الغضب والألم الرهيب الذي أرزح تحت وطأته، والآمال التي ضاعت وسط ضباب ليلة ما. كلها تخرج دفعة واحدة، فأطلق العنان لنفسي، وأجهش في البكاء كما الأطفال، تضمني لحضنها بقوة أكبر. وبعد أن أهدأ قليلاً، تسألني بصوت محزون:

– هل ماتت مينة؟

– لا أعرف.

– أرجو أن تكون حية. – تقول وهي تمسح دموعي بأناملها، وكأنها تعلم بحقيقة مشاعري، لكنها تسامحني أياً كانت.

أنظر إليها في صمت، فتبدو لي أجمل تحت ضوء الفجر الذي بدأ بالبزوغ للتو. حينها أتأكد كم هي صادقة، وكم تحبني رغم كل شيء، أحتضنها بقوة فيما تمسد شعري بلطف، وأتأمل جسدها الذي حافظ على نضارته رغم إنجابها للتوأم، فأتذكر أنني لم أمارس معها الحب منذ خروجي من المشفى. وحين تلامس شفتاي شفتيها، أحسن بطعم الملوحة، فأدرك أنها مثلي كانت تبكي صامتة، تزداد رغبتي فيها ويلتحم جسدانا برغبة عارمة لم أشعر بها منذ زمن طويل.

حين ننتهي أشعر براحة عميقة، وكأن جسدي يطفو خفيفاً بعيداً عن كل مخاوفي، فوق نهر ما يتدفق دون صخب تحت صفصافة ضخمة وارفة الظلال حيث تتخللها أشعة شمس ربيعية، تتجه نظراتي نحو السماء، فأرى غيوماً أرجوانية تسبح بهدوء على وقع الريح التي تتسلسل بين أوراق الشجرة التي تظللني، وأغوص وسط ذلك السلام العميق العميق.

– ساعدني. – أستيقظ على هذا الصوت الذي أعرفه جيداً، إنه صوت مينة. أنهض جالساً في السرير، حيث مليكة إلى جواري تنام في عمق، تجول نظراتي في المكان فلا أرى أحداً. لا بدّ أنني أتوهم، وقبل عودتي للنوم أسمع الصوت مجدداً:

– ساعدني.

أرهف السمع فأكتشف أنّ الصوت قادم من غرفة الجلوس المقابلة لغرفتنا، فتعود نظراتي إلى مليكة التي تبدو غافلة عن هذا الصوت. أنهض بسرعة، فألمح ظلاً يعبر من أمام الباب.

– توقف. – أصرخ وأنا ألحق به.

ولكن الظل لا يتوقف، وحين أصل إلى الممر أجده قد فتح باب المنزل، وانساب إلى الخارج. إنه يشبه مينة.

– مينة.. مينة توقفي.

أصرخ منادياً، ولكنها تخرج دون أن تبالي بصرخاتي. فألحق بها على الفور، وما أن أخرج من باب المنزل، حتى أجد نفسي غارقا في ظلام دامس، لا يسمح لي حتى برؤية يدي. تجول يداي بحثاً عن زر الكهرباء دون طائل، فأتحسس الأرض بقدمي من أجل الوصول إلى السلالم، ورغم أنني أسير مسافة لا بأس بها، لكنني أعجز عن العثور على بداية السلالم. غير معقول، فالدرج لا بدّ أن يكون في مكان ما هنا، وفيما أسير مهتدياً بحدسي فقط، يلوح لي نفق يلوح وسط العتمة، ينساب منه بعض النور. حينها أرى نفسي وسط دهشتي، أقف في نهاية ممر طويل، ولكن منزلي يقع في الطابق العلوي. هل اختلطت عليّ الاتجاهات وصعدت نحو السطح دون أدرك ذلك؟ أسير نحو تلك الفتحة، وحين أصلها يغشى الضوء القوي بصري، لأجد الشمس وقد أشرقت، فأفرك عيني لأتمكن من استعادة الرؤية وتمييز مكاني. وحين أعتاد الضوء، يتناهى إلى مسامعي صوت مألوف.

– وأخيراً وصلت.

ألتفت نحو وجهة الصوت فأرى عمي يقف أمام لوحة قماشية، مرتدياً زياً طريفاً، وقبعة بيريه أمالها قليلاً على جانب رأسه، وهو يمسك بإحدى يديه فرشاة ألون، وبالثانية لوحاً خشبياً للألوان.

– أترسم لوحة؟ – أسأله.

– لا أتقن الرسم، ولكنني ارتديت هذه الثياب للتمويه لا أكثر – يوضح لي، وهو يشير بيده نحو الزاوية اليمنى في أسفل اللوحة – ألم تلحظ الإمضاء في زاوية اللوحة؟

فأنحني على القماشة باحثاً، ولكنها خالية من أي رسم أو إمضاء.

– ألا تراه؟ – يكرر السؤال.

– ولكن القماشة خالية، لا توجد عليها أي رسمة أو إمضاء. – أجيبه.

إلا أنه لا يصدق ما أقول، فيقترب من اللوحة أكثر وهو يشير بالفرشاة نحو الزاوية ذاتها قائلاً:

– أنظر إنه هنا. – ويكتب اسم مينة في الزاوية، ليسألني بعدها – ألم تعثر عليها؟

يضايقني السؤال، ولكنني أجيبه:

– ليس بعد، ولكنني سأجدها.

– لا داعي لذلك، فهي هنا.

تتجه نظراتي إلى حيث يشير، لأرى ذلك القصر القديم الموحش الذي

مكتبة

حلمت به قبلاً، بنوافذه القديمة، وجدرانه المتهالكة، وبابه الحديدي الأسود المجنح.

– أهي هناك؟ – أسأله مستغرباً.

– إنها تعمل لصالحنا منذ وقت طويل، في قسم الأرشيف. – يقولها بلامبالاة

– أتسخر مني؟

– ولما سأفعل ذلك؟ فقد انضمت للفريق الجديد الذي يعمل على تحديد الأرشيف وأتمتته.

– ولكنها لا تتقن استخدام الكمبيوتر.

– دعك من تلك الآلة الغبية، فنحن لا نحتاج عبيداً في العمل، بل عقولاً ذكية وفعّالة.

– ولكنها رسامة، فكيف ستفيدكم في الأرشيف؟

– ستقوم برسم نسخ عن صور جميع الأشخاص الموجودين في أرشيفنا، وقد قمنا بتوظيف اثنين من الشعراء الشباب أيضاً، وأصبح العمل يسير على قدم وساق.

– لا أفهم. فما حاجة الأرشيف للفنانين والشعراء؟ – أقولها وأنا أضحك.

– بالطبع لن تفهم، فالتغيير الذي أتحدث عنه ثورة حقيقية، ستحول عملنا إلى تحفة فنية متكاملة.

لا أستطيع سماع المزيد، فأقهقه عالياً.

– كفاك ضحكاً وسخرية، فالتغيير الجديد سيصبّ لمصلحتك أكثر من الجميع، لأنّ حبيبتك الصغيرة لن تفكر في التخلي عنك بعد الآن، بسبب طبيعة عملك.

أتوقف عن الضحك فيما يرمقني عمي غاضباً.

– ولكنها لم تتخلَ عني. – أقول له.

فترتسم على وجهه ابتسامة أبوية حانية وهو يقول لي:

– توقف عن الإنكار، فقد أخبرتني بكل شيء.

– ولكن أين هي؟

يضع الفرشاة ولوحة الألوان جانباً، وهو يقول لي:

– تعال معي.

ونسير جنباً إلى جنب نحو الباب، حيث يخرج مفتاحاً ضخماً من جيبه.

– هل تقفلون الباب عليها؟

– من أجل الأمان كما تعلم. – يقول لي باقتضاب.

لا يروقني ذلك ولكنني أبقى صامتاً، فيما يدخل المفتاح في القفل، وبعد سماع صوت طقتين يفتح الباب الحديدي. فيضع عمي القفل والمفتاح معاً في جيبه وهو يوضح لي:

– حتى لا يقفل علينا أحد الباب ونحن في الداخل.

يدفع الجهة اليمنى من الباب ويدخل وأنا أتبعه، وما إن نخطو نحو الداخل حتى تلفحنا رائحة طلاء قوية. فتتقلص ملامحي رغماً عني ولا أرغب في اللحاق به

أكثر.

– إنها رائحة طلاء عفنة. ستعتاد عليها. – يوضح لي عمي.

نجتاز الممر الضيق لندخل ردهة فخمة الأثاث، ورغم عدم وجود أحد لكن المكان لا يبدو وكأنه مهجور منذ سنوات. فتحت أقدامنا تمتد سجادة عسلية اللون تتخللها نقوش سوداء، تغطي ثلث أرضية الصالون. فيما يقبع بقية الأثاث الباروكي الطراز، بوقار تحت أضواء الثريات الكريستالية المعلقة إلى السقف.

لا يولي عمي اهتماماً لما حوله، وهذا يوضح أنه زائر مستمر لهذا القصر القديم. نتجه يساراً نحو باب خشبي بني اللون، وخشب الأرضية القديم يطقطق تحت وقع أقدامنا، فنجتاز الباب وندخل غرفة صغيرة.

إنه أشبه ببرج أكثر منه بغرفة حيث يتوسطها سلم دائري أسود اللون يتجه نحو الأعلى، فيبدأ عمي الصعود ممسكاً بالدربزون وهو يقول لي:

– فتاتك في الأعلى، علينا الصعود.

حين أرفع رأسي تجحظ عيناي دهشة، فلا السقف يظهر وما من نهاية لهذا الدرج اللولبي. فأفكر بأنّ القصر لا يبدو بكل هذا العلو من الخارج. أيعقل أننا دخلنا بناء آخر؟ أرغب في الاستفسار من عمي، ولكنه بدأ بتسلق الدرج، وعليّ اللحاق به. يصعد كلانا متعاقبين، وبعد حوالي عشرين درجة تظهر اللوحات المعلقة على الجدران حيث تحيط بنا من كل الاتجاهات مصفوفة بانتظام وبمسافات متساوية تفصل بين اللوحة والأخرى. وكلها عبارة عن بورترهات.

وكلما واصلنا الصعود تزداد الرائحة كثافة، فأشعر أنني بت أقرب إلى من رسم هذه اللوحات. يبدو أنّ عمي جاد فيما قاله حول وجود فنانين في الأرشيف يقومون بالرسم. إذاً فكلامه عن مينة أيضاً صحيح، تجتاحني موجة من البهجة، وأنا

أسرع الخطى، بحيث لا يفصلني عن عمي سوى خمس أو ست درجات لا أكثر، أريد اللحاق به وسؤاله عن مينة، ولكن أنفاسي المتقطعة لا تسمح بالكلام أو حتى مواصلة الصعود بهذا الإيقاع السريع. اللعنة، فالعرق ينضح من جسدي كله، ولكنني لا أبالي، بل أودّ اللحاق به وأنا أحاول استجماع كل قوتي، ولكن سخونة لاهبة تنطلق من مكان ما من أعماقي وتثقل حركتي، بحيث يزداد عدد الدرجات التي تفصل بيننا، فيما أراقبه في استغراب، فبينما أكاد أموت وأنا أحاول الإسراع قليلاً، يصعد هو بخطوات رشيقة، وكأنه شاب في مقتبل العمر. تزداد كثافة العرق والرائحة مع كل خطوة جديدة، أشعر بدوار خفي، وبأن جدران البرج الضيق تحاصرني مع كل خطوة، فأعجز عن سحب نفس جديد، وأظلّ واقفاً حيث أنا لبرهة من الوقت. وفيما تقترب مني الجدران بسرعة، أبحث عن نافذة أو فتحة يدخل منها بعض الهواء لأتنفسه، ولكنني لا أجد شيئاً سوى اللوحات المعلقة إلى جوار بعضها البعض، وعلى أمل أن تكون هناك نافذة وراء إحداها، أمد يدي لأقرب لوحة، وأزيحها عن الحائط، لأرى سحلية صغيرة تنظر إليّ لوهلة، ومن ثم تنسل على الحائط نحو الأسفل، فأزيح اللوحة الأخرى، أجل لم أكن مخطئاً، هناك نافذة، أقترب منها متلهفاً، ولكن يدي ترتعش، وأدرك أنني استنفدت كل قوتي، وسأقع أرضاً، أحاول المقاومة قدر ما أستطيع، فإن أغمي عليّ وسقطت، لن أنهض مرة أخرى. أواسي نفسي بفكرة الهواء النظيف الذي سيملأ رئتي بعد لحظات، وحتى مجرد التفكير في الأمر تتركني أكثر انفعالاً، لذا عليّ التحلي بالهدوء والحذر، إنها أكثر الخطوات خطورة. تنتقل الرعشة إلى قدمي أيضاً، ولكن لا يجب أن أستسلم. تمتد يدي إلى قفل النافذة، حين يصلني صوتي عمي من مكان ما من الأعلى:

– إياك أن تفعل.

حين أرفع رأسي، أراه يرمقني في قلق:

– إياك أن تفتح النافذة. – يكرر في جزع هذه المرة.

– أكاد أختنق.

– تحمل أكثر، كدنا نصل.

حتى هذه الكلمات القليلة، تستهلك جهداً هائلاً، بحيث يعجز لساني عن التحرك أكثر. ولكنني أمسك بالقفل وأديره، فيما يهبط عمي قافزاً الدرجات مثنى وثلاث، لكي يمنعني عن فتح النافذة. فأحاول التصرف بسرعة أكبر:

– لا تفعلها. – يصرخ جزعاً.

ولكن الوقت قد فات، فأتجه نحو حافة النافذة، ولكن قبل تنفس ذرة هواء منعشة، أسمع ضجيجاً صاخباً، وتبدأ السلالم التي نقف عليها بالترنح. أتمسك مرعوباً بالدربزون، ولكن القطعة التي أتمسك بها تظل في يدي، فيما تنهار البقية. تتجه نظراتي الفزعة نحو عمي طالباً المساعدة، ولكنني أجده مثلي يبحث عن مكان ما يتعلق به وسط رعبه الشديد، ولوهلة تلتقي عيوننا.

فيحدق النظر إليّ في لوم واضح وكأنه يقول لي: لما فعلت ذلك؟ أجد نفسي معلقاً في الفراغ فجأة، ومن ثمّ أبدأ في السقوط، ولكن الشيء الوحيد الذي يظلّ يلازمني هو تلك الرائحة النتنة التي لا تفارقني حتى في هبوطي السريع. تجول نظراتي بحثاً عن عمي الذي أخبرني أنها رائحة طلاء ما، ولكنني لا أعثر عليه. تتساقط قطع كبيرة من القرميد، أقواس من السقف، حجارة ولوحات مختلفة الأحجام. لكن الغريب أنها لا ترتطم بي، بل تبقى محافظة على مسافة محددة بيننا، وكأنني كوكب تحيط به سحابته الخاصة من النيازك والأقمار، نندفع جميعاً نحو ثقب أسود. لم يظهر عمي حتى الآن، أرجو أن يكون قد تمسك بشيء ما في الأعلى منعه من السقوط، وماذا عن مينة؟ لقد أخبرني عمي أنها في الأعلى، فهل كانت تتسلق السلالم مثلنا؟ أحاول النظر نحو الأعلى، ولكنه أمر محال على استطاعتي. أتكبد مشقة كبيرة في محاولة تحريك رأسي، فأشعر بحرارة جسدي ترتفع بسرعة

لاهبة، ويبدأ العرق بالنضوح من خلايا جسدي، ومن ثم أراه يتساقط قطراتٍ تسبقني لتستقر على قطع الحديد التي تهبط معي، والتي يتغير لونها مع الوقت. فبدل الأسود الفاحم تتخذ أولاً لون الصدأ ومن ثم البرتقالي. تصلني أصوات من مكان ما، فأفكر بأنها أصوات قطع الحديد التي ترتطم بالأرض وتحدث ضجيجاً هائلاً، ولكنها – ودون أن أعرف السبب – تبدو لمسامعي كصوت فرشاة هائلة الحجم وهي تضرب سطح لوحة قماشية بغضب. لا خوف في أعماقي، مجرد استسلام لأي ما ينتظرني على الأرض التي بتّ قريباً منها، حتى أنني أستطيع رؤية لوحة الموزاييك الكبيرة التي تفترش الأرض. لما لم ألحظها حين صعدت؟ الآن أميزها بوضوح من هذا الارتفاع، وهي عبارة عن لوحة لرجل ينظر إليّ. تتساقط قطع الحديد على اللوحة التي لا تتأثر، خلا اللون الأصفر الذي يصبح أكثر قتامة فيها، فالأماكن التي يلامسها الحديد، تصبح بلون الصدأ قبل أن تنتقل للأسود الفاحم. أما رجل الموزاييك فقد فتح عينيه على اتساعهما وهو يراقب سقوطي في اهتمام بالغ، أبادله النظر وأشعر بأنّ وجهه مألوف، حتى أكاد أجزم أنني رأيته في مكان ما.

– لا تخشى شيئاً، كان مجرد كابوس. – يصلني صوت لطيف، وحين أفتح عيني أجد مليكة إلى جواري. – أكان سيئاً جداً؟

– لا أتذكر. مجرد مشاهد متقطعة وغريبة.

– الفطور جاهز، هيا انهض لتأكل القليل، وستسترد طيب مزاجك.

– كم الساعة؟

– تكاد تبلغ التاسعة.

– لقد استغرقنا النوم.

– لأننا تأخرنا في السهر البارحة. – تقول وهي تبتسم ابتسامة ملغزة، تبدو لي غبية بعض الشيء لسبب لا أعرفه.

– هل ذهبت الفتاتان إلى المدرسة؟ – أسألها.

– منذ وقت طويل. – تقولها في ابتهاج.

أضيق ذرعاً بتصرفاتها وبهجتها؟ فأنهض متجهاً نحو الحمام، حيث يبدو لي وجهي أكثر تعباً من ذي قبل. لكن الماء البارد الذي أسكبه على وجهي يكاد يكون كفيلاً بإنعاشي، أترك حلاقة ذقني لما بعد الفطور، وأنا أتجه نحو المطبخ. تضع مليكة كوب الشاي أمامي حين جلوسي، فأنظر إلى وجهها الذي يبدو لي أكثر إشراقاً وحيوية من ذي قبل، وهو ما يشعرني بالضيق لسبب لا أعلمه. أتناول فطوري في صمت، وحين لا تجد لدي حماسة لمبادلتها الحديث تركن إلى الصمت بدورها. وفي حوالي العاشرة أغادر المنزل.

تقف شاحنة حمراء في الزقاق أمام عمارة المدام، فأدرك أنها هنا لنقل أغراض مينة، فيما أركن سيارتي بالقرب منها. وعند الباب أرى السيد متين وهو ينبه أحد العمال بألا يُسقط جهاز الموسيقى، لا تبدو سيفيم في الجوار. وحين أرفع رأسي نحو الأعلى، أرى المدام وماريا، تومئ المدام برأسها ملقية التحية، ولا يخفى حزنها حتى من هذا الارتفاع. أقترب من الباب، فيمد متين يده مصافحاً وهو يقول:

– أهلاً بك.

– مرحباً. – أقولها وأنا أبادله المصافحة.

– لم يتبقَّ سوى أشياء صغيرة. – يقول – إنه منزل طالبة، ولن تجد فيه أثاثاً كثيراً.

– سأصعد لألقي نظرة. – وحين أصل إلى طابق المدام، يفتح بابها،

ليظهر وجهها المحزون:

– صباح الخير. – أقول.

– صباح النور سيد سِدات، تفضل لنشرب فنجان قهوة.

– شكراً لك، يتوجب عليّ الصعود.

– لا أخبار جديدة عن المسكينة أليس كذلك؟

– ليس بعد.

– ربما لو عادت، لما رغبت بالانتقال من هنا.

– معك حق، فلن تقبل بذلك. – أعلّق.

– لِمَ قام السيد متين بفعل ذلك إذاً؟

– لديه منزل في منطقة آتاكوي، وقد تركه المستأجر، وهو لا يريد دفع إيجار هذا المنزل من دون سبب.

– وهل طالبته بدفع الإيجار؟ – تقول بحدة.

– لا أعلم ما أقول، فهو والدها، ولا نستطيع فرض شيء عليه.

– ألم يتذكر ضرورة الاهتمام بابنته، إلا بعد أن ضاعت منه؟

أبسط كفيّ، وأميل رأسي في عجز.

– عدْ إليّ بعد ذهاب الشاحنة، لكي نتبادل الحديث قليلاً. – تقولالمدام.

– سأفعل. – أقولها مشفقاً على هذه العجوز.

وفيما تغلق الباب، أتنحّى مفسحاً الطريق للشاب الذي يحمل اللوحات، وأتابع الصعود.

المنزل يكاد يكون شبه فارغ، فلم يبقَ سوى بعض أصص الأزهار أمام الباب، وعلبتين أو ثلاث من الورق المقوى في المطبخ، وكتبها في غرفة النوم، وبضع لوحات في الصالون، بالإضافة إلى الأريكة القديمة أمام النافذة. أتجول في الغرف الخالية، وأنا أرى مواضع الأشياء التي تركت أماكنها، أقلب قصاصات الورق المرمية هنا وهناك، فلا أعثر على شيء ذي بال.

– سأشتري لك واحداً جديداً.

ولكنها لم توافق، واعترضت قائلة:

– لن يحل الجديد مكانه.. فالأشياء لها شخصياتها الخاصة.

لم أحمل ما قالته على محمل الجدي، بل أخذت أضحك خلسة، وقد غضبت حين رأتني.

هؤلاء الشباب مهرة في العمل، فبعد نصف ساعة لا يبقى أي شيء في المنزل. فأغادر الشقة فيما يضعون آخر القطع في الشاحنة.

يقترب مني متين وهو يقول:

– كنت أودّ أن أسألك عن ذلك الرجل.

– أي رجل؟

– الرجل الذي كانت تحبه سابقاً، هل عرفتم من يكون؟

– أحد زملائها في الجامعة. – أقول له.

– ولكن سيلين لم تخبرني بذلك.

– ربما أخفت الأمر، لكي لا تثير المتاعب للمسكين.

– ألن تحقق معه؟

– في الحقيقة لا يوجد ما يدفعنا للشك فيه، ولكننا رغم ذلك سنحقق في الأمر. – أقولها بحيادية قدر المستطاع.

في تلك الأثناء تتجه نظراتي نحو نافذة المدام، التي تومئ بيدها وكأنها تخبرني أمراً ما. فأدقق النظر جيداً، لأراها تشير لي بالبقاء. وبعد برهة تظهر ماريا بجسدها الضخم على باب العمارة. تحمل بيدها بطانية ما، لا بدّ أنها بطانية مينة الكهربائية، والتي أعطتها للمدام لاتقاء البرد. تتجه ماريا نحوي لتعطيني البطانية التي أمدّها بدوري للشاب الذي وضعها فوق بقية الأشياء في الشاحنة. فيما تتبعني وقد أمالت رأسها نحو اليمين قليلاً.

– إنها لمينة آبلة15. – تقول.

– أجل. – أرد مبتسماً – إنها لمينة آبلة.

يصعد شابان إلى مؤخرة الشاحنة، فيما متين والشاب الآخر يتجهان نحو مقطورة السائق بعد أن يودعني. وبعد أن يغلقوا الأبواب، تبدأ ماريا في التراقص في مكانها بنفاد صبر. وما إن تتحرك الشاحنة حتى تجرني من معطفي نحو الداخل.

– ما الأمر ماريا، هل تحتاجين إلى شيء؟ – أسألها.

– لقد نسوا مينة آبلة.

– ولكنها ليست هنا يا عزيزتي.

– لقد نسوا مينة آبلة. – تكرر وهي تمسك معطفي بكلتا يديها، كيف

سأشرح لها بأن مينة مفقودة؟

– لقد غادرت آبلتك مينة هذا الصباح. – أقول.

– لم تغادر، إنها تنام في الداخل.

فأردد في نفسي أنني لست بحاجة إلى جنونك ليكتمل صباحيالمشؤوم.

– وأين تنام؟ – أقولها مستسلماً.

– هناك. – تقولها وهي تشير في تردد إلى الطابق السفلي.

– حسناً إذاً، دعينا نرى. – أقولها في محاولة التخلص منها.

– تعال. – تقول وهي تمسك بيدي، وندخل العمارة، حيث نقف أمام باب الشقة في الطابق الأرضي.

– إنها تنام في الداخل مثل الأرانب.

تصعقني كلماتها.

– مثل الأرانب؟

يا إلهي، ما الذي تقوله هذه الفتاة؟

– هل المفتاح معك؟ – أسألها في لهفة.

فتفتح يديها الفارغتين في براءة أمام وجهي.

– انتظريني هنا. – أصعد بسرعة، وأطرق باب المدام التي تتهيأ لدعوتي إلى الدخول، ولكني أسألها لاهثاً – ألديك مفتاح الشقة الأرضية؟

ترمقني في ذهول دون أن تفهم سبب رغبتي في فتح تلك الشقةالقديمة.

– أرجوكِ أعطني المفاتيح، وسأشرح لك فيما بعد. – أقول.

تستدير نحو الداخل، وتحضر المفاتيح.

– عاملة التنظيف ليست هنا، وأخشى أنّ ماريا قد عاثت فوضى في المكان. – تقول وهي تمدّ لي المفاتيح.

– لا عليك، فلست شخصاً غريباً.

آخذ المفاتيح وأسرع بالهبوط، حيث ماريا تنتظرني في هدوء أمامالباب.

أدخل المفتاح في القفل الذي يفتح بعد دورتين، وتظهر الحانة التي سمعت عنها من قبل. في الصالون الواسع الذي أزيل الجدار بينه وبين الغرفة المجاورة، تصطف عشر طاولات مع كراسيها بانتظار زبائنها القدامى الذين لن يعاودوا المجيء أبداً. أما في البوفيه فقد اصطفت الكاسات وقناني الشراب، صحون وملاعق وسكاكين، كما غطيت الجدران بغطاء من القش الباهت علقت عليه صور للحانة في أيام مجدها، كما علقت قصاصات أوراق مصفرة لمقالات وأبيات من الشعر.

ولكن مينة لا تظهر في المكان، فأفكر أنه من الغباء الركون لما تقوله هذه المعتوهة المسكينة، كما أنني سأبدو في موقف محرج أمام المدام حين صعودي. لكن صوت آلة ما يشدّ انتباهي، إنه الصوت ذاته الذي سمعته قبل مدة، حين جئت ليلاً؛ صوت محرك البراد.

– أين هي مينة آبلة؟ – أسأل ماريا.

– تنام في الداخل. – تقول وهي تشير إلى الباب المفتوح الذي يصدر منه الصوت. وكلما اقتربنا يزداد الصوت ارتفاعاً، وفي الداخل أرى ثلاجة ضخمة من بابين.

– إنه لبابا. – تقول وهي تقترب من البراد وتحتضنه بذراعيهاالمفتوحتين.

أشعر بقشعريرة تنتابني، فيما صوت محرك البراد يواصل الطنين في أذني. تلتحم أجزاء القصة المخزنة في ذهني بشكل فوضوي، وتصطف إلى جانب بعضها في ترتيب مريع يكاد يوقف قلبي. أحاول الابتعاد عن هذه الاحتمالات الموجعة، عن الطريق الملعون الذي تفضي إليه ولكنني أعجز عن ذلك. فمهما حاولت الابتعاد، يعيدني ذهني إلى الكابوس ذاته. أقف وسط مخاوفي أمام باب البراد للحظات، دون أن أفقد كل أملي، بل ما زال جزء من ذهني يحاول التمسك باحتمالات أخرى أقل ألماً.

تعود إلى مخيلتي صور مداهمتنا لمنزل أوسكودار. ظلان يهربان وسط الضباب. أصوات إطلاق النار. يصاب أحدهما، ولكنه لا يسقط أرضاً، بل يواصل الركض. ربما يحاول الآخر المساعدة، ولكن الظل المصاب يقول إنّ إصابته ليست بليغة، وقد لا يكون مدركاً بأنه مصاب، لكنه في جميع الحالات يفضل العودة إلى منزله. يستقلان سيارة أجرة، فتنزل مينة في مكان ما قريب من المنزل، وحينها أتذكر ما قاله لي شرف البقال حول عودة مينة إلى المنزل في حوالي التاسعة مساء، في آخر مرة رآها فيها، وهو تاريخ مطابق لفترة اختفائها. وحين تدخل العمارة تعجز عن مواصلة السير فتستلقي على السلالم، وفي تلك الليلة تهبط ماريا نحو الطابق السفلي، لإخراج بعض الأطعمة من البراد، فتراها على تلك الحالة، وتحملها متجهة نحو البراد، كما كانت تفعل مع طرائد والدها الميتة من الأرانب.

– لا.. لا.

يصرخ قلبي موجوعاً، ولا أجد في نفسي الشجاعة لفتح الثلاجة ومعرفة الحقيقة. تتجه يداي المرتعشتان نحوها أخيراً، ولكن قبل أن أفتحها ألحظ ماريا التي تراقبني في براءة أقرب إلى الشفقة على حالتي، وفي حركة سريعة لا تمهلني فيها الاستعداد لما ينتظرني تفتح الباب وهي تقول:

مكتبة

– ها هي مينة آبلة.

يسطع ضوء أحمر من البراد يتساقط على الأرض، ويمنعني من رؤية ما بداخله. ألمح كتلة ما في الداخل، ولو أبعدت ماريا قليلاً، سأتمكن من رؤيتها بوضوح ولكنني لا أفعل، لأنني أتمرغ وسط عجزي وخوفي وترددي. ولكن ماريا تتنحى جانباً بسرعة وكأنها تتكهّن بما يجول في ذهني، فتحاول أن تضعني أمام الحقيقة في أسرع وقت ممكن.

خلف جسدها الضخم، يظهر وجه مينة النحيل، تسقط الأشعة الحمراء على بشرتها المتجمدة، فيخيل لي أنها تنظر إليّ مبتسمة وكأنّ شيئاً لم يكن. أحاول ردّ الابتسامة ولكنني لا أستطيع.

– إذاً فقد كنت تختبئين هنا؟ – أقول.

ولكنها لا تجيب، بل تواصل التحديق بنظرات لا أدري إن كانت اتهاماً أم غبطةً لرؤيتي مجدداً.

– قلقنا عليك كثيراً. – أقول.

إلا أنها لا تردّ سوى بابتسامتها التي تذكرني بكل لحظاتنا السعيدة والبائسة معاً.

– لقد خفنا عليك، خفنا كثيراً.

فتقترب مني ماريا وهي تقول:

– هششش. إنها نائمة.

ولكني أواصل الحديث مع مينة التي أشعر إنها ستضيع مني إن توقفت عن الكلام، وتبقى ترمقني بابتسامتها الثابتة.

– ظننا أنهم قاموا بخطفك.

تستلقي في الثلاجة دون أن تحرك شفتيها أو حتى حدقتي عينيها، لا شيء سوى ابتسامتها الخالدة المتجمدة.

لا تزيح نظراتها عن وجهي، ولكن هذه الابتسامة التي على شفتيها القرمزيتين المتجمدتين، توحي إليّ أنها غادرت إلى ما وراء حدود يستحيل عليّ بلوغها الآن. فأرغب في الاقتراب منها، ونفض ذرات الثلج المتراكمة عليها كالملح، حينها ربما تبادلني الحديث، ونخرج سوياً من هنا. يلفحني الهواء البارد القادم من الثلاجة، ولكنني أقترب من حبيبتي، وتلامس ثيابها المتجمدة جسدي، إلا أنني لا أبالي، أريد أن أحتضنها والخروج من هنا، حتى تختفي تلك الابتسامة الغريبة عن وجهها، وتذوب هذه البرودة التي تفصل بيننا.. أحتضن جسدها الفتي المتخشب وأنا أحاول إخراجها. ولكن عبثاً، فالثلاجة ترفض إعادتها إليّ، فأشعر أن كتلة جليد ضخمة يصبغها ضوء الثلاجة الأحمر قد احتلت موضع قلبها، ألامس بشرتها الناعمة في عجز، حتى بشرتها باردة وبعيدة عني مثل ابتسامتها.

– لماذا لا تحاولين مساعدتي؟ – أقول.

تواصل الابتسام، فأحدق إلى عينيها اللتين ترمقانني في غرابة، ولا أجد في ذلك البعد البارد الذي تنظر نحوه جواباً لسؤالي المعلق على حبال كارثتي. أشيح بنظري عنها، فأرى البقعة القاتمة العالقة على الأرضية، وأتذكر حينها أنها كانت تحمل جنيني في بطنها.

– لا. مستحيل، كل هذا ليس حقيقياً. مستحيل.

أضرب باب الثلاجة غاضباً، فيُغلق في صخب. وعلى الباب الحديدي اللامع أرى صورة رجل تهدلت كتفاه، وتغضّن وجهه في تكشيرة ألم مضنية، ستدفعه للبكاء في أي لحظة. يبدو وجهه مألوفاً لي، بل أجزم أنني أعرفه. يسحبني

أحدهم من كتفي، أتلفت لأرى ماريا وهي ترمقني بود منتظرة أن أشكرها على ما قامت به. فأشيح بنظري عنها، ولكنها لا تتركني وشأني، بل تمسك بطرف معطفي وتجره بإلحاح وهي تقول:

– متى ستستيقظ مينة آبلة؟

Notes

[1 ←]

تعني بالتركية الأخ الأكبر، وتطلق على أشخاص آخرين دلالة الاحترام.

[2 ←]

نوع من الكعك في تركيا ذو شعبية واسعة.

[3 ←]

إحدى مناطق إسطنبول.

[4←]

منظمة تشكلت من تحالف ضم تركيا وإيران والعراق وباكستان والمملكة المتحدة، كامتداد للناتو، عام 1955–1959. كان الهدف منها الحد من نفوذ الاتحاد السوفياتي في الشرق الأوسط.

[5 ←]

الروم: هم المجتمع اليوناني القاطن على حدود الجمهورية التركية والذي يعود تاريخ وجوده إلى العصور القديمة. أغلبيته من المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين وأغلبهم ينطق باللغة اليونانية كلغة أم، ويعيش معظمهم حالياً في إسطنبول.

[6 ←]

أغلب الظن أنه يشير لأتاتورك.

[7 ←]

سخرية من تعنت العم وتمسكه بهذه الأفكار.

[8 ←]

هو مصطلح أنشأه «سيجموند فرويد» ويشير إلى التعلق اللاواعي للفتاة بأبيها وغيرتها من أمها.

[9 ←]

لقب ساخر للتهكم ممن تخونه زوجته دون أن يدري.

[10 ←]

إحدى أقدم مناطق إسطنبول على البر الآسيوي.

[11 ←]

هو الاسم الذي يطلق على الغجر في تركيا، ولا علاقة له بالسكان من ذوي أصول يونانية أو رومية..

[12 ←]

السير إرنست هانز جوزيف غومبريتش 1909–2001 كاتب ومفكر ومؤرخ بريطاني الجنسية نمساوي المولد. له العديد من الكتب والمؤلفات في التاريخ والفن والثقافة منها كتاب تاريخ الفن وكتاب مختصر تاريخ العالم.

[13←]

أحد أشهر فناني القرن العشرين، اكتشافاته في مجال الفن التجريدي جعلته واحدا من أهم المبتكرين والمجددين في الفن الحديث. كما كان عرف كفنان وباحث نظري لعب دوراً محورياً ومهماً جدا في تطور الفن التجريدي.

[14 ←]

هو الاسم الأدبي ليوجين إميل بول جريندل 1895–1952، شاعر فرنسي كان واحداً من مؤسسي الحركة السريالية.

[15 ←]

كلمة تعني الأخت الكبرى بالتركية، وهي تطلق على الصديقات والمعارف أيضاً.